المجالس الحسينية

لخادم العترة النبوية

الدكتور الشيخ أحمد الوائلي

(قدّه)

تصوير الكتاب

حسين الخزاعي

ومن تخلف عنها غرق

إعداد

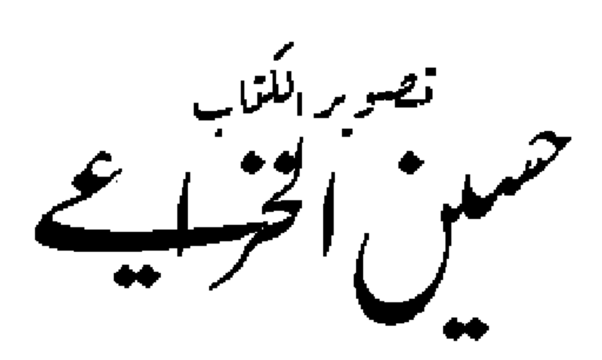
مركز الإمام الحسن المجتبى

للتحقيق والدراسات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

المجالس الحسينية لخادم العترة النبوية

الشيخ الدكتور أحمد الوائلي (قده)



إعـــداد

مركز الإمام الحسن المجتبى
للتحقيق والدراسات

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠

الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م



مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - طريق المطار - قرب سنتر زعرور

هاتف:٤٥٠٤٢٦ / ٠١ - فاكس:٤٥٠٤٢٧ / ٠١

صندوق بريد:٧١٢٠

Published by Aalami Est.

Beirut Airport Road

Tel:01/450426 Fax:01/450427

P.O.Box.7120

E-mail:alaalami@yahoo.com

http://www.alaalami.com

الإهداء

إلى روحه الطاهرة

إلى نفسه المطمئنة بخدمة الحسين عليه السلام

إلى صاحب هذا العطاء

عميد المنبر الحسيني

الدكتور الشيخ أحمد الوائلي (قدس سِرُّه)

نهدي ثواب هذا العمل

لجنة التحقيق
في مركز الدراسات

تصوير الكتاب

حسين الخزاعي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، حبيب إله العالمين محمدﷺ وعلى آله الطيبين الطاهرين المعصومين.

وبعد

قال تبارك وتعالى بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾.

إيماناً بما جعله الله من مراتب للعلماء ولما خصهم به من الفضل والتفضيل على بقية الناس، ولأن العلماء هم القادة ولا بد من إحياء تراثهم الخالد فقد قام مركزنا ـ مركز الإمام الحسن المجتبى عليه السلام وبطلب من الأخوة الأعزاء في مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بجمع التسجيلات الخاصة بمحاضرات عميد المنبر الحسيني الشيخ الدكتور أحمد الوائلي(قده) وقمنا بتحويل هذه الأشرطة

إلى محاضرات مكتوبة وقمنا بتبويب المواضيع وتخريج الأحاديث والآيات القرآنية والأبيات الشعرية، وبهذا يتسنى لكل من يُريد أن يكتب موضوعاً أو محاضرة أو مجلساً يجد ما يريد جاهزاً، هذا هو الهدف الفرعي من هذا العمل، أما الهدف الرئيسي من هذا العمل هو إحياء تراث هذا العالِم الذي كان يُلقب (بالمكتبة الشيعية المتنقلة) والذي كان بمحاضراته يهزُّ عروش كل الظَلَمة والمُلحدين ويُسفِّه آراء كل الناصبين العداء لأهل البيت(ع) بأسلوب علمي دقيق كان يعتمد فيه ذكر المصادر التي يأخذ منها الأدلة التي يحاجج بها كل من يحاول أن يشوّه صورة الإسلام والمذهب وعن خط الولاية الكبرى ولاية آل محمد والتبري من أعدائهم.

ونحن في هذا الكتاب، والذي هو أول عمل من سلسلة كتب، بدأنا بالمجالس الحسينية إيماناً منّا بأن رسالة عاشوراء هي رسالة الصحوة لكل من كان غافلاً عن ظلم الظالمين وعن التحرك ضد هؤلاء الذين عانوا فساداً بكل مقدسات الإسلام.

هذا الكتاب لكل مبلّغ وخطيب يريد أن يحذو حذو عميد المنبر الشيخ الوائلي، لأننا في هذا الزمن الصعب بحاجة إلى جيل من الخطباء والمُبلّغين ممن يحملوا فكراً متقدماً مثل فكر الشيخ الراحل، وممن يردّون على كل الشبهات التي تحيط بنا من كل جانب.

وسبحان ربك رَبُ العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين محمد وآله الطاهرين.

لجنة التحقيق
مركز الإمام الحسن المجتبى(ع)
للتحقيق والدراسات ـ عنقون ـ جبل عامل
٤/ ذي القعدة ـ ١٤٢٨هـ

الليلة الأولى

الشهر الحرام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾(١).

الجوانب المحتملة في الآية الكريمة

يسلك المفسرون إزاء هذه الآية الكريمة أحياناً بشكل جنائي، وفي بعض الأحيان يسلكون بشكل اقتصادي، وفي بعضها يسلكون بشكل اجتماعي.

فالذين يسلكون إزاءها بالشكل الاجتماعي يشيرون إلى أن هذه ظاهرة كانت موجودة قبل الإسلام، وجاء الإسلام وأيّدها.

والذين يسلكون إزاءها بالشكل الاقتصادي ـ وهم مجموعة من الفقهاء ـ يقولون في هذا المقطع: ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾ ومن جملة الحرمات أجر العامل،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

فإذا قصّر المستأجر فإنه يدان بتقصيره. وبكلام آخر: إذا نقص من أجر العامل، فلأجره حرمة.

والذين يسلكون إزاءها بالشكل الجنائي يقولون: إن الآية أباحت للمسلمين أن يجيبوا على الدم الذي يسفك في الشهر الحرام بدم مثله. وبكلام آخر: إذا بدأ الآخرون المسلمين بالقتال في الشهر الحرام، فللمسلمين أن يردّوا على ذلك، لكن ليس لهم حق أن يبدؤوا به.

إذاً لهذه الآية ثلاثة جوانب، وهي جوانب متداخلة مع أن كل واحد يتناولها من جانب اختصاصه، فلنتناول الجانب الاجتماعي منها:

الجانب الاجتماعي

كانت الحياة في الجزيرة العربية قبل الإسلام قائمة على أسس غير مستقرة، كان هناك مجتمع رعوي ـ غير زراعي ـ وليس فيه تدرّج نحو الاستقرار والنظام، بل كان يقوم على أساس قبلي، وهذا الأساس القبلي ينطوي على قضايا متعددة، ومن جملتها عدم الاستقرار في السكن، لأن السكن يتبع الماء والعشب، فهو بالتالي ليس له وطن. ومن جانب آخر، هذا المجتمع ليس ذا معاش مضمون، فإذا جنّ الليل قد يضطر أحدهم لأن يخرج وينهب من فلان وفلان، ولذلك يقول أحد الشعراء:

وإن تكن الحرارة أعجبته ... فأي رجال بادية ترانا

ومن رطب الجحاش فإن فينا ... قناً سلباً وأفراساً حسانا

فليتأمل في هذا: إذ ليس عنده وسيلة مشروعة، فيضطر إلى السلب والنهب، حتى أنهم يفتخرون بأن أفضل طعام يأكله الإنسان هو الطعام الذي يأخذه عن طريق النهب والسلب، حيث إن الناس الذين يأكلون طعامهم عن

طريق الكسب والربح جبناء في نظر هؤلاء، لأنهم يتخذون طريقاً غاية في الجبن في سبيل تحصيل الطعام، وقد انعكس ذلك، كميراث اجتماعي على الأدب كما في قصيدة البحتري التي يصف فيها إيوان كسرى:

وليل كأن الصبح في أخرياته

إذاً هذا اللون من الحياة غير المستقرة تنعكس عنه أوضاع اجتماعية أيضاً مثل تلك التي يصفها أمير المؤمنين عليه السلام: «وكنتم على شر دين وفي شر دار، الأصنام فيكم منصوبة، والآثام فيكم معصوبة، تسفكون دماءكم وتقطعون أعماركم»[1].

وهذه الصورة تعبّر عن وضع اقتصادي غير ثابت، ولما لم يكن هناك استقرار في حياتهم فإنها قامت على الرمح والسيف، وسفك الدم. ولكن الإسلام عندما جاء وجد عندهم عادة رائعة وطيبة، ذلك أن بعض الأشهر يعتبرونها أشهراً حرماً، وفي هذه الأشهر لا يقاتلون بعضهم البعض، ويمنعون فيها سفك الدماء والقتال والحرب. وبما أن الإسلام لا يملك عداءً مع العادة التي ترفع الفعل الإنساني إلى مستوى القيم أقرّ هذه العادة، وأمر بحفظ الدماء من أن تسفك، وبالتالي حفظ الأعمار من أن تقطع.

فهذه العادة ليست من مبتكرات الإسلام، لأن الأشهر الحرم كانت موجودة في الجاهلية، وكان العرب يطلقون على شهر المحرّم اسم شهر المؤتمر، لأنهم كانوا يأتمرون فيه، فيجتمعون ويتبادلون فيه الآراء لحل مشاكلهم بشكل سلمي بدون قتل ولا قتال. ولما جاء الإسلام أكد هذا المعنى وأقرّه، معتبراً أن لهذه الأشهر الحرم حرمة، حيث إن العرب في الجاهلية، كانوا ملتزمين بذلك، حتى

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٩١.

أن أحدهم كان يرى قاتل أبيه وقاتل أخيه ولا يستطيع أن يهيجه بأذى. وكان هذا أمراً صعباً جداً، لأن تأصّل الثأر في نفوس العرب كان عميقاً جداً، فلا يجب اعتبار ترك الثأر في هذه الأشهر أمراً سهلاً على نفوسهم.

روي أن الرسولﷺ عندما كان في المدينة، كان مجتمعها بيده، غير أن هذا المجتمع كان غير متوازن اقتصادياً، فأهل المدينة عندهم أموال وبساتين ومحال تجارية، أما المهاجرون فقد جاؤوا إلى مكة فقراء، لا يملكون شيئاً. حيث إن قريشاً قد سلبتهم كل شيء، وقد تلقّاهم الأنصار وآخوهم امتثالاً لأمر رسول اللهﷺ. وعندما حصل رسول اللهﷺ على سبي بني النضير، أخذ منهم الأموال ووزعها على المهاجرين فقط إلا قليلاً من الأنصار والفقراء، ولم يتوصل باقي الأنصار إلى مغزى ذلك، إذ كان هدف الرسولﷺ هو إقامة التوازن الاقتصادي، بعد أن كان التباين الاقتصادي بين المهاجرين والأنصار ينعكس عنه أوضاع اجتماعية سيئة، فهناك من له ثروة كبيرة وهناك من يعيش في فقر مدقع، وطبعاً الثروة الكبيرة تحتاج إلى تصريف لجني الأرباح، ولا بدَّ من أعمال غير نظيفة لذلك الغرض.

ومن أجل خلق أوضاع اجتماعية مستقرة، عبر إيجاد نوع من التوازن الاقتصادي، وزع رسول اللهﷺ الأموال من سبي بني النضير على المهاجرين وبعض الأنصار الفقراء، فقام عبد الله بن أبي، وقال: «القي محمد ضربة، إذ رجعنا إلى المدينة، ليخرجن الأعز منها الأذل، نحن استقبلناه وآويناه، وفتحنا صدورنا له، يأخذ أموال السبي ويعطيها إلى أصحابه وجماعته!».

ووصلت الكلمة للرسولﷺ، وسكت عن الرد على ذلك وقتها وكان قد قرر أمراً، فجاء ابنه فدخل على النبيﷺ وقال له: روحي لك الفدا، لقد

سمعت أن أبي قد صدرت منه هذه الكلمة، وأنت متألم لذلك، وقد بلغني أنك تريد أن تقتله، وأنا أريد منك شيئاً. فقال رسول الله ﷺ: «ما هو؟». فقال: إذا أردت قتله، فأطلب منك أن أتولى ضرب عنقه. قال ﷺ: «لماذا؟». قال: لأمرين، الأول: أن تعلم أننا لأي أمر نقتل الآباء والأبناء، والأمر الثاني: أخشى أن تدركني حميّة الجاهلية فأقتل قاتل أبي لعلّي لا أصبر على رؤيته، فأرتد عن الإسلام[1].

فإذاً مسألة طلب الثأر عريقة في نفوس هؤلاء وفي حضارتهم، وتظل الأسرة تخشى العار إن هي تلكأت في تنفيذه. ففي الجانب المدني من الحضارة يمكن تغيير وسائل الحياة، مثلاً، الطائرة تحل بدلاً من الفرس، لكن في الجانب الفكري والنظري من الصعب تغيير العقائد والعادات وأضرب مثلاً على ذلك، كان عندي مجلس يوضع فيه المنبر في مكان معين، وأحببت أن أغير هذا المكان، فاعترض والدي وقال: إن وضع المنبر في هذا المكان هو عادة ثابتة، ولا أستطيع أن أغيّر مكانه.

وعلى أي حال، كان رسول الله ﷺ يعرف أن هذه الحالة متأصلة في نفوسهم، لكن تمكن من القضاء على جميع السلبيات ومن بينها مسألة سفك الدماء، وذلك حين تم تثبيت مسألة الأشهر الحرم، وتأكيدها واحترامها.

وحين وصل الأمويون إلى الخلافة، ماذا يمكن أن يُتوقع حصوله منهم سيما إن كان رئيس الدولة هو القانون؟ وماذا تنتظر من الناس ومن الرعية؟ جاء هؤلاء إلى البيت الحرام وإلى الشهر الحرام وإلى الدم الحرام، فماذا فعلوا؟.

---

(١) مجمع البيان: ١٠/ ٣٧٣ ـ ٣٧٥.

لقد أباحوا حرمة الجميع، فهذا عبد الله بن الزبير البصري له ولدان، صرعوا في كربلاء، يخاطب ابنته بعد فقد أولاده ويقول:

يـا فـرو قـومـي فـانـدبـي ... خـيـر الـبـريـة فـي الـقـبـور

وابـكـي الـحـسـيـن مـع الـنـهـو ... ض مـع الـتـنـفـس والـزفـيـرِ

قـتـلـوا الـحـرام مـن الأيـمـ ... ـة فـي الـحـرام مـن الـشـهـور[1]

فالواضح إذاً أن الأمويين لم يراعوا حرمة الشهر الحرام، وكذلك فعلوا بالكعبة التي ليس عند المسلمين مكان أكثر حرمة منها، فهي قبلة كل مسلم ومأوى كل المسلمين، وهذه الكعبة قد تعرضت إلى سفك الدماء من قبل الأمويين، وتعرضت أيضاً إلى ضرب المنجنيقات أكثر من مرة، ووصل الأمر إلى أن تحرق نهائياً. ومن الغريب أن يمر التاريخ على هذه المسألة ويتعامل معها ببرود قاتل.

وكذلك حال المدينة فها هو الوليد بن عبد الملك يأمر بهدمها[2]، وها هو مسرف يصل إليهما ويجعل الدماء تجري فيها حتى تصل قبر النبيﷺ[3]، وهذا شيء غريب، إذ إن الشهر الحرام والبلد الحرام كانت تحترمهما حتى العرب في جاهليتها.

ولهذا حاول الحسينعليه السلام أن يخفف قليلاً من وطأة المصيبة، فأراد أن يبتعد عن الكعبة، لأنه لو بقي في مكة، كما أشار عليه جماعة، لكان قد سُفك دمه داخل الكعبة، وقد قال عليه السلام: «لو بقيت متعلقاً بأستار الكعبة لأراقوا دمي».

---

(١) مثير الأحزان: ٦١.

(٢) تاريخ الطبري: ٥/ ٤٩٨.

(٣) تاريخ مدينة دمشق: ٥٨/ ١٠٨.

فإذاً الشهر الحرام حافظ على حرمته تاريخ العرب، وحافظ عليه المسلمون، لكنه أهدرت حرمته على أيدي الأمويين.

وهذا هو الجانب الأول من الآية، أما الجانب الثاني فهو إصرار أهل البيت عليهم السلام على الاحتفاء بهذا الشهر، مع أن البعض يتصوره موسماً للبكاء، وهذا غير صحيح: لأن الدمع لا يرجع شيئاً فات ولو طال دهراً، لكن الواقع أن الأئمة عليهم السلام استغلوا الجانب العاطفي في هذا الشهر، لأنه الوسيلة الممكنة لإحياء النفوس وتوجيهها للنظر إلى قضية الحسين عليه السلام. فهم عليهم السلام حرصوا على أن يتركوا في وجدان كل مسلم شيئاً من نهضة الحسين عليه السلام وشيئاً من واقعة الطف، وأن هناك في هذا الأمر قضية مقدسة، وهذه القضية المقدسة هي أن الحق ذُبح يوم ذبح الطفل، وأن الحضارة، ذُبحت على أيدي الأمويين.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «رحم الله من أحيا أمرنا»[1]، وليس إحياء أمر آل البيت بالبكاء وحده، فهذا قليل جداً، إذ الأمر المناط بالمسلم هو أن ينصهر مع المفاهيم التي من أجلها نهض الحسين عليه السلام في ثورته المباركة، يوم قارع الظلم من أجل الحق.

فإذاً إصرار أهل البيت عليهم السلام على استغلال هذا المأتم لدعم الحق والوقوف بوجه الباطل كان لهذا الجانب الذي أوضحناه، ومن يظن غير ذلك فهو واهم.

ومن جهة أخرى وظفوا عليهم السلام هذا المأتم لا من أجل الدمع فقط، بل أيضاً لتقديس آثار الطف، ومن بينها تربة الحسين عليه السلام، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»[2]، وكان أمرهم عليهم السلام بالصلاة على هذه

---

(١) المحاسن: ١/ ١٩.

(٢) الخصال: ٢٩٢/ ٥٦.

التربة هو لجعل المسلم على اتصال بالقضية، قضية صراع الحق مع الباطل، كما أن الوقوف على الأطلال كما هو معروف يولّد النظر والكثير من العبر. والموضوع كله لا يخلو من إيحاء بالقيم التي قدمها الحسين عليه السلام يوم الطف، فقد وقف هناك موقفاً غاية في الصلابة وغاية في التضحية، وقد مثّل المروءة، وهو ينظر إلى الجيش، إذ جاءت إليه أخته زينب عليها السلام وعيناها دامعتان.

فإذاً أهل البيت عليهم السلام كانوا يستعملون مختلف الوسائل كي يشدونا إلى واقعة الطف وإلى معانيها، ومن جملة الوسائل التي وظفها آل البيت عليهم السلام في سبيل ذلك الغرض الشعر، فحين تقرأ قصيدة في هذا الموضوع تجد فيها معاني جديدة من إصرار على الحق، ليشد الناس إلى واقعة الطف، كما يقول الشاعر:

مررت على أبيات آل محمد ... فلم أرها أمثالها يوم حلتِ

فلا يبعدِ الله الديار وأهلها ... وإن أصبحت منهم برغمين تخلتِ

وإن قتيل الطف من آل هاشم ... أذل رقاب المسلمين فذلت[1]

فمن يتصفح أدب الطف، يجد أدباً عاصر المأساة، ونقل الحق والمواقف، ونقل درساً من الدروس.

نعود إلى الآية، يقول الحق تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ هناك بعض ممن يشكك في موقف الحسين عليه السلام ويقول: لماذا قاتل في الشهر الحرام؟ والجواب: إن من بدأ القتال هو غيره، وقد حوصر عليه السلام من كل جانب بجيش جرار، فهل يتوقف عن الدفاع عن نفسه والله عز وجل يأمر كل فرد بالدفاع عن نفسه.

---

(١) بحار الأنوار: ٤٥/ ٢٤٤، ٢٩٠، ٢٩٣.

في اليوم العاشر من المحرم جاءت أم إسحاق إلى الحسين عليه السلام وهي تحمل طفلها وقالت له: هاكم رضيعكم يا آل محمد، لقد جف صدري. فأخذه الحسين عليه السلام وهو يطيل النظر في وجهه ثم قال: «بني، تعساً لقوم قتلوك» ثم كبّر في أذنه اليمنى، وقبّله، فأقبل إليه سهم ذبحه من الوريد إلى الوريد، وضع الحسين عليه السلام يده تحت عنق الطفل حتى امتلأت دماء، وقذف بها إلى السماء وقال: «اللهم بعينك». وهذا هو المعنى الذي يؤكده أهل البيت عليهم السلام.

اليوم الأول

دور الأدب
في كشف أسرار النهضة الحسينية

إن تـمـسِ مـنـكـسـر الـلـوا
مُـلـقًـى عـلـى وجـه الـرمـولِ
فـلـقـد قُـتـلـتَ مُـبـرًّأً
عـلـى كـلِّ عـيـبٍ بـالـقـتـيـلِ
يُـهـدى لـك الـذِّكـر الـجـمـيـلُ
عـلـى الـزمـان بـمـسـتـطـيـلِ

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأول ـ الأدب العربي يعمّق مفاهيم واقعة الطف:

من أبرز الظواهر في واقعة الطف أن الأدب العربي لعب فيها دوراً كبيراً في تعميق المفاهيم التي كانت هدفاً من أهداف هذه الواقعة. ولتوضيح الفكرة

نقول: لا شك أن الأحداث التي وقعت في الطف فيها ما دعا الأئمّة عليهم السلام إلى تسجيلها بالشعر والشعر تاريخ ثانٍ، وهو ديوان العرب كما يقال. وهذا المنهج في التعبير لعب دوراً كبيراً في واقعة الطف على مختلف الأبعاد، وقد حاول الأئمّة بكل صورة تغذية هذا الجانب ـ أي استخدام الشعر كوسيلة للتعبير عن أحداث الطف ـ فلماذا كان هذا المنهج؟.

نحن نعرف أن الشعر طاقة، وهذه الطاقة كانت وما تزال فعّالة، فأنت عندما تأتي إلى تاريخ العرب تجد أن الشعر لعب دوراً كبيراً في حضارتهم. وقد تقول: إن الشعر عندهم منتزع من بيئتهم التي تقوم على القتل والقتال والتفاخر، وهذه البيئة تحتاج إلى ألسنة معبّرة والشعر والأدب وسيلةُ تعبير سريعة تتلقّفها الجماهير. ولكن الشعر لم يلعب هذا الدور عند العرب فقط، إنما لعبهُ عند الأمم الأخرى، فهو يلعب دوره في الحضارة الأوربية حتى الآن.

لقد استطاع الكثير من الشعراء في أوروبا بقسميها الشرقي والغربي تخليد ثورات بكاملها، والشاعر يعتبر مؤشراً من مؤشرات الثقافة العالية، وللشعر دوره ودويّه وآثاره على الجماهير في مختلف الأبعاد، وعلى امتداد التاريخ. فليست المسألة إذاً أن البيئة العربية أفرزت هذه الظاهرة كما يقول البعض.

ويبدو أن الشعر سِجلٌّ يضغط كافياً، ويقدمها نموذجاً مصغّراً فيسهل على الذهن التهامها والاحتفاظ بها، ويلعب دوراً بارزاً في الدعاية لترسيخ المفاهيم والعقائد؛ لذلك وجدنا أهل البيت عليهم السلام يستهدفون شعراء الشيعة، ويجتمعون بهم، ويوعزون لهم بتسجيل واقعة الطف، وباستعراض ما جرى لأهل البيت عليهم السلام لأن الشعر وسيلة من الوسائل الفعالة، ولذلك وقف الإسلام من الشعراء الذين استخدموا هذه الطاقة الكبيرة ضد الإسلام موقفاً سلبياً، وبالعكس وقف موقفاً إيجابياً من الشعراء الذين سخّروا فكرهم لخدمة أهدافه.

المبحث الثاني ـ أبعاد الشعر:

لقد استُخدم الشعر باديء الأمر كوسيلة من وسائل الترفيه عن النفس، وهو أشبه بالترانيم التي يعبّر بها الإنسان أحياناً عن أحاسيسه عندما يكون مرتاح البال، ثم تطور ليأخذ أبعاداً مختلفة:

الأول: أنه وسيلة للارتزاق

ومن هذه الأبعاد أنه أصبح وسيلة للارتزاق، فنحن نعرف أن عدداً من الشعراء على امتداد التاريخ اتخذوا الشعر وسيلة للارتزاق، وأخذوا في سبيل ذلك يقلبون الحقّ باطلاً، والباطل حقاً، ويعتدون على الكرامات والأعراض. يقف أحد هؤلاء لسيف الدولة فيقول:

لو كان علمُك بالإله مقسّماً ... بالخلق ما بَعث الإلهُ رسولا

أو كان لفظُك فيهمُ ما أنزل الـ ... ـتوراة والفرقان والإنجيلا

هذا الشاعر لا نستطيع أن نقيسه بابن هاني الأندلسي الذي مدح الخليفة الفاطمي بقوله:

وعلي أمير المؤمنين غمامةٌ ... رُفعت تظلّل تاجَه تظليلا

نهضت بثقل الدر ضوعف نسبه ... وجرت عليه عسجداً مطلولا

أمُديرها من حيث دار لشدّ ما ... زاحمت عند ركابه جبريلا

زحمت مناكبه الجبال فأعلنت ... شرُفاتُها التكبير والتهليلا

فهذا اللون من الحرارة والأداء العاطفي المتقن لا أستطيع أن أتّهمه بالارتزاق لأنه كان يعتقد أن هؤلاء أئمّة، فهذا الرجل يقول الصدق من منطلق

مفاهيمه وعقيدته هو حتى لو بالغ، لكنه صادق في قوله وفق ما يعتقد. وبمعنى آخر إن الباعث لهذا القول هو المبدأ وليس الارتزاق، ولكن عندما أسمع أحدهم يقف للرشيد فيقول:

خليفة الله إن الجودَ أوديةٌ أحلّك الله منها حيث تجتمع

إن أخلَف الغيثُ لم تخلف فحائله أو ضاق شيءٌ ذكرناه فيتسع

من لم يكن ببني العباس معتصماً فليس بالصلوات الخمس ينتفع[1]

هذا النمط تبدو عليه نبرة الارتزاق واضحة، ويبدو عليه الفناء في الحطام الزائل المؤقت، فهذا لون من الفكر المرتزق الرخيص الذي يمشي في ركاب الجبابرة.

وإلى هذا يشير السيد الحميري من شعراء الشيعة، حيث رأى من يمدح طلباً للحطام بقوله:

أيها المادح العباد ليُعطى إن لله ما بأيدي العبادِ

اسألِ الله ما طلبت إليهم وارج نفع المنزِّل العوّادِ

لا تقل في الجواد ما ليس فيه وتسمِّي البخيل باسم الجوادِ[2]

فهذا النمط من الشعر مال إلى الارتزاق، وهو نمط من الفكر نزل بالشعر إلى حضيض الاستجداء.

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٢/ ١٥٠.

(٢) الغدير: ٢/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

الثاني: أنه وسيلة للانتقام

وهناك لون من الفكر تحرّكه غريزة الانتقام، فبعض الشعراء لديه شعر تكمن وراءه دوافع الانتقام والحقد، فهو يريد أن يشتم، بغضّ النظر عن كون هذا الذي يريد أن يشتمه يستحق الشتم أو لا، وإلاّ فماذا يرجو مروان بن أبي حفصة في شعره عندما يشتم الزهراء عليها السلام وأمير المؤمنين عليه السلام؟ وهل دفعه إلاّ الحقد والحسد؟ يقول مروان في شعره: إن أمير المؤمنين عليه السلام خطب بنت أبي جهل، فلما بلغ الخبر النبي صلى الله عليه وآله صعد المنبر وقال: إذا كان علي بن أبي طالب يريد الزواج من بنت أبي جهل فليطلّق ابنتي فإنه لا تجتمع ابنة نبي الله وابنة عدو الله. وكانت الزهراء عليها السلام خرجت وبيدها الحسن والحسين وهي غضبى[1]. كل هذا المعنى يصوره مروان بن أبي حفصة بقوله:

عليّ أبوكم كان أفضل منكم ... أباه[2] ذوو الشورى وكانوا ذوي فضل

وساء رسول الله إذ ساء بنته ... بخطبته بنت اللعين أبي جهل[3]

فتصدّى له شعراء الشيعة، فقال أحدهم:

عليٌ أبونا كان كالطهر جدّنا ... له ما له إلاّ النبوّة من فضل

لئن كانت الشورى أبته وقبلها ... صحيفتهم ذات المفاسد والجهل

فقد كان أهل الرحلتين وندوة ... أبو قبلها من جهلهم سيد الرسل[4]

---

(١) السنن الكبرى (النسائي): ١٤٧/ ٨٥١٨.

(٢) أي رفضوه.

(٣) الفوائد الرجالية: ١/ ٨٩.

(٤) الفوائد الرجالية: ١/ ٨٩.

فهذا النمط حاول أن ينزل برسالة الشعر من جوّها النظيف إلى جوّ الحقد.

الثالث: أنه وسيلة لقلب الحقائق

وهناك نمط ثالث من الشعر يريد أن يقلب الحق باطلاً والباطل حقاً، فمثلاً يقول أحدهم:

أنـى يـكـون ولـيـس ذاك بـكـائـنٍ لـبـنـي الـبـنـات وراثـة الأعـمـام[١]

ومن أمثال هؤلاء عبد الله بن المعتز العباسي الذي يريد أن يقلب الحق باطلاً والباطل حقاً، فيقول: إن علي بن أبي طالب عليه السلام ابن عم، وهو لا يرث مع وجود العم؛ لأن العم يحجب بناءً على نظرية التعصيب، يقول ابن المعتز:

لـكـم رحـمٌ يـا بـنـي بـنـتـه ولـكـن بـنـو الـعـم أولـى بـهـا

قـتـلـنـا أمـيـة فـي غـابـهـا فـنـحـن أحـقُّ بـأسـلابـهـا

ونـحـن ورثـنـا ثـيـاب الـنـبـي فـكـم تـجـذبـون بـأهـدابـهـا[٢]

المبحث الثالث ـ معنى التعصيب:

وهذه النظرية في التعصيب ليست صحيحة، لأنها تقوم على أساس حرمان البنت من نصيبها، وهذا خلاف رأي الإمامية، فإذا مات الميت، وخلّف ولداً، ذكراً كان أو أنثى، فهو الذي يأخذ الميراث ولو وُجد العم.

وقد تصدّى شعراء الشيعة لهذا المعنى، وممن تصدّى له الصفي الحلي حيث قال:

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١٨٩.

(٢) ديوان ابن المعتز: ٢٩١.

ألا قل لشرّ عبيد الإله وطاغي قريش وكذّابها

وباغي العباد وباغي العناد وهاجي الكرام ومغتابها

أأنت تفاخر آل النبي وتجحدها فضل أحسابها

بكم باهلَ المصطفى أم بهم فردّ العداة بأوصابها

أعنكم نُفي الرجسُ أم عنهم لطهر النفوس وألبابها

أما اللهو والشرب من دأبكم وفرط العبادة من دابها

وقلت ورثنا ثياب النبي فكم تجذبون بأهدابها

وعندك لا تورث الأنبياء فكيف حظيتم بأثوابها

فناقضت نفسك بالحالتين ولم تعرف الشهد من صابها[1]

أجدُّك يرضى بما قلته وما كان يوماً بمرتابها

وكان بصفّين من حزبهم لحرب الطغاة وأحزابها

وأقبل يدعو إلى حيدر بإرهابها وبإرغابها

وقد شمّر الموت عن ساقه وكشّرت الحرب عن نابها

فهلاّ تقمّصها جدّكم إذا كان إذّاك أولى بها

وإذ جُعل الأمر شورى لهم فهل كان من بعض أربابها

أخامسهم كان أم سادساً وقد جلّيت بين خطّابها

(١) الصاب: شجر مرّ له عصارة بيضاء كاللبن بالغة المرارة، إذا أصابت العين أتلفها. المعجم الوجيز: ٥٢٧ ـ صاب.

وقلت بأنكم القاتلون — أسود أميّة في غابها
كذبت وأسرفت في ما ادّعيت — ولم تنه نفسك عن عابها
فكم حاولتها سُراةٌ لكم — فردّت على نكص أعقابها
ولولا سيوف أبي مسلمٍ — لعزّت على جهد طلاّبها
وذلك عبدٌ لهم لا لكم — رأى فيكمُ قرب أحسابها
وكنتم أسارى ببطن الحبوس — وقد شفّكم لثم أعتابها
فأخرجكم وحباكم بها — وقمّصكم فضل جلبابها
فجازيتموه بشرّ الجزاء — لطغوى النفوس وإعجابها
فدع ذكر قوم رضُوا بالكفاف — وجاؤوا الخلافة من بابها
هُمُ العابدون هُمُ الحامدون — هُمُ الساجدون بمحرابها
عليك بلهوك بالغانيات — وخلّ المعالي لأربابها
ووصف العذار ونعت العقار — وذات الخمار بألقابها
فذلك دأبك لا دأبهم — وجَرْيُ الجيادِ بأحسابها[1]

هذا نوع من الشعر الذي يتصدّى لمن يقلب الحق باطلاً والباطل حقاً. ومن أمثلته أيضاً ما حدث مع الإمام السجادعليه السلام وهشام الذي تجاهله، فتصدى له الفرزدق بقوله:

هذا الذي تعرفُ البطحاء وطأته — والبيت يعرفه والحلّ والحرم

---

(١) ديوان صفي الدين الحلي: ٩٢.

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجدّه أنبياء الله قد خُتموا[1]

ولقد لعبت قصيدة واحدة في أوروبا دوراً كبيراً في تحرير العبيد، وهي من شاعر وقف في وجه الرقّ.

فالشعر إذاً يلعب دوراً مهماً جداً في الميادين الإيجابية.

فالأئمّة ﷺ يريدون من الشعر أن يعرّف بأهل البيت، فأنت تجد في شعر الكميت ودعبل بن علي الخزاعي ومَن سبقهما من أمثال الوليد بن ظالم الطائي وعدي بن حاتم الطائي تعريفاً بأهل البيت ﷺ أنفسهم. وقد تستغرب من أن المسلمين يجهلون أهل البيت ﷺ. وهذا ليس غريباً، فنحن في هذا العصر نرى المسلمين يجهلون أهل البيت ﷺ. وقد قرأت كتاباً صدر العام الماضي للدكتور أحمد عطية الله اسمه «القاموس الإسلامي»، فرأيت أنه كتب (٤٢٦) سطراً في الإمام الشافعي، ولكنه عندما يمرّ بالإمام جعفر الصادق عليه السلام يقول عنه: «هو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، السادس من أئمّة الشيعة، ويقال إنه سمّي الصادق لصدقه».

ويمرّ الدكتور أحمد أمين في كتابه «ضحى الإسلام» بربيعة الرأي الذي لا يمكن أن نعتبره من الفقهاء، غاية ما في الأمر أنه من أساتذة الإمام مالك، وهو من الموالي طبعاً، فيكتب فيه صفحات كثيرة، ولكنه عندما يمرّ بالإمام الصادق عليه السلام يقول: «يقال إنه كان يجلس بالمسجد في المدينة ويتدارس العلم». فكيف يمكن لأبنائنا أن يعرفوا أهل البيت ﷺ، وهم وسط هذا اللون من التعمية؟. إذاً من الأولى للشعر أن يُندب لهذه المهمة، وهو الأداة الفعالة في هذا الميدان، وليس المقصود من الشعر أنه يرفع من قدر أهل البيت ﷺ،

---

(١) ديوان الفرزدق: ١٧٨.

وإنما يجلو الضباب لتتضح الحقيقة، يقول أحد الشعراء في أمير المؤمنين عليه السلام:

وما مِدحتي توليك فخراً وإنما — أردّ بإطرائي عليك الطَّواريا

إذا الملأ الأعلى تحدّر بالثنا — عليك فما شأني وشأن ثنائيا[1]

يقول عصام بن المصطلق: دخلت إلى المدينة، فمرّ بي الحسن عليه السلام فأعجبني رواؤه وسمتُه وهديه وما عليه من الوقار، وأثار في نفسي وصدري حسداً كان كامناً لأبيه، فدنوت منه وقلت: أنت ابن ابي تراب؟ قال: نعم، فأبلغت في شتم علي بن أبي طالب عليه السلام، فنظر إليّ نظرة عاطف، ثم قال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[2]، ثم قال لي: «يا هذا، استغفر الله مما أنت فيه، فلو استعطفتنا لعطفنا عليك، ولو استرشدتنا لأرشدناك، ولو طلبت منا لأعطيناك، فانبسط إلينا بحوائجك، فسوف تجدنا على أفضل ما تروم إن شاء الله».

ثم قال هذا الراوي: فلمح فيّ الندم على ما بدر منّي فقرأ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ﴾[3] ثم أخذ بيدي ومال بي إلى الدار، ثم سألني: أنت من أهل الشام؟ قلت: نعم، قال: «شنشنة أعرفها من أخزم». ووالله لقد خرجت من المدينة وليس على وجه الأرض أحد أحبّ إليّ منه ومن أبيه[4].

---

(١) نهج الإيمان: ٦٦٩.
(٢) سورة الأعراف، الآيات: ١٩٩ ـ ٢٠١.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٩٢.
(٤) الأنساب: ٣/ ٤٧.

انظر إلى هذا النموذج من التجهيل والتضليل الذي مارسه الأمويّون بحق أهل البيت عليهم السلام، يقول أحدهم: مررت بمسجد حمص، فسمعت أحداً يسأل رفيقه: من هو علي بن أبي طالب؟ قال: لا أعرفه، ولكن يبدو أنه لص من لصوص الفتن[١].

المبحث الرابع ـ أهداف زجّ الأئمّة عليهم السلام الشعراء في ميدان الشعر:

لقد كانت هناك تربية ملتزمة في الشام لطمس حقوق أهل البيت عليهم السلام وتشويه صورتهم، فكانت لدى الأئمّة عليهم السلام أهداف سعوا إلى تحقيقها من خلال حثّ الشعراء وندبهم إلى ولوج هذا الميدان، ومن هذه الأهداف:

الهدف الأول ـ التعريف بأهل البيت عليهم السلام:

فعلى الشعراء أن يعرّفوا الناس أن نهضة أهل البيت عليهم السلام إنما كانت دفعاً للباطل، ووقوفاً بوجهه، ودعماً للحق.

الهدف الثاني ـ رفع المثل الأعلى:

فإذا نشر الشاعر الفكرة الخيّرة ركز لواءً يخفق، فالفكرة الخيّرة لواء على طريق النهضات. فأهل البيت عليهم السلام يطلبون من الشعراء أن يرفعوا أهداف الإمام الحسين عليه السلام ليتّخذوا منها لواء؛ لكي ينظر إليه الناس ويسيروا على هديه، يقول أحمد شوقي:

نشروا دماءك في الصعيد لواءا ... يستنهض الوادي صباح مساءا

جرحٌ يضجّ على المُدى وضحيّة ... تستنهض الحريّة الحمراءا

فإذا أخذ الشاعر أسرار النهضة، ورفعها لواءً، فإن الأحرار سوف يهتدون

---

(١) مروج الذهب: ٣/ ٤٢.

به. وكان لشعراء الطفّ موقف مشرّف في هذا الميدان، فقد جلّوا الواقعة تجلية تتناسب مع أهميتها، يقول أحد المعاصرين:

يمّمت يومك أستجلي روائعه فأشبعت ناظري موارةً صورُ

ما رمتُ رائعةً إلا وجدت به كأنّ كلّ سموٍّ فيه منحصرُ

هو المدى ميّز الشوط البعيد به أعنّة الرّكب من جدّوا ومن قصروا

فهذا الشاعر ينشر موقفاً من مواقف الإمام الحسين عليه السلام يتخذ منه لواءً تتملاّه الجماهير، وتهتزّ لعظمته، ولم يكن شعراء أهل البيت عليهم السلام يمدحونهم لأجل الأموال أو الجاه، وإلاّ فكان لهم أن يمدحوا الأحياء، وأهل الحُكم والسلطان، لا أن يمدحوا المقتولين، ومن وقفت الدنيا ضدّهم، فهم ينشرون الحق لواءً، ولا ينشدون سوى الحق[1].

الهدف الثالث ـ عرض جانب الظلامة وأسرار النهضة:

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى ما يكتبه بعض الكتّاب في الماضي والحاضر من أن الإمام الحسين عليه السلام هل كان عنده تخطيط في نهضته أم لا؟ وهو ألم يكن يدري أن يزيد يمتلك الدنيا، فالجيوش تحت إمرته، والطاقات من الأموال والجاه والقوة كلّها بيده؟ ألم يكن الإمام الحسين عليه السلام يعرف أنّ سبعين مقاتلاً لا يستطيعون مواجهة هذه القوة؟ ولماذا لم يُصالح ويستسلم ويقرّ كما فعل غيره؟

وهؤلاء لا يفهمون أسرار نهضة الإمام الحسين عليه السلام، فهو لم يكن يخرج ليفتح بلداً، ففي رسالته عليه السلام لبني هاشم بُعيد نزوله في كربلاء يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: فمن لحق بنا منكم استشهد، ومن تخلّف لم يبلغ

---

(١) دلائل الإمامة: ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

الفتح»[١]. فما هو الفتح الذي يعنيه هنا؟ الفتح هو ما نراه اليوم من آثار لهذه الثورة، فالإمام الحسين عليه السلام حوّل الموت إلى فتوح.

وتسامت بالموت حتى أحالتـ ... ـه فتوحاً سخيّة الأرداحِ

لم تفجّر لظاك يهدر بالحـ ... ـقّ لتروي قرائح المُدّاحِ

بل لنحيا سعيره مارداً يبـ ... ـعث سلما من أضاحِ

فهو عليه السلام لم يستهدف أن تستدرّ عبرة، فهو جذوة، ولم يكن يريد أن يحتلّ بلداً فيفتحه، وإنما أراد أن يريق الدم الطاهر لينتصر على المدى البعيد، ويأخذ طريقه في الدنيا، وهو عليه السلام امتداد للنبوّة، والنبوّة جذوة في وجه الظالمين، ولكن هذه الجذوة تعتّم عليها وسائل الإعلام فتنسخ أهدافها ودوافعها، وتصوّرها بصور أخرى. والشعر له القابلية على أن ينهض بمهمة كبرى في هذا المجال، وأن يلعب دوراً كبيراً:

الشعر أجّج ألف نارٍ وانبرى ... يلوي أنوف الظالمين ويجدع

لو شاء ردّ الليل في أسماره ... واحات نور تستشف فتلمع

أو شاء قاد من الشعوب كتائباً ... يعنو لها من كلّ أفقٍ مطلع.

فالشعر إذاً يكشف أسرار النهضة، ويدافع عنها في وجه من يقول: إن الإمام الحسين عليه السلام «قتل بسيف جدّه»[٢]، أو لم يكن عنده تخطيط، أو ما استطاع أن يصل إلى النصر.

إن الحياة بمعناها الكريم وسموّها أكبر من أن تلج أمثال هذه الأدمغة

---

(١) بصائر الدرجات: ٥٠٢.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥/ ٣١٣.

المنحطّة التي تتصوّر أن النصر هو أن يعيش يزيد بعد قتل الإمام الحسين عليه السلام بضعة أيّام، وتحت يديه جارية تسقيه الخمرة، أو إلى جانبه مخنث يُحيل ليله إلى غناء[1].

ولكن، قد يسأل سائل فيقول: هل للعاطفة دور في هذا المكان أو لا؟ وهل أراد الأئمّة عليهم السلام من الشعراء أن يحرّكوا العواطف ويذكّروا بالفاجعة؟ لا شك أن واقعة الطف أحدثت تأزّماً كبيراً في تاريخ الشيعة منذ وقوعها وحتّى الآن، فإذا مرّت هذه الأيّام العشرة أحدثت تأزّماً في كيان الفرد الذي ينتمي إلى هذه الطائفة، وهذا يسمّى «الميراث التاريخي» أو «التاريخ الاجتماعي». وقد اهتمّت الدراسات الحديثة بهذا الجانب أيّما اهتمام، وحسبت له ألف حساب. ولذلك تجد الأدب الشيعيّ حارّاً، لأنّه تربّى على النكبات والجمر:

والدهر لا ينشي الرجال صوارما ... إلاّ إذا احترقوا على جمراته

يقول أحد الشعراء:

أرقّ من دمعة شيعية ... تبكي علي بن أبي طالب

ذلك لأن دمعتها رقيقة صادقة حارّة، لأنها تستشعر بحرارة الألم الذي وقع على أهل البيت عليهم السلام. وعلى مرّ السنين والأيّام يتحوّل إلى خزين متراكم لا بدّ له من لون من ألوان التفريغ عن النفس.

كما أن الكثير من الناس يقولون: إن الإمام الحسين عليه السلام عملاق مصنوع من طاقة هائلة، مبنيّ من الدم، فلماذا تصنعونه من دموع؟ كلا إنه يبقى مصنوعاً من دم، ويبقى عملاقاً، ولكن الدموع شيء قسري لا طاقة لنا على ردّه، ولذلك يقول جعفر بن عفّان: دخلت على الإمام الصادق عليه السلام أول المحرّم، فرفع رأسه

---

(١) الأغاني: ٨/ ٣٢٤.

إليّ وقال: «بلغني أنك تقول الشعر وتجيده». قلت: نعم، قال: «أنشدني في جدي الحسين ﷺ». فقلت: سيدي إلي إهابك. قال: «لا أنشدني». فقلت:

امـرر عـلـى جـدث الـحـسـيـن وقـل لأعـظـمـه الـزكـيـه

يـا أعـظـمـاً رضّـتـك قـوم بـالـجـيـاد الأصـبـحـيـه

وإذا مـررت بـقـبـره فـأطـل بـه وقـف الـمـطـيّـه

وابـكِ الـمـطـهـر لـلـمـطـهـر والـمـطـهّـرة الـنـقـيـه

فرأيت الإمام أخذ ينشج ويهتزّ، ثم قال لي: «أنشدني»، فقلت:

يـا مـريـم قـومـي انـدبـي مـولاك وعـلـى الـحـسـيـن فـاسـعـدي ببـكـاكِ

يقول: فقال الإمام ﷺ: «هكذا أنشدني كما تنشدون بالرّقة». وتعالى النحيب من وراء الستار[1].

ودخل الكميت على الإمام الصادق ﷺ في مكة المكرمة أيّام التشريق فقال: سيّدي، أريد أن أُنشدك، قال الإمام ﷺ: «إنها ليالٍ عظيمة». فقال: إنها فيكم أهل البيت. قال «هات». فوقف الكميت ينشد ميميّته العصماء:

مـن لـقـلـبٍ مـتـيّـمٍ مـسـتـهـام غـيـر مـا صـبـوةٍ ولا أحـلامِ

أخـلـص الله لـي هـواي فـمَـا أغـرق نـزعـاً ولا تـطـيـش سـهـامـي

يقول الكميت: فأنشدت إلى أن وصلت إلى قولي:

وقـتـيـل بـالـطـف غـودر مـنـهـم بـيـن غـوغـاء أمّـةٍ وطـغـامِ

(١) كامل الزيارات: ٢١١/ ٣٠١.

يقول الكميت: فسمعت النشيج من وراء الستر، وخرجت من وراء الستار جارية تحمل على يديها طفلاً رضيعاً وضعته بين يدي الإمام عليه السلام، ويبدو أنها أرادت أن تذكّر بمشهد من مشاهد الطف المتحرّكة فأخرجت هذا الرضيع وما كاد الإمام يقع بصره عليه حتى انفجر بالبكاء، وأخذت دموعه تَلِفُ على كريمته[1].

أقول: سيدي كيف بك لو رأيت جدّك يوم رجع يحمل رضيعه وهو مذبوح من الوريد إلى الوريد:

ولــو تــراه حــامــلاً طــفــلــه   رأيــت بــدراً يــحــمــل الــفــرقــدا

مــخــضّــبــاً مــن فــيــض أوداجــه   ألــبــســه ســهــم الــردى مــجــســدا[2]

ويقول دعبل بن علي الخزاعي: كنت أنشد عند الإمام الرضا عليه السلام:

تــجــاوبــنَ بــالإرنــان والــزفــرات   نــوائــحُ أجــمُ الــلــفــظ والــنــطــقــاتِ

حتى وصلت إلى قولي:

أفــاطــم لــو خــلــت الــحــســيــن مــجــدلاً   وقــد مــات ظــمــآنــاً بــشــطّ فــراتِ

إذاً لــلــطــمــت الــخــدّ فــاطــم عــنــده   وأجــريــت دمــع الــعــيــن بــالــوجــنــاتِ

يــا بــه مــا بــعــيــنــي دمــع وأســجــيــك   بــنــفــســي يــبــو الــســجّــاد أداويــك

---

(١) الغدير: ٢/ ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٢) الثوب الملامس للجسد. المعجم الوسيط: ١٢٢ ـ جسد.

الليلة الثانية

الهجرة والشهادة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

الآية الكريمة تتصل بمناسبتين في هذه الليلة:

الأولى: الهجرة، أي هجرة أبي الأحرار وسيد الشهداء عليه السلام بثقله وعياله من مكة المكرمة إلى كربلاء المقدسة.

الثانية: الشهادة، وهي شهادة أبي الأحرار الإمام الثالث السبط أبي عبد الله الحسين عليه السلام في كربلاء.

والواقع أن هذين الأمرين قد تحققا معاً في مستهل هذا الشهر كما سنرى.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٥٨.

المبحث الأول ـ ما المراد بـ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في الآية؟ :

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ما هو ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي قيدت الهجرة به؟ وبما يحدده المفسرون؟ هناك عدة آراء ومعانٍ يذكرها المفسرون: «السبيل إلى الله هو الجهاد في سبيله».

المعنى الأول لـ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هو عنوان عام من ضمن أفراده الهجرة للجهاد ومكافحة البغي والضلال، فمثلاً لو أن منطقة من مناطق الإسلام تتعرض للبغي والضلال، فإنه يجب على المرء أن يخرج لمكافحة هذا البغي والضلال. وهو إما أن يمنعه بقلم أو لسان أو مثال، حيث أمر القرآن بقتال البغاة: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾[1] فمكافحة البغي من مظاهر الدفاع عن المجتمع، والباغي إنما يبغي على المجتمع، ويجب على جيوش المسلمين أن تخرج لقتاله، بل وقتال البغاة عامة. وبعض العلماء يقولون: لم نكن نعرف أحكام قتال أهل القبلة إلا من خلال عمل علي بن أبي طالب عليه السلام، حيث قاتل البغاة. ولما سألوه: ماذا تقول عنهم؟ هل هم كفرة؟ قال: هم: «إخواننا قد بغوا علينا، فقاتلناهم على بغيهم»[2]. أي أنهم يصلون إلى القبلة ويتشهدون بالشهادتين.

ونلاحظ أدب الإسلام حيث يقول عنهم: «إخواننا». على الرغم من محاربتهم له، فالأئمة ميزان الحكمة والعدل والنبل.

وكذلك الهجرة تكون لدفع الضلال، فالضال يستهدف المجتمع بأكمله، فلا بدَّ أن يخرج من يكشف الضلال.

مكافحة البغي بالسيف وبالفكر:

والواقع أنه يوجد نوعان من القتال: قتال بالسيف، وقتال بالفكر، وهذا

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٩.

(٢) تفسير العياشي: ٢/ ٢٠/ ٥٣.

موجود حتى عند المستعمرين، حيث إنهم لا يهتمون بالأمور المادية من إيجاد الأرض ووضع الأسلحة والمكان الذي ينزلون فيه بقدر ما يهتمون بالتفكير بوضع قاعدة في رؤوس الناس، حيث يعتنقون فكرتهم ولا ينكرونها عليهم:

ما كان أهون شأنه مستعمراً ... لو لم يقم وسط العقول قواعد

سبب الاختلاف بين العلماء وموقف الأمة إزاءه:

فالحركات الإلحادية والاستعمارية تستهدف دائماً الدخول إلى رؤوس من تريد أن تستعمره أولاً، ثم تدخل بعد ذلك إلى المجتمعات، فمكافحة البغي إما من الخارج أو أن ينبثق من الداخل، فأي أمة تتوجه لقبلة واحدة وتعبد رباً واحداً، وتحمل كتاباً واحداً لا بدَّ أن تكون متماسكة، وإن حصل خلاف فغايته أنه خلاف في الفروع، وهو طبيعي، حيث إنه لا توجد بقعة من بقاع الأرض تخلو من اختلاف بين مفكريها، لأن الاختلاف قد ينشأ من فهم النص أو من تطبيقه أو من القدرة على استيعاب مضمون النص.

والناس إزاء هذا الاختلاف قسمان:

قسم يقول: إنه ناتج من طريقة الفهم، وعلينا أن نترك هذا للعلماء.

وقسم يستغل ذلك فيشوش الأمور، ويفتح قضايا في مجتمعاتنا لا تغني ولا تسمن من جوع، مما يبث التفرقة بين الناس.

وهي الطريقة عينها التي استخدمها أعداء الخوارج، حيث كان المهلب بن أبي صفرة إذا أراد أن يقاتل الخوارج فإنه يلقي بذور مشكلة ما بينهم أولاً، فيدعهم يضرب بعضهم بعضاً، فمثلاً يستغل نصاً من النصوص، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[1] أي أن الكفار وأصنامهم

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

وقود النار، فالعالم يفهم المراد منه، أما الجاهل فيأخذه على ظاهره، ولذا فإن المهلب كان يستغل هذا فيبعث جماعة إلى الخوارج ويقول لهم: اسجدوا لقائدهم وقولوا: إنا نعبدك من دون الله. فيقوم الخوارج فيقولون: إنهم عبدوك، والله يقول: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي جميعكم كفار فيقتلونهم[١].

وهذا اللون من استغلال النص أو استغلال قضايا تمزّق الأمة يأتي من أحد أمرين: إما من شخص مستأجر من الخارج، أو من شخص ليس له القدرة على فهم النص، وغالباً ما تكون الأمة في غنى عن مثل هذه المشاكل التي يفتعلونها ويثيرونها كالخلاف حول طول سفينة نوح عليه السلام[٢]، واسم كلب أهل الكهف[٣]، فهل هذه هي المسائل التي تهمنا؟

كما أن هناك قضايا تثار بأسلوب استفزازي، فمثلاً أنا أعلم أن الخلافة حق طبيعي للإمام علي عليه السلام، وأعرف أنه توجد نصوص عليه، فحينما أريد أن أعبر عن ذلك فالواجب علي أن أعبّر عنه بغاية من الأدب والاحترام، فإن الخصم على معتقدات أجداده. ومن الصعب تغيير قناعاته، فلا أستخدم أسلوب الشتم والحمل عليهم، كيلا يشتموني. والعلاّمة الحلي كان عندما يمر به ابن تيمية يعبر عنه بالشيخ الأستاذ، في حين أن ابن تيمية يعبّر عنه بابن المنجّس[٤]. لأن العلامة هو الحسن بن المطهّر. فهل هذا أدب فقيه وأدب مسلم؟ وهل أن الاختلاف بالرأي يدفعنا لذلك؟ إن لغة العلم يجب أن تكون محفوظة.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٤/ ١٩٦ ـ ١٩٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ٣٢ ـ ٣٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٣٦٠ ـ ٣٨٤.
(٤) الفوائد الرجالية: ٢/ ٢٦٣.

فالضلال له طريقة وطريقته الخاصة في الهدم، فينبغي ألا نثير قضايا في ظروف غير طبيعية. ولنقرّب المعنى أكثر. فمثلاً هذا البلد (الكويت) واحة من واحات الحرية، المسجد له حريته، والحسينية كذلك، فينبغي أن تكون المواضيع المطروحة في هذا الشهر مواضيع تستهدف وحدة المسلمين ونفي الشوائب وتصحيح الأخطاء مع التمسك بالعقيدة وفتح حوار علمي. وهذا اليوم لفت نظري كلمة للأستاذ محمد مساعد الصالح في جريدة القبس بعنوان (الفتنة الطائفية) حيث إنه يذكر كتاباً لمصطفى السباعي يذكر فيه أن الكذب كله مصدره الشيعة، والحال أنا أناس عندنا أن الكذب في شهر رمضان إذا كان على الله ورسوله فإنه مفطر ومبطل للصوم[١]، ونعتبر الكذب من أكبر الجرائم، فروايات أئمتنا تذكر أن المؤمن من يطبع على كل خصلة إلا الكذب والخيانة، فالمؤمن لا يكذب[٢].

وأيضاً نجد جماعة يثيرون قضايا أخرى في هذا الشهر يا عباد الله اتقوا الله ولا تشقوا وحدة المسلمين، فيجب احترام بعضنا بعضاً وألا نفسح المجال لهؤلاء المرتزقة، ويجب علينا معالجة الإلحاد وفساد الخلق والانحلال والشبهات الداخلة على الإسلام. وأن نعالج القضايا بروح علمية وليس بروح ضلالية غوغائية، وعلينا أن نتمسك بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وأخلاق آل الرسول عليهم السلام، وليقل غيرنا ما يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾[٣].

وإذا أردت أن أعبر عن عقيدتي فليكن ضمن الخطوط الإسلامية العامة،

---

(١) الانتصار: ١٨٤/ المسألة: ٨٢.

(٢) الكافي: ٢/ ٤٤٢/ ٦.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٠٣.

فالإمام زين العابدينعليه السلام يقول: «أحبونا حب الإسلام، فما زال حبكم بنا حتى صار شيناً علينا»[١].

فليكن تعبيرنا منسجماً مع القواعد الحقة والروح الإسلامية.

السبيل إلى الله هو الهجرة والفرار بالدين:

المعنى الثاني لـ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هو الفرار بالدين، فمثلاً مسلم في بلد إسلامي، ويضايق على دينه وعقيدته، فإنه يتعين عليه أن يفر بدينه، فالوطن الروحي هو الدين فعليه إذاً أن يخرج لمكان يأمن فيه على نفسه حينما يريد أن يمارس عباداته وطقوسه الدينية، فالظلمة يخرجون الناس عن عقيدتهم ويصبونهم في القوالب التي يريدونها هم، إن الدين له ضوابط، وهذه الضوابط لا تروقهم، حيث إنهم يريدون أناساً إمّعات[٢] وتبعية لهم، ولذلك يعتبر التضييق من المبررات التي تجيز للمسلم الفرار بدينه.

وقد ضرب لنا المسلمون الأوائل أمثلة سامية، حيث هاجروا إلى الحبشة وهاجروا إلى المدينة بعد أن رأى النبيﷺ أن مكة أرض صلبة لا تصلح لأن يبذر فيها بذرة الإسلام فاضطر للانتقال إلى المدينة المنورة، وفعلاً استقبله الأنصار بحفاوة، وكانت أفضل المواقف.

سبيل الله هو الهجرة لطلب العلم:

المعنى الثالث لـ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هو الهجرة لطلب العلم، فأنا إنما أفعل ذلك كي أرجع إلى بلدي بحصيلة علمية أخدم فيها بلدي، حيث إنه لا توجد في بلدي المعاهد والكليات العلمية والثقافية فأضطر للهجرة وأتحمل بذلك شظف

---

(١) روضة الواعظين: ١/ ١٩٧.

(٢) الإمعة: الذى لا رأى له ويتبع كل ناعق، غريب الحديث (ابن سلام): ٤٨.

العيش. وقد مارس المسلمون ذلك فدرسوا وامتهنوا المهن، فمثلاً علي بن الحسين الفاخري كان يبيع الثياب الطاطرية ويخرج لطلب العلم، ونصر بن مزاحم صاحب (وقعة صفين)، كان عطاراً ويدرس علم التاريخ والرواية، والمقداد السيوري ـ من أجل علمائنا ـ كان يبيع السيور لأصحاب الخيل فيعيش منها ويدرس، ومنهم من مات يبيع السعد للعطارين حيث يدق السعد ويبيعه، ويتقوت منه.

وهكذا في مختلف المذاهب الإسلامية، وكانوا يتعرضون لأنواع الشدة والضيق في هجرتهم لطلب العلم مع أنهم كانوا في بلدانهم مرفّهين. وقد كان للسيد البروجردي ولد يدرس معنا، وكان يسكن بيتاً من غرفتين في شارع السلام لا يسكن فيهما إلا الفقير، مع أنه في بلده يستطيع أن يسكن في أرقى البيوت. وهو حتى الآن يترك بلده وما فيه من نعيم ورفاهية ويرجع ويعيش في أمكنة غاية في التواضع، وكل ذلك من أجل طلب العلم. فهذه هجرة في سبيل الله.

ثم انتقلت الآية: ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ﴾ والذي نستفيده هنا أن الذي يهاجر ـ سواء قتل بجهاد أو مات ـ سواء عند الله، و ﴿أَوْ﴾ للتسوية، مثل جالس الحسن أو ابن سيرين. أي أن من يموت في الهجرة في سبيل الله حاله حال من يجاهد في سبيل الله ويقتل. وهكذا فهم العلماء[١]. ويعضده حديث لرسول الله ﷺ: «من خرج مهاجراً من بيته إلى الله ورسوله أو في سبيل الله فخر عن دابته» فمات أو لدغته حية فمات أو مات حتف أنفه، فقد وقع أجره على الله، ومن قتل قعصاً[٢] فقد استوجب المآب[٣].

---

(١) مجمع البيان: ٧/ ١٦٦.

(٢) القعص: الموت المعجل، أو أن يضرب الرجل فيموت مكانه، لسان العرب: ٧/ ٧٨ قعص.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٨٩.

المبحث الثاني ـ سبب نزول الآية:

وسبب نزول الآية أن أبا سلمة وعثمان بن مظعون الصحابيين ماتا في المدينة المنورة، فكان الناس يشيعونهما ويقولون: إن هذين لو قتلا في ساحة الجهاد لكان أفضل لهما. فنزلت الآية[1]، حيث إنهما خرجا مهاجرين من أوطانهما في سبيل الله، فلا فرق بين أن يقتلا أو يموتا، وكذلك حال أمثالهما.

أمير جزيرة رودس:

كان عند أمير جزيرة رودس فضالة بن عبيد اثنان من المسلمين أحدهما جاهد وقتل، والآخر مات وهو من المهاجرين، فرأى أن التشييع للذي قتل في ساحة القتال أكثر من تشييع الثاني. فقال لهم: أراكم تميلون إلى هذا، فقالوا: إنه قد استشهد حيث إنه قذف بنفسه في لهوات الحرب لأجل الشهادة. قال فضالة: والله ما أبالي من أي حفرة من حفرتيهما بعثت. وقرأ الآية، وقال: إن الذي يخرج مهاجراً في سبيل الله سواء قتل أو مات حتف أنفه كلاهما سواء.

المبحث الثالث ـ معنى الرزق الحسَن:

ثم قالت الآية: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ﴾، ما هو الرزق الحسن؟.

أولاً: هو رزق بدون تعب، لأن الرزق في الدنيا لا يأتي بدون تعب. فإذا حصلت على الأموال في الدنيا فإنها إنما تأخذ من عمرك ومن صحتك. وأحياناً من موقعك الاجتماعي، حيث ستضطر إلى مجاملة البعض. فهذا الرزق فيه تعب، أما هناك فالرزق عطاء بدون عناء.

وثانياً: أن الرزق هناك دائم، أما هنا فالرزق منقطع، فالذي يعمل عملاً ما ربما يسائل نفسه: هل أنا أضمن استمرار هذا العمل؟ أما هناك فإن الله ضامن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٨٨.

دوام الرزق: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾[1]، لأن الرزق هناك لا يخشى انقطاعه، حيث إن المتكفل به رزاق دائم العطاء.

وثالثاً: أنه رزق خالص لا شبهة فيه، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ليلة مصرعه لابنته أم كلثوم: «بنيتي، إن الدنيا في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، وفي الشبهات عتاب»[2].

فهذا الطعام قد يكون في مصدره شبهة، أو أنه جاء من غير مصدره، أو أن الإنسان قد تهاون في طريق كسبه، وقليل من الناس يأكل حلالاً خالصاً، ولذلك يقول بعض الناس: لماذا يسيء أولادنا التصرف هكذا؟ ونقول له: أنت لا تتورع عن أكل الحرام ولا تهتم لما إذا كان أكلك من مصدر فيه شبهة أم لا، فالشبهات منها عتاب.

والعرب كانت عندهم شبهة في هذا، فكانوا إذا وصلوا إلى الكعبة نزعوا كل ملابسهم وطافوا عراة، ويقولون: إن هذا الثوب ربما كان فيه خيط من حرام. وهذا شيء خاطىء، فأنت تستطيع أن تتجنب الحرام، كما أن الحرام ليس في الثياب فقط، بل هو يخالط اللحم والدم والعظم، وليعلم أن الحرام يترك أثره على كل شيء في حياتنا، ومن أبسط آثاره المفارقات التي نراها.

المبحث الرابع ـ الفرق بين رازقية الله ورازقية العباد:

ثم قالت الآية: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، وهنا أمور:

الأول ـ أن رازقية العبد في الأشياء المقدورة:

فالله عز وجل يرزق ما لا يقوى العبد على أن يرزق مثله، فرزق العبد غيره

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٥.

(٢) الأنوار العلوية: ٢٧١.

إنما يكون في الأشياء المقدورة، وإلا فهل يستطيع أن يرزقك العافية ولو للحظة؟ إنه لا يمكنه ذلك ولو بذلت له كل ما في الدنيا، فمثلاً لو تلف عصبك البصري، فهل يستطيع أحد أن يردّه؟ وهو يستطيع أن يحميك من بعض الأشياء المنظورة، لكن الله يحميك منها كلها ومن الأشياء غير المنظورة.

فالذي يعطيك عطاء لا يقوى الآخرون على أن يعطوك مثله هو الله عز وجل، فهو يرزقك ما لا يقوى العبد على مثله.

الثاني ـ أن العبد لا يمنح قدرة الانتفاع بما يعطي:

فكل رازق من العباد لا يقوى على أن يعطيك القدرة على الانتفاع بهذا الرزق، فأنا أعطيك المال لكن لا أضمن لك أن تبقى هذه الأموال عندك، ورحم الله دعبلاً الخزاعي، فإنه عندما أنشد قصيدته التائية:

مدارس آيات خلت من تلاوة

إلى آخر القصيدة، أعطاه الإمام عشرة آلاف درهم رضوية ـ أي مسكوكة باسمه بأمر من المأمون، وهي موجودة في متاحف العالم وفي سمرقند ـ وأعطاه أيضاً جبة، فاعتز دعبل بالعطية للتبرك بها، لكن في الطريق خرج عليه قطّاع الطرق فسلبوه وأخذوا ما عنده، وكان من محاسن الصدف أن الذي سلب دعبلاً كان يقرأ هذا البيت:

أرى فيئهم في غيرهم متقسّماً   وأيديهم من فيئهم صفرات

فقال له دعبل: لمن هذا البيت؟ قال لشخص يقال له دعبل قال له: أتعرفه؟ قال: لا. قال: أنا دعبل. فأرجع ما نهب إلى دعبل[1]. فالإمام عليه السلام أعطاه الهدية، ولكنه لم يضمن له أن ينتفع بها.

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٩٤ ـ ٩٦.

وكذلك فإن العبد لا يضمن لك أن تنتفع به جسدياً، فلو أعطاك طعاماً هل يمكنه أن يعطيك معدة سليمة للانتفاع بهذا الطعام؟ لكن الله إذا أعطى هذا يعطي معه القدرة على الانتفاع: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ﴾[1]. وجزء من أجزاء التمكين القدرة على الانتفاع.

الثالث ـ أن عطاء العبد لمنفعة:

فالله عز وجل إذا رزق فلا لمنفعة، أما العبد فإنه إنما يرزقك لمنفعة شخصية وإن كانت أخروية، يعني أنه إذا فعل الخير لشخص فإنه لا أقل من أنه يريد الثواب على ذلك من الله، أو يريد طول العمر أو دفع بلاء، لكن الله يعطي ولا يريد شيئاً. ونرى البعض يعترض على حكم الله وإرادته، مع أنه تعالى يعطي ولا يريد عوضاً.

الرابع ـ أن عطاء العبد من أصول الأشياء التي خلقها الله:

كل شيء يعطيه العبد فهو من عطاء الله، فإن أصول الأشياء إنما خلقها الله، فأنت إذا أعطيت شخصاً برتقالة، فهل أنت الذي أعطيته إياها؟ لا، وإنما المعطي هو الله، فهو قد وفر القابلية للأرض، وأعطى الاستعداد للنبات على النمو، ووفر جميع العوامل من ماء ومناخ حتى اكتملت الثمرة ونضجت، فتكون قد أعطيت ما صنعه الله، فإن الله صانع أصول الأشياء.

الخامس ـ أن العبد يمنّ عليك أن رزقك:

فكل مرزوق يقع تحت منّة الرازق، فالعبد يمنّ عليك أن رزقك، ويشعر الإنسان بشيء من الانكسار والذلة حينها، أما الذي يأخذ من الله فلا يشعر بالانكسار، بل يشعر بالعكس، يقول أحد أدبائنا:

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٠.

رب روحي طليقة في مناجا تك والجسم مصفد مكبولُ

بعد الفرق بين روحي وجسمي جسدي آثم وروحي بتولُ

وأنا السائل الملحّ ويجلو وحشة الذل أنك المسؤولُ

عودٌ على بدء:

فالآية الكريمة ترتبط بالمناسبتين معاً: الهجرة والشهادة، وهذان كلاهما وقعا في شهر المحرم، وقد تحققا لسيد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام.. لأبي الدماء الطاهرة، حيث هاجر ليكافح البغي عند المسلمين حين قال: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، وأن أسير فيهم بسيرة الحق»[1].

هاجر عليه السلام من المدينة، وهجر أهله، واستشهد وقتل في سبيل الله، فجمع بين الهجرة والشهادة، وترك في المدينة دوي العنفوان، حيث إنه عندما خرج من المدينة رفع رأسه وقال:

«لا ذعرت السوام في فلق الصبـ ـح مغيراً ولا دُعيت يزيدا

يوم أعطى من المهانة ضيماً والمنايا يرصدنني أن أحيدا

والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل»[2].

إذاً ترك أصداء المجد والعزة بالمدينة وسكب دماء الشهادة بكربلاء مع بدور آل محمد عليهم السلام.. وسقطوا على تراب كربلاء والنضال قد تجلى على

---

(١) بحار الأنوار: ٤٤/ ٣٢٩.

(٢) شرح الأخبار: ١٤٢/ ١٤٤.

شقين: شق عند الشهداء، والشق الثاني تجلى عند عائلة رسول الله ﷺ حينما وقفت تبارك هذه الضحايا وتحمل جزءاً من عبء هذه الرسالة، حيث خرجت أخته الحوراء زينب عليها السلام عندما انتهت المعركة وجنّ عليها الليل وأقبلت تبحث ما بين الضحايا عن جسد أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

اليوم الثاني

الجهاد والهجرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول ـ فلسفة الهجرة:

الهجرة شيء صعب في تاريخ الإسلام، وهي تتضمن أبعاداً لا بدّ من الإيمان بها، ولو على سبيل الإيجاز، لأن ذكرى الهجرة عندنا تلتقي دائماً بذكرى الأول من المحرم الحرام.

ويمكن اعتبار الهجرة هي النقلة المهمة التي انتقلت بعالم الإسلام من دنيا العقيدة إلى دنيا تأسيس الدولة في المدينة، لأننا نعرف أن النبي ﷺ أقام في مكة

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٨.

ثلاث عشرة سنة بعد البعثة. والفترة التي أقامها هناك كانت فترة تدور حول محور العقيدة، ومعنى ذلك أن التشريعات المدنية التي تنظّم المجتمع المدني لم تكن قد بدأت في تلك الفترة، وذلك أمر واضح، لأن النبيﷺ بُعث في مجتمع كافر، والمجتمع الكافر لا يحتوي على أرضية بيضاء صالحة يمكن أن يخط بها النبيﷺ دولته أو يبدأ ببنائها فيها.

ومن أجل تقريب هذا المعنى نضرب مثالاً بالورقة البيضاء فهي تختلف عن الورقة الملونة أو الورقة المكتوب عليها، فإذا كانت الورقة مكتوباً عليها فحينئذٍ لا بدَّ من محو الكتابة السابقة عنها ثم يكتب عليها.

فالرسولﷺ جاء إلى حضارة جاهلية وثنية تقوم على عبادة الأوثان، وعلى العادات والتقاليد المنبثقة من مجتمع مدني قبلي وبدوي، وفي طبيعة الحال، في المرحلة الأولى، كان على النبيﷺ أن ينظف الساحة، ويزيح عن طريقه الركام، ومن ثم يتوجه إلى تأسيس المجتمع الإسلامي. فكان دخوله، في بداية الأمر، ببدايات متواضعة ترتبط ارتباطاً مباشراً بالعقيدة، وكان من أهم الأشياء هو إزالة الأصنام وترسبات الأصنام في النفوس، لأن الإنسان بتركه عبادة الصنم لا ينتقل إلى التوحيد، إذ إنه لا تزال في نفسه قيم صنمية، ففي ذلك المجتمع الجاهلي كانت هناك قيم صنمية تعيش في نفوس الأفراد، تقوم على عبادة القوة، وعلى أمور من هذا النوع.

فالرسولﷺ كان ملزماً بإزالة هذا الركام قبل بداية تأسيس المجتمع الإسلامي. وهذا ما وقع، إذ كان بقاؤه لمدة ثلاث عشرة سنة من أجل ذلك، ومن أجل بث أركان العقيدة وتثبيت أسسها، بعد ذلك نزل عليه جبرئيلعليه السلام يأمره أن يخرج من مكة إلى المدينة.

وعملية الهجرة، وعملية الخروج من مكة هما عمليتان اثنتان، وقد تمتا في

وقت واحد، فظاهر العملية هو الانتقال الحركي من مجتمع مكة إلى مجتمع المدينة أما باطنها فكان هو الهجرة الداخلية أي الهجرة من دنيا الأصنام إلى دنيا التوحيد، ومن دنيا البداوة وقيمها إلى دنيا الحضارة الإسلامية، ومن دنيا اللاأخلاق إلى دنيا الأخلاق.

المبحث الثاني ـ أقسام الهجرة:

وبمعنى آخر: أن الهجرة هجرتان:

الأولى ـ الهجرة الحركية:

وهي التي تتم بالانتقال من مكان لآخر كهجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة.

الثانية ـ هجرة في داخل النفس:

وهذه الهجرة هي أهم من الهجرة الأولى. فالرسول ﷺ بقي في مكة ثلاث عشرة سنة، لم يسلم بها إلا أفراد معدودون، مما يدل على أن التربة بقيمها وبصلابتها ظلّت صامدة أمام الإسلام. ويمكن أن يقال: إن الإسلام لم يستطع أن ينفذ إلى هذه التربة إلا قليلاً، ولذلك اضطر الرسول ﷺ إلى أن ينقل المجتمع الإسلامي من مكة إلى المدينة.

ويتضح مما سلف أن هنالك عدة أسباب لنقل المجتمع إلى المدينة المنورة، منها أن قيم البداوة بضراوتها كانت مستفحلة في مجتمع مكة، وهي أكثر منها في مجتمع المدينة، لأن مجتمع المدينة مجتمع زراعي، لا يدور على الرعي ولا على التكتل القبلي، وله خلفية حضارية، إضافة إلى كونه يحتوي على جاليات أجنبية، مكونة من اليهود والنصارى، ومن عناصر متنوعة، فهو مجتمع ينطوي على استعداد حضاري، وفيه نوع من التفهم وهذا كان عاملاً

مهماً ومشجعاً لأن ينتقل الرسول ﷺ بنفسه إلى مجتمع المدينة، فكانت هجرته بداية تأسيس المجتمع المدني.

وليلة الهجرة، هبط عليه جبرئيل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾[١]، وأمره أن يخرج من مكة بنفسه، وأن يضع علياً عليه السلام مكانه، كي يوهم قريشاً أنه لا يزال في مكانه وكي لا يلحقه الطلب.

ومن الطبيعي أن نفهم أن السماء تحاول أن تلفت نظرنا إلى أن المعجزة لا تستعمل دائماً، بل لا بدَّ من أن تأخذ الأمور طريقها الطبيعي أحياناً، فلا ينتظر المجتمع مجموعة من المعجزات، فكان على الرسول ﷺ أن يخرج، وأن يترك إيحاء بأن مكانه ليس خالياً، فاستدعى علياً عليه السلام وقال له: «المولى عز وجل أمرني أن أهاجر من مكة إلى المدينة، وأمرني أن أضجعك مكاني». فقال: «يا رسول الله، لو اضطجعت مكانك أو تسلم؟». قال: «بلى». قال: «روحي لروحك الفدا، ونفسي لنفسك الوقا»[٢].

وقد رسم لنا الكعبي هذه الصورة في داليته العصماء، حين يصفه عليه السلام ويصف مفاداته دون أحمد ﷺ:

ومناقب لك دون أحمد جاوزت ... بمقامك التحديدَ والتعديدا

فعلى الفراش تبيت ليلك والعدى ... تُهدي إليك بوارقاً ورعودا

فرقدت مثلوج الفؤاد كأنما ... يهدي القراع لسمعك التغريدا

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

(٢) التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام: ٤٦٦ ـ ٤٦٧.

ووقـيـت لـيـلـتـه وبـت مـعـارضـاً بـالـنـفـس لا طـفـلاً ولا رعـديـدا
رصدوا الصباح لينفقوا كنز الهدى أو مـا دروا كـنـز الـهـدى مـرصـودا

فبقي الإمام علي عليه السلام في فراش النبي، وخرج هو وأبو بكر، وباتا تلك الليلة في العراء، وفي صباح اليوم التالي استأنفا الطريق إلى المدينة، وبعد ذلك فقد جاء الكتاب إلى علي عليه السلام بأن يحمل ظعينة رسول الله ﷺ إلى المدينة.

المبحث الثالث ـ دروس من الهجرة:

هذه هي عملية الهجرة، وما يعنينا منها هو:

أولاً: أن الإنسان الحامل لفكرة ما، لا تنجح في مكان معين، فينبغي عليه أن يهاجر بها إلى مكان آخر. وبكلام آخر. إن غرس الإنسان نبتة في تربة، ولم تظهر هذه النبتة ثمارها، فينبغي عليه أن ينقلها إلى تربة أخرى صالحة.

إذاً هذه واحدة من العِبر التي نستفيدها من الهجرة النبوية، لأن المفروض أن لله جل وعلا سنناً، ومن جملة هذه السنن أن القلوب أشبه شيء بالأرض، فمثلما هنالك أرض سبخة لا تقبل النبت، فهنالك أرض خصبة في مقابلها، وكذلك القلوب، والله تعالى علمنا في سنن الكون أن الفكر إن لم يثمر في مكان، فإنه ينقل إلى مكان آخر يثمر فيه، ولذلك أمر نبيه ﷺ بالهجرة، ليثمر فكره في مكان هجرته.

ثانياً: أن الفرد المسلم إن لم يمر بمعاناة لا يستطيع أن يصمد أمام الضغوط، ولذا كان على الروّاد الأوائل الذين اتخذهم الرسول ﷺ أصحاباً أن يتعرضوا لأقوى الضغوط، وهي الهجرة، إذ ليس أصعب على الإنسان من ترك وطنه بما فيه من أهل ومال، لأن من الواضح أن الخروج من الوطن هو عديل خروج الروح من الجسد، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا

أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾[١]. وهذه الموازنة التي تعني أن الخروج من الوطن تعادل خروج الروح من الجسد إنما كانت كذلك، لأن الوطن بالنسبة للفرد مثل الجسد بالنسبة للروح، فكما يعسر على الروح فراق جسدها، فكذلك الإنسان يعسر عليه فراق بلده.

فعلى ذلك يجب أن يتعرّض الفرد المسلم إلى دورة من المعاناة، منها هجرة البلد والوطن، وفراق الأحبة والأهل، إذ إن حامل الرسالة يجب أن يكون بمستوى الرسالة، وهكذا الحال بالنسبة إلى الروّاد الأوائل الذين يفترض بهم أن يكونوا على مستوى من المسؤولية، وأهم مسؤولية هي مسؤولية ترك الوطن والهجرة، فالرسول ﷺ أخذ منه تركُ الوطن مأخذاً عظيماً وكبيراً.

يقول المؤرخون: إنه ﷺ كان يسأل القادمين من مكة عن أحوالها، وذات يوم سأل أحدهم قائلاً: «كيف خلفت مكة؟» قال: تركت السنام وقد أعذق. والبسر وقد أغدق. فدمعت عينا النبي ﷺ.

وكان ﷺ قد قال عند طلوعه من مكة: «الله يعلم أنني أحبك، ولولا أن أهلك أخرجوني عنك لما آثرت عليك بلداً»[٢].

ففراق الوطن صعب جداً، وفي ذلك يقول الشاعر:

وكنا ألفناها ولم تك مألفاً ... وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن

كما تؤلف الأرض التي لم يطب بها ... هواء ولا ماء ولكنها وطن[٣]

يقول أحدهم: رأيت جارية تقود عنزة في الصحراء. وكانت جارية ضعيفة

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٦.

(٢) مستدرك وسائل الشيعة: ٩/ ٣٣٤/ ١١٠٣٠، ٣٤٦ ـ ٣٤٧/ ١١٠٤٦.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٢٠/ ٩١.

لا تقوى على مقاومة حر الصحراء، فسألتها: أي بلاد الله أحب إليك؟ فقالت: أول أرض لامس جلدي ترابها. ورحم الله الشاعر إذ يقول:

ولــي وطــن آلــيــت ألا أبــيــعــه   وألاّ أرى غيري له الدهر مالكا[١]

فالخروج من الوطن هو مثل خروج الروح من الجسد كما أسلفنا، وهذا هو أول ضغط يحاول الوضع القرآني أن يبين أنه مما يتعرض له الفرد المسلم، فكأنه يقول لهم: حملة الرسالة، استعدوا: فإنكم على أبواب امتحان عسير، وأول شيء تتعرضون له في هذا الامتحان العسير هو هجر الوطن.

ثالثاً: جرّدت قريش المهاجرين من جميع ما يملكون، فاستقبلتهم مدرسة الرسول محمدﷺ التي زرعها في النفوس، وبأي شكل استقبلتهم؟ لقد زرعﷺ مدرسة جعلت العالم ينحني إجلالاً لها، فأي حضارة من الحضارات يحصل فيها ما حصل من الأنصار للمهاجرين؟ كان الأنصاري يستقبل شريكه في العقيدة، ويتقاسم معه داره، ويقول له: هذه الدار تتسع لي ولك، أمامك الغرف والفراش وأواني البيت، وأقاسمك أموالي، وعندي زوجتان أطلق واحدة لتتزوج منها أنت. فهل تملك الحضارات الباقية مثل هذا اللون من العطاء والمشاركة؟

هذا إذاً هو عطاء مدرسة محمدﷺ وعطاء مدرسة القرآن، التي أعطت أسمى ما في النفوس وأجمل أشكال التعاون: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٢].

وهؤلاء المهاجرون قد تعرّضوا في هجرتهم من مكة إلى فقدان الأموال والأبناء، فعوّضهم الله عن الوطن بوطن، وعن الأماكن، وعن الجاهلية بالإسلام وهو عطاء لا يحد.

---

(١) ديوان ابن الرومي: ٢/ ١٤.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

وقد ذكر القرآن الكريم بعض المهاجرين الذين كانوا يمنون على رسول الله ﷺ إسلامهم: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾[1]، فقد نقلكم الله من حضارة كانت توصل الإنسان إلى أحط منزلة، ورفعكم إلى حضارة توصل الإنسان وترفعه إلى القمة.

ولو قارنا ذلك بحال المسلمين الآن، لوجدناهم مقتسمين ومتقاتلين، يعتدي بعضهم على بعض. ونحن بهذا نكون قد تجردنا من حضارة الإسلام، ولا نحمل من ذلك سوى اسم الإسلام، أما المضمون الإسلامي فقد بدأ بالتضاؤل في داخلنا، على أن الإسلام واقع عملي وليس شعاراتٍ، لأنه مثل تيار داخلي يسري في الإنسان، وليس هو لفظ يحمله على شفاهه.

والرسول ﷺ بدأ بنقلة حركية، وفي الحركة الثانية بدأ بنقله في داخل النفس، من الكفر إلى الإيمان، ومن قيم البداوة إلى قيم الحضارة، فعرّض الفرد المسلم إلى نوع من الضغوط. ويمكن اعتبار ذلك عملية تربوية في إعداد المسلم لحمل رسالته، وانتهى في المدينة، حيث بدأ آنذاك في تأسيس المجتمع الإسلامي.

فالمجتمع المدني بدأ يتأصل بدخول الرسول ﷺ إلى المدينة وهو السبب الذي جعل النبي ﷺ ينتقل من مكة إلى المدينة، وهو السبب نفسه الذي جعل الحسين عليه السلام يترك المدينة وينتقل منها. ونحن الآن أمام مناسبتين هما: دخول النبي ﷺ إلى المدينة، وخروج الحسين عليه السلام من المدينة.

فلو سأل سائل: ما هي دوافع الإمام الحسين عليه السلام في ترك المدينة، التي هي مهد جده ﷺ ومهد الإسلام؟ كما أن المفروض أن تكون المدينة قد

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٧.

سمعت، من على المنبر، قول رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»[١]. كما أنها مهد الحسين عليه السلام فقد ترعرع فيها، وهي أول أرض مسّت خدّه الشريف، وهي أول منطقة لعب فيها مع أخيه الحسن عليه السلام، فهي ملعبه وبيته، وبيت أهل بيت النبوة عليهم السلام، الذي هو موضع إجلال وتكرمة عند المسلمين.

المبحث الرابع ـ أسباب نقل الحسين عليه السلام حركته إلى العراق:

في واقع الأمر كانت هناك عدة أسباب حدت بالحسين عليه السلام أن يخرج من المدينة وينتقل بنهضة إلى العراق، ومنها:

السبب الأول ـ خوفه عليه السلام من أن تنتهك حرمة المدينة:

فكان الإمام الحسين عليه السلام يخشى أن تُظلم مكانة المدينة في نفوس المسلمين، لأن الأمويين كانوا يخططون للقضاء على مجتمع المدينة، وأن يجعلوا من هذا المجتمع بؤرة للدماء، حتى تذهب حرمته من النفوس. وكان من جملة تلك التخطيطات أن يجلبوا بعض القبائل ويدمجوها مع مجتمع المدينة، لنشر التحلل وتذويب الشخصية الإسلامية، وتعريض الشباب إلى عدد من الانهيارات التي تبعدهم عن دنيا الإسلام.

وقد ذكر المؤرخون ذلك، كما في كتاب (الأغاني) الذي نقل لنا ظواهر من هذا التحلل، فكأنك تقرأ فيه عن مجتمع ليس بإسلامي، ناهيك عن كونه جزءاً من الحضارة العربية التي يقول شاعرها:

أعمى إذا ما جارتي برزت ... حتى يواري جارتي الخدر

(١) ورد هذا الحديث بطرق كثيرة وألفاظ مختلفة عند إخواننا أهل السنة، مسند أحمد ٣/ ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥/ ٣٩١، ٣٩٢.

ويصم عما كان بينهما ... سمعي وما بي غيره وقر[١]

ويقول آخر:

ناري ونار الجار واحدة ... وإليه قبلي تنزل القدرُ

ما ضر جاراً لي يجاورني ... ألا يكون لبابه سترُ[٢]

نعم، كان صوت الانحلال على مشارف قبر النبي ﷺ، وعلى مشارف أسماع المهاجرين والأنصار. وهناك أيضاً من اتّخذ له نادياً تراق فيه الخمرة، وهناك نادٍ تراق فيه الأعراض، وهناك نادٍ تهان فيه الكرامات، فمن أوصل المجتمع إلى هذا الانحلال؟

الجواب: أنك حين تقرأ سيرة الخليفة الأموي، وترى كيف أنه في مجلسه يقول:

اسقنا يا يزيد بالقرقاره ... قد طربنا وعمّت الجمّارة[٣]

اسقني اسقني فإن ذنوبي ... قد أحاطت وما لها كفارة

فستعرف السبب في ذلك. وأين من هذا صوت: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾[٤]؟

فإذاً كل ذلك جرّاء تخطيط ضخم، فهناك مغنّيات تُستورد، وهناك حركة الموالي الذين جاؤوا من بلاد الفتوحات، والذين نقلوا حضارتهم إلى حضارة

---

(١) أمالي السيد المرتضى: ٢/ ١٢٣.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٥/ ٤٣.
(٣) القرقارة: إناء من زجاج طويل العنق، سميت بذلك لقرقرتها. لسان العرب: ٥/ ٨٧ ـ قرقر.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٦٤.

الإسلام، فبدأت قيم حضاراتهم تطغى على قيم الإسلام، وحوّلوا مهد الإسلام ـ وهو المدينة ـ إلى بؤرة من الانحلال.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الحسين عليه السلام كان يدرك أن مدينة رسول الله ﷺ لها حرمة خاصة، ومكانة محترمة في نفوس المسلمين. بل إن بعض الفقهاء يفضلون المدينة على الكعبة، كما في (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ﷺ) للمسهودي، ويعللون ذلك بأن المدينة قد دفن فيها رسول الله ﷺ، وهو أشرف الموجودات، فتربتها لامست جسد النبي ﷺ، والبقعة التي تلامس أشرف الموجودات تكون أشرف البقاع.

فالمدينة فيها الفضل وفيها المنزلة، والمفروض أنها محترمة، بعيدة عن أن يراق فيها الدم، وبعيدة عن أن تتعرض إلى ضغوط، وإذا بها يُقتل فيها أكثر من عشرة آلاف نفس، فيهم سبعمائة من حملة القرآن، كما في واقعة الحرة، حيث سالت الدماء في المدينة، وأبيحت أعراض النساء، إلى الحد الذي لم يعد الأب يضمن أن تكون ابنته عذراء في حال تزويجها.

ومع ذلك، فإن هناك من المؤرخين من يقول: أنا لا يمكن أن أشتم يزيد، لأنه مسلم، وربما يكون قد تاب من ذنبه، فإنه لا يجوز سباب المسلم.

وأسأله: الذي قتل سبعمائة من حملة القرآن، ويترك الخيل ترمح بأرجلها قبر النبي ﷺ، ويعتدي على أعراض المسلمات، ويضرب رأس الطفل بالجدار، وينثر مخه عليه أهو مسلم؟ هل الذي يقتل سيد شباب أهل الجنة، يظلّ مسلماً؟

الواقع أن هذه مفاعلات اجتماعية، وهي أخطر من المفاعلات النووية، وإذا بقيت في تاريخ المسلمين فسوف تدمره. وهذه يجب أن تزال، ويجب أن نقول للباطل، هذا باطل، وهذا حق.

وعوداً على بدء، نقول: إن الحسين عليه السلام خرج من المدينة خوفاً على حرمتها، لأنه لو بقي فيها فإنه سوف يُقتل فيها وتنتهك حرمتها من قبل الأمويين الذين لا يردعهم رادع في ذلك. كما أن خروجه عليه السلام من الكعبة للغرض نفسه، فلو كان بين الركن والمقام لقتلوه، فقد قتل أيضاً هناك عبد الله بن الزبير، وهو أول مولود ولد في الإسلام، وهو ابن الزبير فارس الإسلام وقد قتل في داخل الكعبة، حيث كان يرتجز ويقول:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقوامنا تقطر الدما[1]

حتى قُتل، فهؤلاء كانوا لا يجدون مانعاً في قتل الإمام الحسين عليه السلام داخل الكعبة المشرفة، وفي داخل المدينة المنورة، ولو تحقق لهم ذلك لضيعوا حرمة المدينة في نفوس المسلمين.

السبب الثاني - تحجيم الحركة:

فالحسين عليه السلام لو بقي في المدينة، لحاصر التاريخ حركته وأذابها، ومما يؤسف له أن حركته ونهضته لا يعرفها إلا القليل من المسلمين لأن وسائل الإعلام الإسلامية، تصرّفت وكأن الإمام الحسين عليه السلام لا يعنيها، بل كأنه محسوب على فئة خاصة، في حين، أنه عليه السلام لكل المسلمين، بل هو عطاء للدنيا بأجمعها، وليس لنا وحدنا، لأنه ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو أيضاً سيد شباب أهل الجنة، وسيد شباب أهل الجنة هو للجميع. فهو صوت من أصوات الحق خرج ليقارع الباطل، وهذا الصوت يجب أن ينتشر.

فالمفروض أن نهضته عليه السلام يجب أن تأخذ أبعادها إلى مسامع المسلمين كافة، لا أن ينحصر بفئة ما، فالمفترض على كل مسلم أن يمر بنهضة

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٢٨٤، ١٤/ ٢٠٣، ٢٠/ ١٠٥، ١٢٢.

الحسين عليه السلام ويكتنه أسرارها فأنا حينما أسمع تاريخ الحسين عليه السلام أسمع صوت النبي صلى الله عليه وآله يعبر عنه عليه السلام: «حسين مني وأنا من حسين»[١]، كما أن هناك أسباباً: «أحب الله من أحب حسيناً، وأبغض الله من أبغض حسيناً»[٢]. فهل يمكن أن أتغاضى عن هذا الوليد؟

فالمفروض أن ينفتح التاريخ على سيرة الحسين عليه السلام في سبيل اكتناه أسرار نهضته، لكن مع الأسف هناك القليل من المسلمين الذين يعرفون أسرار هذه النهضة، بل إن هناك من يقول عنه: إنه خرج على خليفة وقته فقتل[٣]. هكذا وفي منتهى البساطة، فبما أن الإمام الحسين عليه السلام يريد أن يستكنه السر الذي وراء نهضته. فهو لم يقدّم الدماء عبثاً، إذ لو كان الأمر كذلك، لكان قد ألقى بنفسه في التهلكة. فقد خرج عليه السلام كي يخلّص الأمة من براثن الأمويين، لأن هذه البراثن تحكمت في الدماء والأموال والأعراض، وسأضرب لك مثلاً على ذلك، يقول عبد الملك بن مروان: كنت أمشي في بستان لي، فإذا وقعت رجلي على جندب ـ أي جرادة ـ وسحقتها فإن ضميري يؤنبني، فيما الآن يكتب لي الحجاج أنه قتل فلاناً أو ذبح أمة، لكن ضميري لا يتألم، ومعنى هذا: أن الدماء عنده أمر عادي.

أما من ناحية الأموال، فإن والياً من ولاة الأمويين قد صعد منبر الكوفة وخطب قائلاً: «السواد بستان لقريش» يعني: هذا العراق كله ملك لنا، والناس بعد فلاحون لدينا.

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ٣/ ١٧٧.
(٢) مسند أحمد: ٤/ ١٧٢.
(٣) كما نقل عن ابن العربي. انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير: ١/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥/ ٣١٣.

أما من ناحية الأعراض فقد وصل الأمر بانتهاكها إلى درجة مرعبة، للحد أن أحد الشعراء قد قام مخاطباً إياهم:

ولو جاؤوا برملة أو بهندِ	نبايعها أمير المؤمنينا
إذا ما مات كسرى قام كسرى	نعدّ ثلاثة متناسقينا
فوا لهفاً لو أن لنا ضيوفاً	ولكن لا نعود كما علينا
إذاً لضربتم حتى تعودوا	بمكة تلعقون بها السفينا
شربنا الغيظ حتى لو سقينا	دماء بني أمية ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم	تصيدون الأرانب غافلينا[1]

فقد انتهى أمر بني أمية إلى التفريط بالأموال والدماء، وإلى تعريض الكرامات للهدر، وهكذا فإن خروج الإمام الحسين عليه السلام إنما كان ليشعر العالم بذلك، وإلا فما هي نهضته؟ هل خرج من أجل أن يوجد له مركزاً في نفوس الناس؟ لا، فمركز الحسين عليه السلام في المشاعر، فقد وضعه رسول الله صلى الله عليه وآله فوق مشاعر الناس، ووضعه في قلب كل مسلم ومسلمة، فهو عليه السلام له عرش في القلوب.

أو هل خرج من أجل أن يطلب الأموال؟ والجواب: لا، فقد ترك له والده أمير المؤمنين عليه السلام عينين تدرّان عليه حوالي نصف مليون دينار سنوياً، وكان يتصدق بهما على الفقراء. أم من أجل كرسي الخلافة؟ وماذا فعل أبوه أمير المؤمنين عليه السلام حين انتهى إليه الكرسي؟ نقل عن ابن حنبل، حيث طال النقاش

---

(١) الأبيات لعبد الله بن همام. وقيل: حمام، ابن نبيشة بن رياح، الملقب بالعطار، لجودة شعره، تاريخ مدينة دمشق ٣٣/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

عنده عن الخلافة، أنه قال: «قد أكثرتم، إن كانت الخلافة قد زيّنت غير علي، فإن علياً قد زان الخلافة»[١].

نعم إن علياً عليه السلام لم يكن محتاجاً للخلافة، فهي لم ترفع من قيمته، بل هو الذي رفعها، فالدنيا عنده أهون من «عفطة عنز»[٢] كما عبّر (سلام الله عليه) عنها.

أم أن نهضة الحسين عليه السلام كانت من أجل دار يسكنها؟ وهل سكن أبوه عليه السلام داراً ضخمة؟ وليستنطق التاريخ هل كان له إلا قطعة من الأرض، جوار مسجد الكوفة، استعارها من أحد رجال بني نضيرة وبنى فوقها بيتاً من البواري والحصر إذا قام يضرب السقف برأسه؟

إذاً ما هي دوافع الإمام الحسين عليه السلام؟

لقد كانت دوافعه عليه السلام على الخروج هي تخليص الناس من براثن بني أمية، وقد أوضح ذلك في كل مكان مرّ به، فقد خرج من المدينة وشرح في الطريق أسباب نهضته، ومرّ بمكة وصعد المنبر وخطب خطبته الشهيرة، وفي كل مكان فعل ذلك. فهو إذاً قد استخدم الوسائل الإعلامية، المتاحة لتوضيح أسباب خروجه، وهو السبب الثاني، أي ألا تنحصر النهضة في مكان معين.

السبب الثالث ـ اختيار الله تربة كربلاء مهداً للحركة:

فالله عز وجل قد اختار للحسين عليه السلام تربة كربلاء مهداً، فهذه المنطقة كانت فيما مضى مهداً لحضارات سابقة يضيق عن ذكرها المقام، فانتقال الحسين عليه السلام إليها ليس هو نقل أجساد ثم ذبحت هذه الأجساد على ترابها، بل هو نقل أفكار

---

(١) الهداية الكبرى: ١٢.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٣.

وخواص جعلها لها التاريخ كما جعل هذه التربة مهداً من مهد البطولات، يقول أحد الشعراء.

أيا كربلا يا عبير الجراح ... وزهو الدم العلوي الأبي
ويا صرح مجد بناه الحسين ... وأبدع في وصفه المعجب
ويا عبقاً من عبير الخلود ... يشدُ الأنوف إلى الأطيب
سيبقى الحسين شعاراً على ... أصيلك والشفق المذهب

فالله عز وعلا اختار للحسين عليه السلام هذه التربة ليقدم فيها تلك المصارع الطاهرة، فوقف يوم الطف يقدم المصرع تلو المصرع، وقف يزرع الدماء، فيجني منها قمماً من العطاء، فقد انتزع الحسين عليه السلام الثناء من فم الدنيا، وكان قد قدّم الضحية تلو الضحية، وكان إذا انتهى من تقديم الضحية يشخص ببصره إلى السماء ويقول: «إن كان هذا يرضيك فخذ حتى ترضى».

قدّم أصحابه وأولاده واحداً إثر آخر، وفي نهاية المطاف التفت إلى مخيم الأنصار فوجده خالياً، والتفت إلى مخيم بني عبد المطلب فوجده خالياً، تلفّت يميناً وشمالاً فما وجد أحداً، فأوى إلى الخيمة، وصاح: «من يقدم لي جوادي؟»[1]

خرجت له أخته زينب عليها السلام وقالت له: «أخي، لمن تنادي، جرحت فؤادي، وليس في مخيمنا سوى النساء والأطفال؟»

رد وعياله من العطش يوهن ... صاح بصوت للتوديع كَومن
مثل سرب الكَطِه كامَن يحومن

(١) شجرة طوبى: ٢٢٩.

الليلة الثالثة

الحسين عليه السلام نبراس الحق

أبا المعطيات البيض لا العجب متبعٌ

كرائم ما أعطى ولا المنُ متبِعُ

غداةَ استزادتك الوغى وهي ساغب

فأسرعت تُلهي بالضحايا وتُشبِعُ

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأول ـ ثورة الحسين عليه السلام وعنصر الألم:

كل ما أريد بيانه هذه الليلة أن أنقل مشاعر هذا المجتمع، لنكون على أعتاب الحسين عليه السلام، ولنستلهم دنيا الحسين عليه السلام، وفي الوقت ذاته أريد من روح الحسين عليه السلام أن تمدّ هذا المجتمع بما حملته من عطاء وما تحفل به من ميزات أهّلتها للريادة والقيادة.

إن الحسين عليه السلام حمل على يديه آلام الإنسانية وآمالها على حد سواء، وقتل من أجل الإنسان، فيجب أن نتعرف على رسالته الإنسانية، كما يجب أن نأسى

لقتل الإنسانية بقتله. والشيء الأخير الذي يجب أن نمرّ به في هذه الأمسية هو عطاء الحسين عليه السلام للإنسانية، أي ماذا أعطت نهضة الإمام الحسين عليه السلام وثورته للإنسان؟

أما أن الحسين عليه السلام حمل آلام الإنسان وآماله، فذلك واضح من كونه عليه السلام في نهضته لم يحمل إلا مبادىء الإسلام، فلم يستهدف شيئاً غيرها يمكن أن يمر به التاريخ فيقول: إنه عليه السلام نهض من أجله، ولا شك أن الحسين عليه السلام قتل، وهناك من يقدسه وهناك من يحقد عليه، وهناك من يقيّمه، وهناك من يحلّل مواقفه، فما استطاع لسان، ولم يجروء قلم على أن يقول: إن الحسين عليه السلام قتل من أجل رغائب مؤقتة، ولم يقل أحد: إن الحسين عليه السلام استهدف مالاً أو استهدف حكماً أو منزلة، وإنما استهدف أن يعيد للإنسان كرامته المسحوقة التي وطِئت تحت الأرجل، وذلك هدف الإسلام الأول من الرسالة.

أما الأموال فما كان الحسين عليه السلام بذلك الإنسان الذي يعوزه المال. فقد تركت له صدقات أبيه أموالاً ضخمة، وهذا التاريخ بين أيدينا ينص على أن للإمام علي عليه السلام من الصدقات ما لو أراد الحسين عليه السلام احتواءه لألف بذلك أموالاً كثيرة، ومن تلك الأموال سبع من الحوائط، وعين أبي نيزر والبغيبغة وأرض العوالي، والكثير من العيون التي استنبطت وزرعت، وكان بوسع الإمام الحسين عليه السلام أن يأخذ منها ما يريد من الأموال، وكانت الحوائط السبع تغلّ أموالاً طائلة.

وهو عليه السلام إلى ذلك لو أراد الأموال لانفتحت له خزائن الأمويين على مصراعيها، وقد رأينا خزائنهم تفتح لمهرّج أو لشاعر يحمل مدحاً كذوباً لهم، أو يحمل نبرة مملوءة بالنفاق، فلا يكاد يدخل عليهم حتى تفتح له تلك الخزائن. ولو سكت الإمام الحسين عليه السلام لانصبّ عليه الذهب، ولو صانع أو

داهن لأتته الأموال، ولو أغضى على القذى لبذلت له الكنوز، ولكنه ابن أبيه عليه السلام الذي يقول وهو يبعثر الذهب يميناً وشمالاً: «يا بيضاء يا صفراء، غرّي غيري»[١]، والقائل للدنيا: «أإلي تعرّضت، أم إليّ تشوّفت؟»[٢]، والقائل للأموال: «هيهات هيهات أيها المال ما خدعت علياً، حسبه منك بلغة لعشائه» وهو ابن رسول الله صلى الله عليه وآله الذي يقول لعمه: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذه الدعوة ما فعلت»[٣].

وكانت قريش قد قالت له: خذ ما تريد منا واسكت، إن شئت النساء زوجناك بمن تحب، وإن شئت الحكم ملّكناك، وإن شئت الأموال أعطيناك. فقال لهم: «والله ما أنا بتارك ما بعثت من أجله، إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٤].

فالحسين عليه السلام ابن هذين العظيمين، ولا يمكن أن يستميله بريق الذهب، وهذا الذهب الذي ركله الحسين عليه السلام برجله ما زال يتراكم على ثراه، وفي خزائن من حوله، وهو في نفس تمر على التبر فيتساوى لديها مع التراب. إنه ابن الألق والمبدأ والفكرة، إنه ابن الإسلام الذي حمل للإنسانية آمالها وآلامها ليعبر بها عن الألم، ويوصلها إلى محطة الأمل، وليصنع لها الحياة المثلى. كل ذلك استهدفه الحسين عليه السلام دون أن يغرّه الذهب.

المبحث الثاني ـ الحسين عليه السلام يتربع عرش قلوب الناس:

وماذا بعد؟ أيريد الحسين عليه السلام الحكم وأن يصل إلى كرسي؟ وما قيمة

---

(١) مناقب أمير المؤمنين (محمد بن سليمان): ٢/ ٣٤.
(٢) نهج البلاغة ـ الحكمة: ٧٧.
(٣) بحار الأنوار: ١٨/ ١٨٢.
(٤) بحار الأنوار: ١٨/ ١٨٢.

كرسي تقوم قوائمه على عظام الناس وجماجم البشر؟ وما قيمة كرسي تجري من تحته الدماء، وهو خدوع كذوب يحمل فوقه دمية يمر عليها الليل فتغرق في الرغائب المؤقتة والللذائذ، ويمر عليها الصبح فتنصرف إلى الفهود والقرود؟ ذلك شأن الكرسي الذي كان في عصر الحسين عليه السلام، فلم يطلبه لأنه كان أكبر من الرغائب المؤقتة.

إن للحسين عليه السلام عرشاً في القلوب، وإن له مكانة في النفوس، وكل منزلة دون النفوس تتلاشى، فكم من العروش بقيت بعد موت أصحابها؟ لقد ذهبت العروش بذهاب أصحابها، ولكن من لم يتربع على العروش الزائفة صنع له عرشاً في القلوب. وهؤلاء هم الذين يبقون فيصنعون لهم عروشاً في قلوب الناس من الإنسانية والرحمة واللطف والشفقة:

إن الأمـــيـــر هـــو الـــذي يُـمـسـي أمـيـراً يـوم فـصـلـه

إن زال سـلـطـان الـولا يـةِ لـم يـزل سـلـطـانُ فـضـلـه

إذاً فللحسين عليه السلام عرش في القلوب ومكان في النفوس، وذلك عرش لن تمحوه الليالي والأيام. فالإنسانية احتفلت بالحسين عليه السلام فصنعت له عرشاً من قلوبها، لأنها عاشت في قلبه النابض بها، وقد قتل مضحّياً من أجلها. فهو عليه السلام أكبر من عرش يمكن أن يتزلزل بعد أيام.

وهل كان الحسين عليه السلام يريد الجاه وهو سيد شباب أهل الجنة[1]؟ إنه الأنشودة التي وعاها تاريخ الإسلام على لسان النبي صلى الله عليه وآله وهو يأخذ بضبعيه ويقول: «حزقة حزقة ترق عين بقة»[2]. ثم يحمله ليتكىء بشفتيه على شفتيه. وهذه منزلة وعاها له تاريخ الإسلام.

---

(١) مسند أحمد: ٣/ ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٤.

(٢) كفاية الأثر: ٨٢.

فالحسين عليه السلام أنشودة المسلمين، وهم يسمعون النبي صلى الله عليه وآله يقول: «حسين مني وأنا من حسين»[١]. فأي منزلة يمكن أن تكون أسمى من هذه المنزلة؟ وأي مكان أكبر من قلب الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله؟ وأي روح يمكن أن تحنو على روح الحسين عليه السلام أعظم من روح الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله؟

والحسين عليه السلام في غنى من نفسه، وفي غنًى بما احتلّ من مكانة في نفوس الناس، وفي الوقت نفسه فهو أنشودة على فم الأجيال وقد مرّت الأجيال وما تزال تهزج بها، وسيبقى ما بقي الوجود:

لِمَ لا يلذُّ على أنغامي السحر	وأنت لي في نشيدٍ رائع وترُ
غنّيتُ باسمك فاهتز الوجود إلى	دنياً يُمتّع فيها السمعُ والبصرُ
إلى فتًى ليس مجدُ الواهبين سوى	قدرٍ ضئيلٍ إلى جدواه يفتقرُ
إلى البطولة يستضري بها وهجٌ	وعي الشعوب إذا استشرى بها الخورُ
إلى الصلابة من أجل الحسين ترى	حربَ المقاديرِ أو يستسلمَ القدرُ
إلى الحسين وهل مثلُ الحسين إذا	ما التاثَ فكرٌ وضاع الوِردُ والصدرُ
آمنت أنك حقلٌ ما تمنّع إذ	يُستاف عِطرهُ وإذ يستقطف الثمرُ[٢]

المبحث الثالث ـ أسباب نهضة ومحاولات طمس معالمها:

إذاً لم يخرج الحسين عليه السلام طلباً لحكم أو مال أو منزلة، فقد كان له من ذلك النصيب الأوفر، فلماذا خرج إذاً؟ لقد خرج ليعلن هذه المقولة التي كانت وما

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ٣/ ١٧٧.

(٢) ديوان المحاضر: ٢/ ٣٦.

تزال شعاراً يحمله الأحرار: «ألا وإن الدنيا قد أدبرت وتنكر معروفها، وذهبت حذّاء، ولم يبقَ منها إلا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا تنظرون إلى الحق لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه؟ ليرغب امرؤ في لقاء ربه محقاً. إني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا شقاءً وبرماً»[1].

ولم تمت أبا الشهداء ولن تموت، إنك لن تموت وما يزال في الأسماع نبرة من صوتك وأنت تقول:

«وإن تكن الأبدانُ للموت أنشئت فقتل امرىء بالسيف في الله أفضل»[2]

وكيف يموت الصوت الهادر الذي هو أمل للإنسانية، وقد انبعث ليحقق آمالها؟ ولأن الحسين عليه السلام كان صوتاً للإنسانية فقد حاول يومئذٍ الظلم والظالمون أن يحولوا بين هذا الصوت وبين الوصول إلى أسماع الإنسان.

محاولات القضاء على ثورة الحسين عليه السلام:

لقد كان صوت الحسين عليه السلام يخيف الظالمين ويرعبهم، فحاولوا ألاّ يصل هذا الصوت إلى أسماع الإنسان، فماذا صنعوا من محاولات لإسكاته؟

المحاولة الأولى: وأد صوت الحسين عليه السلام

لقد حاول الأمويون دفن هذا الصوت الذي كان يشدو بفكر الإمام الحسين عليه السلام تحت التراب، ولكنه تمرّد على التراب، وحاولوا ألا يقربه أحد.

لأن في الدنو منه خطراً يخشاه الظالمون، فماذا صنعوا؟ إن أول ما يمكن أن يوصل للحسين عليه السلام هو ذكره والاحتفال به، ولذا صبّت عليه القوة كل ما

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٢٢٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٤/ ١٠٤.

تملك من وسائل الإرهاب لتمنع من الاحتفال بذكره. فكان المسلمون في أيام الأمويين إذا أراد منهم أحد أن يحتفل بذكرى الحسين عليه السلام فإنه لا يقوى على ذلك إلا في طيّ الكتمان والأقباء المظلمة، ولكن هذا الصوت ارتفع رويداً رويداً وأخذ يدوي وينبعث، وإذا به يتمثّل به الشعراء ويقوله الأدباء ويتناقله الحكماء، ولا يكاد يمر عام إلا وتجد ذكره في أسماع الناس في أغلب أصقاع المسلمين، وإذا بنا نسمع من يقول:

مـن لـقـلـب مـتـيـمٍ مـسـتـهـام ... غـيـر مـا صـبـوةٍ ولا أحـلامِ

أخـلـصَ الله لـي هـواي فـمـا أغـ ... ـرقُ نـزعـاً ولا تـطـيـش سـهـامـي

إلى أن يقول:

وقـتـيـل بـالـطـف غـودرَ مـنـهـم ... بـيـن غـوغـاء أمـةٍ وطـغـامِ[1]

فما أن فُرض على هذه المجالس أن تكون سرية حتى خرج ذلك الصوت من قمقمه وانطلق ثائراً متمرداً على استبدادهم. فهو لم يبقَ في طيّ الكتمان، بل إنه ارتفع عالياً مطالباً بدم الحسين عليه السلام.

الثانية ـ منع زيارة قبره عليه السلام:

ثم انتقلوا من مرحلة منع الصوت إلى مرحلة منع الاتصال الحسي بالحسين عليه السلام، فحيل بين قبره وبين زائريه، وأوقف الحرس على تراب كربلاء ليمنعوهم من الوصول إلى القبر الشريف. وكان مجرد الوقوف على القبر يؤدي إلى استلهام الثورة منه عليه السلام والاتصال بروحه، وتكهرب نفسية الزائر، فأرادوا

---

(١) الأبيات للكميت الأسدي من قصيدة أنشدها بين يدي الإمام الصادق عليه السلام، مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٣٣٧.

منع حصول هذا عبر منع هؤلاء من زيارته، لئلا يحصل هذا الأثر غير المرغوب فيه. فوضعت المسالح على أرض كربلاء، وزرعت الجيوش في الطريق، وبعث الإرهاب، وشنت الحملات ضد كل من يدين له عليه السلام بالحب والولاء[١].

ولا أستطيع أن أصف لك ما جرى، فهذه القطع منذ أن وضعت في القبر وإلى الآن تومىء إلى الأحرار من قرب أو بعد، والناس تنثال عليه، والدويّ كان وما زال يرتفع: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[٢]. وقد حاول المتوكل أن يمنع الزائرين بشتى الوسائل فلم يستطع[٣].

امرأة تدفع الضريبة لزيارة الإمام الحسين عليه السلام:

وها هي الشمس تشرق كل يوم على مشهد كان وما يزال إذا تملّته النفوس الكبيرة عرفت قيمته.. امرأة عجوز حنا الدهر ظهرها، تتوكأ على عصا وتحمل بيدها صرة أثقلها حملها، فيها ألف دينار، وتقف على المسلحة فتقول لأصحابها: بلغني أنكم منعتم الزائرين فلا يصل أحد إلى قبر الحسين عليه السلام حتى يدفع ألف دينار، وهذه الألف قد جمعتها من ألم وكنت منذ صغري وأنا أغزل لأجمع لأيام فقري وفاقتي، فخذوها مني، ودعوني أصل إلى قبر الحسين عليه السلام. ويقشعر جلد رئيس المسلحة. ويتساءل: أي دافع يدفع هذه المرأة لتضحّي بأغلى أمل في حياتها لتصل إلى الحسين عليه السلام؟.

إنه صوت الحسين عليه السلام الذي يصل إلى الأعماق والمشاعر.. إنها جاذبية الحسين عليه السلام التي تنجذب نحوها النفوس وتدور حولها، ولا لوم على الفراش إذا عشق السراج، ولا لوم على النفس إذا هفت للطيب، ولا لوم على الإنسانية

---

(١) الأمالي (الطوسي): ٣٢٦/ ٦٥٣.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

(٣) الأمالي الطوسي: ٣٢٦/ ٦٥٣.

إذا رنّ في سمعها صوت البطولة فطربت له، فتلك سجايا خلقها الله تعالى في النفوس، وما تزال تعيش في النفوس.

ضريبة الدم لقاء زيارته عليه السلام:

ثم رأى المتوكل أن الأموال يسهل دفعها ففرض ضريبة من الدماء، وكان يقتل من كل مئة عشرة، وكانت الأعناق تتسابق للقتل أو زيارة الحسين عليه السلام، ثم تضاعفت الضريبة حتى وصلت إلى أن يُقتل (٩٠٪) من الزائرين، ومع ذلك تمتد الأعناق وتتسابق لتصل إلى القبر، فكان الزائر يصل إلى القبر بعد أن يعبر على تسع من الجثث، ليلتمس القبر ويقول: «لبيك داعي الله، إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك، ولساني عند استنصارك، فقد أجابك سمعي وبصري»[1].

ولم يكن هذا الزائر بالأبله، فهو لا يقدس الأحجار، إن المسلم عندما يستلم الحجر الأسود المقدس فهو لا يقدس فيه حجراً، إنما يقدس فيه أمراً لله من وراء الحجر، ومعنًى سامياً، وإلا فلا فرق بين حجر وحجر. إن من يمسك قبر الحسين عليه السلام لا يقدّس حجراً ولا ذهباً وُضع على القبر، ولا هيكلاً أخذ بريقه ببصره، كلا إنما يقدّس روحاً مرفرفة على جسد وزّعَ أشلاء في ميدان البطولة، وإنساناً قتل في معترك الحق من أجل الإنسانية.

إذاً ما استطاعت الوسائل التي وضعها المتوكل في طريق الزائرين أن تقف حجر عثرة في طريقهم إلى الحسين عليه السلام، وإنما قُدمت الأعناق وضربت وسالت الدماء من أجل الوصول إلى هذا القبر المطهر.

المبحث الرابع ـ ما الذي يريده الزائر من القبر الشريف؟:

ماذا يجد الإنسان في هذا القبر؟ كل إنسان يتحرك من أجل إشباع شيء ما

---

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة: ٣/ ٣٤٢.

عنده، فالتاجر يتحرك ليشبع عنده غريزة جمع المال، ومن يرد الأكل يتحرك لإشباع المعدة، والأديب المفكر يتحرك ليشبع تطلعه إلى المعرفة، فماذا يريد هذا الزائر من وقوفه على قبر الحسين؟ إنه يريد إشباع حاجة عظيمة، وهي أن يقدس الدم الذي أهرق من أجل الإنسانية، ويستوحي الدم الذي صرخت كل قطرة منه في وجه الظلم: «والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد»[1].

والزيارة الشريفة تقول: «أشهد لقد اقشعرت لدمائكم أظلة العرش مع أظلة الخلائق»[2]. فما هي أظلة الخلائق التي اقشعرت؟ إنها المشاعر التي تلتف حول هذا الدم.. إنها المشاعر التي يستقطبها جسداً، وإنما يستقطبها موقفاً، وإصبعاً ما زال يشير من وراء القرون الطويلة منذ ألف وأربعمائة سنة وهو يومىء للأحرار: إن هذا هو الدرب الذي يجب أن يسلكه الشهداء والمضحون:

وتركتُ للأجيال حين يلزُّها عَنَتُ السُّرى ويضيقُ عنها المهرب

جثث الضحايا من بينك تُريهمُ أن الحقوق بمثل ذلك تُطلب

إن الحسين هو الإنسان الذي تمرّد على التراب وعاش ألقاً وفكراً، وقتل من أجل الإنسانية. ونحن في هذه الليلة نستجلي موقف إنسان حمل تطلعات الإنسانية وآلامها، وكان خطراً على الظالمين، لأن آمال الإنسانية حملتها النبوات، وحملها القادة والمضحون، فضحّوا من أجلها، أما الظالمون فهم نبت مسموم في الدنيا، وغريب على طبع الإنسانية، يخاف أن يزحف إليه صوتها فيجتثه، لذلك وقفوا بوجهه ليمنعوا وصوله إليهم. فماذا صنع المتوكل؟

---

(١) الإرشاد: ٢/ ٩٨.

(٢) الإقبال بالأعمال الحسنة: ٣/ ٣٤٢.

جاء لبقايا الأثر المادي، فهدم قبر الحسين عليه السلام وحرثه، ثم جاء إلى سدرة كانت على القبر فأبى إلا أن يقتلعها، لأنها علامة توصل إلى القبر، فقطع السدرة، وأجرى الماء على القبر حتى خفيت معالمه.

لكن تلك العظام أبت أن يضيع ذلك الأثر، وتلك الأجزاء التي تحت التراب أبت أن تكون جزءاً من التراب لا يُعرَف، ندبه العطر، وإذا بأعرابي يزحف إلى القبر، وكلما وصل إلى مكان أخذ شيئاً من التراب فشمه، إلى أن وصل إليه، فتناول منه حفنة ثم شمها وألقاها وأنشأ يقول:

أرادوا ليخفوا قبره عن محبّة   وطيب تراب القبر دلّ على القبر[1]

وكم حاول الظالمون أن يبعدوا الأنظار عن هذا القبر، ولكن حتى لو قدّر لهذا القبر أن يُمحى فإن الحسين عليه السلام لا يُمحى من النفوس. إن له في كل قلب قبراً على حد تعبير الشاعر، وأنا لا أستطيع أن أسميه قبراً وإنما أسميه معبداً أو مسجداً، إذ إن للحسين عليه السلام في كل نفس معبد ومسجد، لأن النفوس ما زالت تقدّس البطولة وتعشقها، فهو عليه السلام عنوان مجد في مسجد البطولة، ومعبد الكرامة.

فإن كان الحسين عليه السلام قد قتل من أجل الإنسان فلماذا نأسى عليه؟ وهل يعتبر هذا الاجتماع أسى على الحسين عليه السلام؟ أنا لا أعتبره كذلك، لأننا إنما نأتي إلى هنا لنستلهم الحسين عليه السلام، أما المأساة فهي أمر قهري، فنحن لسنا أقوى نفساً وأعصاباً من النبي صلى الله عليه وآله، فقد مر على بيت فاطمة عليها السلام يوماً، فصاح: «أثمّ لكَع؟ أثمّ لكع؟»[2]. (اللكع هو الطفل الصغير، وإن أطلق على الكبير فيعني: القليل العقل[3]). فخرجت له فاطمة عليها السلام تحمل حسناً وحسيناً، فأخذهما

---

(١) تاريخ مدينة دمشق: ١٤/ ٢٤٥.

(٢) العمدة: ٤٠٣.

(٣) لسان العرب: ٨/ ٣٢٢ ـ لكع.

فقبلهما، ثم وضع يده تحت حنك الحسين عليه السلام وأقعى بوجهه إليه فقبّله، ولحظ المسلمون في عينيه دمعة فقال له بعض أصحابه: نراك تبكي يا رسول الله، قال: «ذكرت ما يتعرض له هذا الجبين».

ويقول لأم سلمة: «يا أم سلمة، جاءني جبرئيل فأخبرني أن ولدي حسيناً يُقتل بأرض العراق، وأتاني بهذه التربة من موضع قتله، فخذيها وضعيها في قارورة، فإذا صارت دماً عبيطاً فاعلمي أنه قد قتل»[١].

وهذا موقف النبي صلى الله عليه وآله، ومهما بلغنا من قوة أعصاب فلن نستطيع أن نتعداه. ففي الوقت الذي نستلهم فيه الحسين عليه السلام فكراً وفكرةً وشعاراً، فإننا لا ننسى أن ننظر إليه ونحن دمعة، ونتصوره ونحن لوعة، فهو قتيل العبرة، وما ذكر عند مؤمن إلا دمعت عيناه[٢]. وليس هو للدمع فقط إنما هو للبطولة، ونحن إن كنا صنعناه من دمع فلأن الدمع أمر قسري.

المبحث الخامس ـ معطيات ثورة الحسين عليه السلام:

بعد ذلك كله نتساءل: ماذا أعطى الحسين عليه السلام للإنسانية بنهضته؟ إن الظلم الأموي وصل إلى درجة أشعر فيها كل مسلم بفقدان الثقة بنفسه، فالأجيال التي عاصرت الأمويين ماتت في نفسها البطولة وطأطأت للذل. وديست رؤوسها[٣]، فأي مجتمع هذا الذي يتقدم ليبايع يزيد على أنه عبد قن له يتحكم بماله ونفسه وعرضه[٤]؟ نقِّل طرفك في مثل هذا المجتمع وانظر، هل تسميه مجتمعاً إنسانياً؟

---

(١) بحار الأنوار: ٤٤/ ٢٣٨، ٢٦٨.

(٢) كامل الزيارات: ٢١٤/ ٣٠٧.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ٢٤٢.

(٤) تاريخ مدينة دمشق: ٥٤/ ١٨١ ـ ١٨٢.

بالطبع كلا، فالمجتمع الذي لا تنبض فيه دواعي الرجولة، ولا يقف دفاعاً عن مقدّساته، لا تستطيع أن تسميه مجتمعاً. وهذا ما فعله الأمويون، فلقد سحقوا نخوة المسلمين ورجولتهم، وسلّطوا عليهم السيف والإرهاب، فأخذتهم الذلة وغطتهم موجة من الشعور بالخذلان، فمات كل نبض فيهم، وسكت كل همس عندهم.

فالحسين عليه السلام رأى المجتمع الذي صنعه جده ألفاً قد بدأ يتحول إلى ظلام، فرفع مشعل الحرية، وأراد أن يعطي المجتمع الثقة بالنفس. وهكذا أعاد عليه السلام للمجتمع الثقة بالنفس، وبرهن على أن الأمة لا تموت، وأن الشعب لا يموت، وإذا سكت فإنما يسكت مؤقتاً ولن يبقى كذلك، وإذا غلب عليه الظلم فهو سيتمرد يوماً ما على الظلم، وسيحمل على يديه آماله وآلامه ثم يسلك منهج الحسين عليه السلام.

وهكذا تكون هذه النهضة المباركة قد أعطت عطاء عظيماً ولم تأخذ شيئاً، ومن معطيات هذه النهضة المباركة:

الأول ـ إعادة الثقة للأمة الإسلامية بنفسها:

فأول إنجازات الحسين عليه السلام إذاً أنه أعاد للأمة الإسلامية الثقة بنفسها، وأشعرها أن فيها زاداً وذخيراً، ومهما مرّت عليها أيام الذل فسوف لن تبقى ذليلة، فهذا أول عطاء حمله الإمام الحسين عليه السلام للإنسان المسلم، بل وغير المسلم أيضاً.

الثاني ـ أن الحق ينتصر وإن قلّ ناصروه:

فثورة الحسين عليه السلام بعد أن أعادت إلى الأمة الثقة بنفسها أوعزت إلى الظالمين بأن وسائل القوة مهما كانت جبارة وعاتية فقد تطردها محجمة من الدماء، وهذا الموقف من الإمام الحسين عليه السلام يلخص موقف النبي صلى الله عليه وآله يوم

خرجت قريش بكبريائها وغرورها ومعها ألف فارس، وآلاف أخرى من المسلمين، وخرج النبي ﷺ وسلاح أصحابه جريد النخل ليس إلا، فهزم أسلحة قريش بذلك الجريد، بل بالإيمان الذي وراء الجريد. وحمل الحسين عليه السلام على يديه إيماناً يقاتل به أسلحة الأمويين بعد أن جاءه الجيش من كل جانب ومكان، يقول السيد حيدر الحلي رحمه الله:

وطى الوحش إذ لم يجد مهرباً ... ولازمت الطيرُ أوكانها

وحفّت بمن حيث يلقى الجموع ... يثني بماضيه وحدانها

فسامته يركبُ إحدى اثنتين ... وقد صرّت الحربُ أسنانها

فإما يُرى مُذعناً أو تموت ... نفس أبى العزُّ إذعانها

فقال لها اعتصمي بالإباء ... فنفسُ الأبي وما زانها

إذا لم تجد غير لبس الهوان ... فبالموت تنزع جثمانها

ركين وللأرض تحت الكُماة ... رجيفٌ يزلزل ثهلانها

أقرّ على الأرض من ظهرها ... إذا زلزل الرعبُ أقرانها[1]

حمل الحسين عليه السلام إيمانه وعزيمته وموقفه فقاتل به أسلحة الأمويين وجيوشهم، وما أروع ما قال شاعر الطف:

قوم إذا نودوا لدفع مُلِمَّةٍ ... والقوم بين مُدَعَّسٍ ومكَردَس

لبسوا القلوب على الدروع وأقبلوا ... يتهافتون على ذهاب الأنفس[2]

---

(١) ديوان السيد حيدر الحلي: ١٠٨.

(٢) عمدة الطالب: ٣٥٦.

لقد لبس الحسين عليه السلام قلبه على درعه، وهو يهزأ بالسلاح ويهزم كل قوة، لأنه تجلبب بقوة الإيمان والعزيمة، واستطاع أن يعطينا درساً، ويعيد إلينا نبرة القرآن الكريم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[(١)].

الثالث ـ أنها المحرك الوحيد لما بعدها من ثورات:

لقد تركت لنا هذه الحركة المباركة تياراً ثورياً وداعياً إلى الجماعة امتدّ من يوم الطف إلى يوم الناس هذا، فإذا مرّ المحرم فلن تجد جالية إسلامية في شرق الأرض وغربها إلا وتحتفل بذكرى الحسين عليه السلام. ولو أنه لم يقتل في واقعة الطف، كم يمكن له عليه السلام أن يعيش؟ عاش جده صلى الله عليه وآله ثلاثة وستين عاماً، وعاش أبوه عليه السلام ثلاثة وستين عاماً أيضاً، والحسين عليه السلام في يوم الطف كان عمره سبعاً وخمسين سنة، فلو قدّر له أن يعيش كما عاش جده، فهل سيعيش (سلام الله عليه) أكثر من ست سنوات أو عشر أخرى؟.

فلو سكت عن الظلم ومات موتاً طبيعياً هل كان سيعيش أكثر من عشر سنوات؟ ولكنه الآن يعيش منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، وسيبقى يعيش والدنيا إلى جانبه، وستمتد الأجيال وللحسين عليه السلام فيها صوت وتيار، ولفكره عليه السلام فيها مسيرة:

ورأيتك الفكر الحصيفُ يشُقُّ أسـ ... تار الغيوبِ ويستشفُ بعيدا

فإذا أراقَ اليوم زاكيةَ الدما ... فغداً سترفعها الشعوب بنودا

وانتقل بك الآن إلى الدوي حول هذا القبر في ليلة العاشر من المحرم، هذا الدوي الذي يؤكد لك أن الحسين عليه السلام مات جسداً ولم يمت روحاً:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

أرجفُوا أنك القتيل المُدَمّى أوَ مَن يُنشِىء الحياة قتيلُ
كذبوا ليس يُقتَلُ المبدأ الحـ ـرُ ولا نجدعُ النهى التضليلُ
كذبوا كل بارق من سيوف الـ ـحق في فاحم الدُّجى قنديل
ويموتُ الرسول جسماً ولكن بالرسالات لن يموت الرسول

هلم معي لنعيد إلى أذهاننا ذكريات هذه الليلة، فقد بات الحسين عليه السلام هذه الليلة هو وأصحابه ولهم دوي كدوي النحل بين قائم وقاعد، وراكع وساجد، وفي هذه الليلة لا يمكننا أن نعرض عن الجانب المأساوي في هذا الموقف، دخلت عليه أخته زينب عليها السلام وهو جالس يقرأ القرآن، يقول الشيخ الصدوق: فوضع القرآن في المحراب، وقام إجلالاً لها، وكان إلى جانبه جون مولى أبي ذر يُصلح السيف، والحسين عليه السلام يقول:

«يا دهرُ أفّ لك من خليلِ كم لك بالإشراق والأصيلِ
من طالبٍ بحقه قتيلِ والدهرُ لا يقنعُ بالبديلِ
وإنما الأمر إلى الجليلِ وكلُّ حي سالكٌ سبيلي»

يقول الإمام السجاد عليه السلام: «فأعادها مرتين أو ثلاثاً حتى فهمتها وعرفت ما أراد، فخنقتني العبرة، فرددتها ولزمت السكوت، وعلمت أن البلاء قد نزل، وأما عمتي فإنها سمعت ما سمعت وهي امرأة، ومن شأن النساء الرقة والجزع، فلم تملك نفسها أن وثبت تجرّ ثوبها حتى انتهت إليه، فقالت: واثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت أمي فاطمة وأبي علي وأخي الحسن، يا خليفة الماضي وثمال الباقي، فنظر إليها الحسين عليه السلام وقال لها: يا أخية، تعزي بعزاء الله، لا يذهبن بحلمك الشيطان. وترقرقت عيناه بالدموع وقال: ولو ترك

القطا ليلاً لناما»[١]. وعند ذلك غالبتها دموعها فتوجهت إليه:

وصيت من يحسين بينه   من تحيل الغارة عليته

لا تعتذر يابو سكينه   حريم وغُرب شنهو حجينه

حانت التفاتة من الحسين عليه السلام فرأى ابنته سكينة مطرقة، فقال لها: «بنية، ارفعي رأسك، ما لي أراك مطرقة؟». فكأن لسان حالها: أبه، وبمن أرفع رأسي وأنت غداً تفارقني؟

وصوا بنه گبلن ترحلون   گبلن على الغبرة تنامون

يحسين مانته نور العيون

وكان للحسين عليه السلام في هذه الليلة موقف مأساوي آخر، فقد نظر إلى رملة وقد تعلقت بالقاسم، ونظر إلى ليلى وقد تعلقت بعلي الأكبر، ونظر إلى الرباب وقد احتضنت رضيعها، وكلّهن يعلمن أن غداً سيفارقنَ الأعزة، ونظر إلى زينب عليها السلام تجول من خباء إلى خباء، تودّع هذا، وتودّع هذا، وتصل إليه لتعتنقه:

خويه نروح كلّ احنه فدياك   إخذنه للحرب يحسين وياك

مهي غيبه يخويه واكعد اتناك

(١) روضة الواعظين: ١٨٣.

اليوم الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول ـ تركيبة المجتمع المكي:

القرآن الكريم عادة يراعي الأسلوب النفسي في التعامل، فبعض الآيات يصطلح عليها المفسرون المحدثون أن فيها جوانب نفسية، أي أنها تأخذ بعين الاعتبار نفسية من تتعامل معهم. فمجتمع مكة مجتمع تجاري يقوم على الأموال والتجارة، وعنده رحلة الشتاء والصيف، وتوجد فيه طبقة ثرية تمول الجزيرة العربية تقريباً. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فهم يرون أنفسهم أنهم أهل بيت الله، وأن عندهم ميزات حضارية. فلما دخل الإسلام مكة في بدء الدعوة، ودخل فيه منهم من دخل كان معظم هؤلاء فقراء ومن الطبقة المسحوقة، مثل

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥٥.

خباب بن الأرت وعمار بن ياسر وصهيب الرومي وبلال الحبشي. وهذا النمط الضعيف من الناس رفعه الإسلام ونهض به، وهيّأ له كياناً، خصوصاً لما انتقل النبي ﷺ إلى المدينة وأسس المجتمع المدني.

ولاحظ المشركون أن هؤلاء أصبحوا شيئاً مذكوراً بعد أن لم يكونوا شيئاً، فكان ذلك صعباً عليهم، فراحوا يسمعون المسلمين كلمات نابية، وكذلك كان الأمر في المدينة حيث كانوا يفعلون ذلك أحياناً مع النبي ﷺ، خصوصاً الطبقة المنافقة في المدينة، فكان النبي ﷺ يمر فيسمع كلمات من مثل: «آذيتنا بنتن حمارك». ويسمع كلمات بحق المسلمين مثل: «لو طردت عنا هؤلاء الأعبد وأرواح جبابهم». فأمر الله نبيه ﷺ أن يبلّغ المسلمين بأن يأخذوا بعين الاعتبار الجانب النفسي لهؤلاء وألا يعاملوهم بالمثل، وأن يرتفعوا عن مستوى المقابلة، وأن يسمعوا الكلمة فيسكتوا ولا يرتّبوا عليها أثراً.

كيف نردّ على من يتوجه إلينا بالسباب؟:

فالآية نزلت في هذا الجو المحموم بالكلام والتراشق، تقول الآية: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، واللغو هنا هو كل ما يُكره من القول ويُتفاحش من الكلام، كاللفظة النابية التي تؤذي الآخرين، فلماذا عبّر القرآن عن هذا الكلام بأنه لغو؟ نحن نعرف أن أحد معاني اللغو هو الكلام الذي لا فائدة منه، فلماذا يعبّر القرآن عن هذا اللون من الكلام بأنه لغو ولا معنى له؟ الجواب هو أن الكلام لا بدَّ أن يكون له مردود، فإذا لم يكن له مردود صار لغواً، والشتم لا مردود له أبداً، بل بالعكس، يكون له مردود عكسي، فالإنسان عنده طاقة كامنة فإن فرّغها بالشتائم ذهبت هذه الطاقة، ولا نتيجة من وراء الشتائم، لكنها إذا بقيت مخزونة فيمكن توظيفها في يوم من الأيام لهدف كبير.

ثم إن الشتم يجعل من المجتمع مجتمع سباب، ومن ناحية أخرى يكون

أحياناً تعدّياً إذا كان بلا موجب، لأن عرض المؤمن وكرامته كبيرة جداً بحيث إن الدنيا لا تعادل الإنسان المؤمن، فهؤلاء كانوا يعرضون عن اللغو لأنه لا جدوى من ورائه والإنسان المحترم يرتفع بلسانه عن اللغو، وقد كان الأحنف بن قيس صاحب قبيلة من مئة ألف شخص، وكان إذا قال لهم: تقدموا. تقدموا لأي عمل ولو كان فيه الموت، ولا يسألونه عن السبب، فشتمه أحد الناس يوماً وراح يسمعه ألفاظاً نابية فلم يلتفت إليه الأحنف، فقال للأحنف: أأنت حجر؟ إياك أعني، فقال له الأحنف: وعنك أعرض.

وهذا من الخلق الرفيع، خصوصاً إذا كان التوازن مفقوداً بين الشاتم والمشتوم، فمثلاً صعد مروان المنبر في المدينة فراح يشتم الإمام علياً عليه السلام بحضور الإمام الحسن عليه السلام، فلم يجبه الإمام الحسن عليه السلام أبداً. وحتى الإمام علي عليه السلام لو كان موجوداً لما ردّ عليه، فمن هو مروان حتى يرد عليه؟ وهل يكون الإمام علي عليه السلام طرفاً مع هذا؟ يقول الشاعر:

بلاء ليس يشبهه بلاءُ	عداوة غير ذي حسب ودينِ
يبيحك منه عِرضاً لم يصنه	ويرتع منك في عِرض مصونِ[1]

فمن غير الممكن أن يكون علي عليه السلام طرفاً مع مروان، فإن اعتدى حيوان فلا يقابل بالمثل. والقرآن يريد الارتفاع بمستوى الفرد المسلم إلى مستوى أخلاقي محترم، فلا يقابل اللغو بالمثل، لأن مقابلة اللغو بالمثل تهبط الإنسان عن مستواه، بل بالعكس، فمع كثرة من شتموا الإمام علياً عليه السلام لم ينزلوا من قدره، لأنه لم يرد ولم يجب مع أنه كان يسمع الشتم بأذنيه ولا يرتب على ذلك شيئاً من الأثر.

---

(١) البيتان لعلي بن الجهم، الغدير: ٣/ ٣٠٢.

كان أحدهم يناديه وهو يخطب على منبر الكوفة: «لله أبوك، ما أفصحك كاذباً». وإلى جانبه من يناديه: «أشهد أنك أنت الله»[١] والعياذ بالله، فلم يكن الإمام علي عليه السلام يرتّب أثراً على شتم هذا، لكنه ينهى ذلك المغالي، حتى أنه أحرق المغالين بالنار[٢].

فهدف الآية ألا ينزل المسلم إلى مستوى اللغو، فإن نزوله لا يليق بكرامة الإنسان أبداً. ومن هنا نلاحظ أن الإسلام لا زال يُشتم، لكن قادة الإسلام لم يشتموا من شتمهم، فلو اطلعت على الفكر الأوروبي لرأيت أنه يعتبر المسلمين من سقط المتاع، يقول أحدهم: كل الشعوب كلاب عدا إسرائيل، هذا هو الغرب المسيحي، ولا ننسَ صيحات الكرادلة والبابوات التي انتهت إلى الحروب الصليبية، والشتم المروع الذي كان يشتم به الإسلام بأنه هجمة بدوية خرجت من قلب الصحراء وأحرقت الحضارة، بل حتى قادة الفكر الأوروبي إذا جاؤوا على ذكر الإسلام فإنهم يشبعونه شتماً.

وماركس حينما ينقد فلسفة هيگل يعبر عن الإسلام بأنه «صرخة الألم المكبوت» عند الفرد، وهو أفيون الشعوب ومعنى «صرخة الألم المكبوت» أن الإنسان الذي سحقته النظم يخلق في داخله شيئاً يسميه (الله)، ويتصور أن هذا سيخلّصه، فهو بذلك يخدّر نفسه، فهو مثل شارب الأفيون. وهذا من الكلام الهراء الذي لا يستحق الرد، فإنك لو سألته: من خلق هذا العالم الذي تعيش فيه أنت؟ وهل ولد هذا النظام الدقيق المتناهي في الدقة من فراغ؟ فلو أمسكت بنبتة بسيطة وشرّحتها ودرستها لعرفت أن من ورائها قدرة لا حد لها.

يقول «ميتز» المتخصص بدراسة الغدد: «إن غدة من الغدد بحجم الحمصة لو

---

(١) بحار الأنوار: ٥٢/ ٢٨٥، ٢٨٧.

(٢) بحار الأنوار: ٥٢/ ٢٨٥، ٢٨٧.

أردنا أن نبدلها بمعمل فإننا نحتاج إلى مساحة تعادل المدينة التي نعيش فيها؛ فهل حصلت هذه صدفة ودون تخطيط؟ كل شيء يدل بإبداعه على وجود الله عز وجل.

إن كلام ماركس وأمثاله هراء لا يستحق الرد، ولكن أردت هنا أن أبيّن لك مقدار الحقد على الإسلام، ومع ذلك فالإسلام لم يردّ عليهم. تعال إلى القرآن الذي هو مصدر حضارتنا تجده يقول: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾[1]. فكم هو الفرق بين هذا الخلق وبين من يقول: إن محمداً جالس متمدد مترهّل يأكل من أموال السلب والنهب؟ وهذا ليس شتماً نظيفاً يستحق المقابلة، فهناك من يأتيك بدليل علمي فيمكنك أن تقول له: إن دليلك هذا خطأ وتناقشه، أما إذا كان لا يملك غير السباب، فهذا كافر وذاك مشرك، فماذا تصنع معه؟ وكلّ دليله الواهي حول هذا الكفر المزعوم أن هذا يأكل طعام الحسين عليه السلام يوم العاشر، فلو أكل طعام مروان لصار مؤمناً.

وأنا أريد أن ألفت النظر فقط، فإني أرى بعض الشباب يتحمس ويتألم من بعض الشعارات، فأدعوهم إلى عدم التأثر وعدم ترتيب الأثر، لأننا نعرف مصادر هذه الشعارات ومن يقف وراءها. فعلينا ألا نحقق غرض من يحاول شق وحدة المسلمين، وأن نكون واعين، وأن نعرف مصادر هذا اللغو، وعلى الإنسان أن يتّبع ما أنزل الله، ويجتهد قدر الإمكان ألا يتعدى ما رسمته له الشريعة، ثم لا عليه إن نقده من ينقده.

رد المأمون على عمه المهدي:

تقول الآية: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾، أذكر بالمناسبة أن إبراهيم بن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

شكلة ـ ابن المهدي، وهو أخو الرشيد ـ كان مغنياً معروفاً، يعيش في بيئة معروفة من الخمرة والجواري والمفاسد، فلما بايعوا الإمام الرضا عليه السلام بولاية العهد حدث انقلاب في بغداد، إذ كان هناك جماعة أرادوا ألا يُخرجوا الخلافة من البيت العباسي، فجاؤوا بإبراهيم هذا باعتباره من الأسرة الحاكمة فبايعوه واعتبروه خليفة، فوقف له دعبل بن علي الخزاعي الشاعر الرسالي الذي وظف فكره وقافيته لنصرة الحق ودحض الباطل، وقف بأكثر من قصيدة وقصيدة فجعله مهزلة من المهازل.

فلما دخل المأمون واستعاد السلطة، هرب إبراهيم واختفى عن الأنظار، فقيل له: اذهب إلى ابن أخيك والقِ بنفسك عليه، عسى أن يرأف بك فجاء ودخل المجلس، فصفح عنه المأمون.

وفي يوم من الأيام دخل على المأمون ـ وكان إبراهيم هذا حاقداً بشكل عجيب على الإمام الرضا عليه السلام وذريته، حتى وجد في وصيته: «إن أموالي توزّع على جميع أولاد الصحابة إلا أولاد علي»[1] ـ نعم، دخل على المأمون فقال له: أريد أن أقول لك شيئاً. قال: قل. قال: أنتم تقولون: إن علياً سيد الفصحاء والبلغاء. قال: نعم هو كذلك. قال: لقد رأيته في المنام فحاولت أن أحاجّه، فكلما حاولت ذلك فإنه لم يجبني إلا بقوله: سلاماً. فقال المأمون: والله لقد أجابك بأبلغ الجواب. قال: كيف؟ قال: أما تقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾[2]، فهذا أبلغ جواب[3]، فقد اعتبرك تافهاً لا تستحق أن يجيبك.

---

(١) نزهة الجليس: ٢/ ٤٠٤.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

(٣) بحار الأنوار: ٣٩/ ٨٦ ـ ٨٧.

المبحث الثاني ـ معنى ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ :

ثم قالت الآية: ﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾، وفي هذا المقطع ثلاثة آراء:

الرأي الأول ـ أنكم لا تتحملون وزرنا:

أي أنتم تشتموننا بشيء، فهل أنتم تتحملون وزر هذا الشيء أو الشتم يوم القيامة، أم نحن؟ فالقرآن يقول: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾[1]، فأنتم لا تتحملون عنا هذا، بل نحن نتحمل وزر أعمالنا وأنتم تتحملون وزر أعمالكم، فإن كان الأمر كذلك فلِمَ لا تكون عندكم روح موضوعية؟ فنحن نرتكب ما نتحمل تبعته ولا شأن لكم بنا.

ولذلك فإن أية مسؤولية على الفرد لا يحمِّلها الإسلام لغيره، فمثلاً يقول الفقهاء: لو أن زوجين كافرين عندهما طفل عمره سبع سنوات أو ثمانٍ ومات، فأبواه ليسا مسلمين حتى يلحق بهما، وهو لم يرتكب عملاً بإرادة حتى يحاسب عليه، فهو ليس مصرّاً على الكفر، ومن المحتمل أن يصبح مسلماً إذا كبر، فما هو حكمه؟ يقول المفسرون: إن الله يضعه على الأعراف ثم تشمله رحمة الله، لأنه لم يرتكب عملاً، ولا يتحمل وزر أمه وأبيه[2].

وهذه هي القاعدة الشرعية والعقلية أيضاً، وعلى هذا الرأي تكون لنا أعمالنا التي نحاسب عليها وأنتم لكم أعمالكم. ففي الآية لون من النّصف، فأنت عندما تنقدني بعمل، فهل أنت ناصح فيه؟ إن كنت ناقداً ناصحاً مشفقاً فعليك أن تستخدم أسلوب الناصح لا هذا الأسلوب من الشتم، فأسلوب

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٣٨.

(٢) فتح الوهاب: ٢/ ٢٧٠.

الناصح هو أسلوب القرآن: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1]، أما من يشتم وينعت بأقذر النعوت، فهو لا يتحمل وزر عملي، فعملي لي وعمله له.

الرأي الثاني ـ لنا ديننا ولكم دينكم:

فنحن لنا دين وأنتم لكم دين، وقد أدّبنا الله ألا نشتم حتى الصنم، لأن بعض الناس أشبه بالصنم وهو يعبد الصنم، فإن شتمته شتمك. فالقرآن الكريم يقول: إن مثل هؤلاء لا تجعلوا لهم حجة عليكم وطريقاً لشتمكم، فإن شتمت إلهه فإلهه مجرد خشبة أو حجر لا يضر ولا ينفع، لكنه سوف يشتم الله رب العالمين. قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: «من الكبائر شتم الرجل منكم والديه». فقالوا: أو يشتم الرجل أباه؟ قال ﷺ: «نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه»[2].

فعندما يريد الإنسان أن يشتم فعليه أن يأخذ بعين الاعتبار أن هذا الشتم هل يأتي بنتيجة أم لا؟ ثم إننا نعرف عبر التاريخ وعبر الرسالات أن العقيدة إذا تعرّضت للشتم ترسخت أكثر وأكثر، وهي أشبه شيء بالمسمار كما يقول أحد المفكرين الأجانب، فكلما زدت من ضربه ازداد ثباتاً ورسوخاً في الحائط. فالفكر هو الذي يصارع الفكر، أما الشتم فلا يأتي إلا بالنتائج العكسية. فالقرآن يريد الطريق الأمثل. فيقول: إن لنا ديناً وأنتم لكم دين، فكما أننا نحترم دينكم فأنتم عليكم أن تحترموا ديننا وعقيدتنا. وهذه هي أسس التعايش الحضاري، وهي أسس سليمة.

وهناك نقطة مهمة أخرى، وهي أننا عندما نريد أن ننتقد أحداً فينبغي ألا

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٤.

(٢) مسند أحمد: ٢/ ١٦٤.

يكون هذا الشيء الذي ننتقده فيه عندنا، فإن كان موجوداً عندنا فلِمَ ننتقده إذاً؟ فعندما نقول للأحدب: أنت أحدب، فينبغي ألا نكون مثله، لأنه سيقول حينئذٍ لنا: ولم لا تعيبون أنفسكم أنتم؟.

ولقد رأيت أحد الكتاب يحمل حملة شديدة علينا فيقول: إن الشيعة عندهم نمط من الغلو بأئمتهم لا حدود له، فهم يقولون: إن علي بن أبي طالب كان إلى جنب رسول الله ﷺ في غار حراء لما نزل عليه الوحي[١]، وسمعه. وكأن هذا الكاتب لم يقرأ ما يروونه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾[٢] من أن النبي ﷺ لما وصل إلى هذا المكان أصابته وحشة، وفي هذه الأثناء سمع صوت الخليفة أبي بكر. وهذا ما يرويه الكثير من المفسرين كالرازي والقرطبي. فلِمَ تكون هذه المنقبة لأبي بكر حلالاً ولعلي عليه السلام حراماً؟.

فالآية على هذا الرأي أن لنا عقيدتنا وديننا ولكم عقيدتكم ودينكم، فإن أردنا التعايش الحضاري فعلينا أن يحترم بعضنا دين الآخر.

ثم إن هذه الأمور ينبغي ألا تطرح بين العوام، فهذا الكاسب الذي يذهب منذ الصباح لعمله لا وقت عنده للقضايا الفكرية، فيجب أن تكون هذه القضايا الفكرية بين العلماء، تتصارع فيها أفكارهم ونظرياتهم. والقرآن الكريم أعطانا قاعدة مرنة هي: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٣]، فما يكلف به العلماء لا يكلف به الجهال.

الرأي الثالث ـ لنا أخلاقنا ولكم أخلاقكم:

فكلٌّ يعمل وفق خلقه، فمثلاً كتب ابن سعد إلى ابن زياد أنه سألت الحسين

---

(١) بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [سورة العلق، الآية: ١].

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٨ ـ ٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

عمّا أقدمه فأجاب: «كتب إليّ أهل هذه البلاد، وأتتني رسلهم يسألونني القدوم ففعلت، فأما إذ كرهوني وبدا لهم غير ما أتتني به رسلهم، فأنا منصرف عنهم».

قال حسان العبسي: كنت عند ابن زياد حين أتاه هذا الكتاب، فلما قرأه قال:

الآن إذ علقت مخالبنا به   يرجو النجاة ولات حين مناصِ[1]

انظر إلى هذا المعدن وانظر إلى معدن علي بن أبي طالب، فقد دخل عليه أصحابه في صفين فقالوا له: لقد كفاك الله مؤونة القتال، فالفرات تحت أيدينا والجيش كله على الفرات، والحر يكاد يميت الإنسان. فالتفت الإمام إلى مالك الأشتر وقال له: «افسح لهم عن صدر الفرات». فقال مالك: لقد راموا أن يميتونا عطشاً يوم أمس. فأجابه أمير المؤمنين بأنه لا يفعل ما يفعلون[2].

فالناس معادن كمعادن الذهب والفضة، فهذا له أخلاق وذاك له أخلاق، فالآية تريد أن تقول: إن لنا أخلاقنا ولكم أخلاقكم، فإن أردتم أن تكونوا شتّامين فهذا شأنكم، أما نحن فلا نكون كذلك.

ثم قالت الآية: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، ومعنى السلام: ترك الحرب، فهم يقولون لهم: نحن لا نقاتلكم من أجل سبابكم. وهذا هو أسلوب القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[3].

فإن سأل سائل: لو تمادى صاحب هذا الأسلوب وانتهى الأمر إلى تعدٍّ لا

---

(١) الإرشاد: ٢/ ٨٦.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٣١٧ ـ ٣٢١.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

حدود له، فما العمل؟ فالجواب: إن انتهى الأمر إلى مثل هذا الحد فلا سكوت بعد ذلك، ويدخل في باب الدفاع عن النفس. يقول الفند الزماني:

فلما صرح الشر ... وأمسى وهو عريان
ولم يبقَ سوى العدوا ... ن دِنّاهم كما دانوا
وبالشر نجاة حيـ ... ـن لا ينجيك إحسانُ
وبعض الحلم عند الشـ ... ـر للذلة إذعانُ[1]

فالآية جاءت لتحدد مرتبة من مراتب الخُلق، وهو أن الموقف مع هؤلاء لا ينتهي إلى المجالدة من أجل سماع الكلمة النابية. ومعنى ﴿لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: نترفّع عما يقوم به الجهلاء. وهذا هو الذي حدث بالفعل، فلم يقابل رسول الله ﷺ جهل قومه بالمقابل أبداً، بل بالعكس، فإن المقابلة بالمثل كانت شعار الجاهلية، ففي الجاهلية يقابلون الجهل بأربعة أضعاف، يقول شاعرهم:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا[2]

أما الإسلام فليس كذلك، فالنبي ﷺ يقول لقومه عند الفتح: «ماذا ترون أني صانع بكم؟». قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، ملكت فاصفح، وظفرت فاسجح[3]. فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[4].

لكن تعال معي إلى المعادن والعناصر التي هي عند الناس، فمثلاً عندما

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٤٠، ١٩/ ٢٢١.
(٢) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته أمالي السيد المرتضى: ١/ ٤٢، ٢/ ٨.
(٣) أسجح: أحسن العفو وتكرم به وترفق وتساهل. المعجم الأوسط: ٢/ ٤١٦ ـ سجح.
(٤) بحار الأنوار: ٤٤/ ٥.

دخل بسر بن أرطاة مندوب معاوية إلى اليمن هرب واليها عبيد الله بن العباس، فأمسك بولديه الصغيرين قثم وعبد الرحمن بعد أن لاذا ببيت من البيوت، وهذا البيت بدلاً من أن يحميهما عرضهما إلى القتل، فجاء بسر وذبحهما على درج صنعاء، وكان أحدهما ابن ست والآخر ابن سبع، في حين أن أقطاب قريش كانوا تحت قبضة النبي ﷺ يوم الفتح، وكان بوسعه أن ينتقم منهم أبشع انتقام. لكنه أمر أصحابه ألا يتبعوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح، ولا يهيجوا النساء بأذى، ونادى مناديه: «من ألقى سلاحه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن». وعفا عنهم، ولم يصنع معهم سوى أنه بكّتهم ووبّخهم ببضع كلمات[1].

ولأمير المؤمنين عليه السلام مواقف كثيرة من هذا النوع مع ألدّ أعدائه، وقد كانت قمة في العطف والصفح. وكذلك الإمام الحسن عليه السلام الذي يعرف من هو مروان، ومع ذلك حينما يقف له مروان بباب المسجد ويقول له: أريد أن تتنازل لي عن هذه البغلة وعن... وعن...، يقابله الإمام بكل خلق رفيع[2].

ولا نذهب بعيداً، ففي واقعة الطف يلتقي الحسين عليه السلام ألف فارس مع الحر، فيلتفت إلى أصحابه فيقول لهم: «املؤوا القصاع والطساس، واسقوا القوم واسقوا الخيل ورشّفوها ترشيفاً». ويبدأ هو بسقيهم، فيسقي علي بن الطعان المحاربي بيده الشريفة[3]. فكانت النتيجة أن علي بن الطعان المحاربي هذا يقذف الحسين عليه السلام بالحجارة التي كان يحملها بكمه، وذلك لما سقط عليه السلام على الأرض، وكان مسجًّى على التراب وقد أخذ منه العطش مأخذاً عظيماً.

يقول مؤرخو الطف: أثّر العطش بمواضع متعددة من الحسين، فأثّر في

---

(١) شجرة طوبى: ٢/ ٣٠٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ١٨٤.

(٣) الإرشاد: ٢/ ٧٨.

عينيه حتى حال بينه وبين السماء كالدخان[1]، وأثّر في لسانه، وذلك لما وضع علي الأكبر لسانه على لسانه فوجد لسانه كالخشبة اليابسة، وأثر في قلبه وذلك لما قال: «والله لقد تفتّت قلبي من الظمأ»[2]. ولذلك تجد لشعراء الطف حساباً وعتاباً مع الفرات، يقول أحدهم:

بعداً لشطك يا فرات فمنزلاً ... تحل فماؤك لا هنيء ولا مري

أيسوغ لي منك الورود وعنك قد ... صدرَ الإمام سليل ساقي الكوثر

والإمام زين العابدين عليه السلام أيضاً كان له مع الفرات عتاب، فقد وقف طويلاً ينظر إليه لما مرّ به، فراح يقول: «إلى الآن تجري يا فرات وقد قتل عندك ابن بنت رسول الله ظمآناً؟ إلى الآن تجري يا فرات وقد سقط آل رسول الله إلى جانبك؟».

وهذا المعنى حمله لسان أهل البيت عليهم السلام دعبل بن علي الخزاعي رحمه الله في تائيته، وتوجه به إلى فاطمة الزهراء:

أفاطمُ لو خلت الحسين مجدلاً ... وقد مات عطشاناً بشط فراتِ

إذن للطمت الخد فاطمُ عنده ... وأجريت دمع العين بالوجناتِ

أفاطمُ قومي يا ابنة العز واندبي ... نجومَ سموات بأرض فلاةِ[3]

* * *

خويه ما بعيني دمع واسجيك ... بنفسي يبو السجاد اداويك

---

(١) بحار الأنوار: ٤٤/ ٢٤٥.
(٢) المنتخب (الطريحي): ٤٣٩.
(٣) شرح الأخبار: ٣/ ١٧٣.

يـا نـور عـيـنـي اتـمـرمـرت بـيـك   طـلـعـت مـنـيـن وگـمـت اراويـك

ولم يأخذ العطش من قلب الحسين فقط، فالحسين عليه السلام يمكن أن يحتمل ذلك لكن الطفل ذا الستة أشهر كيف يحتمل؟ يقول لهم الحسين عليه السلام: «لقد جف ثدي أمه من اللبن، فإن خفتم أن أشرب من الماء فخذوه بأيديكم واسقوه جرعة من الماء»[1]. فكان الجواب أن رموه بسهم ذبحه من الوريد إلى الوريد:

ولــو تــراه حــامــلاً طــفــلــه   رأيــت بــدراً يــحــمــل الــفــرقــدا

---

(١) شجرة طوبى: ١/ ٣٠.

الليلة الرابعة

الجوانب التصحيحية في نهضة الحسين عليه السلام

أنست رزيتكم رزايانا التي
سلفت وهونت الرزايا الآتيه
وفجائع الأيام تبقى مدة
وتزول وهي إلى القيامة باقيه[1]

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأول ـ استنباط العبر من السنن التاريخية:

في تاريخ كل أمة أحداث بطبيعة الحال تعدّ أحد الأنماط التي تحدّد مسيرتها. وحينما نتناول التاريخ الإنساني فإننا نجد أن هناك أحداثاً في تاريخ كل أمة من الأمم، وهذه الأحداث منها ما يدخل في مظاهر الخير ومنها ما يدخل في مظاهر الشر. والأمة الواعية هي التي توظّف الحدث توظيفاً كاملاً

(١) الدرّ النضيد: ٣٥٧.

للاستفادة منه في استنباط العبر ودراسة السنن. إن البعض من الأمم إذا مرّت بها مصيبة فإنها تتحوّل إلى أمة نائحة، وتبقى تجترّ المصيبة وتعتصر الدمع، في حين أن هناك أمّة لا تأخذ الجانب المأساوي من المصيبة، بل إنها توظّف الحدث وتستثمره على الصعيد الاجتماعي فتأخذ منه الدروس والعظات. ولو درسنا التاريخ الفرنسي أو الإنكليزي أو الأميركي لوجدنا أنه تاريخ مليء بالحروب والأحداث التي يمكن للدارس أن يخرج منها بحصيلة ضخمة من الدروس والعبر التي يمكن أن يوظّفها للاستفادة منها على مستوى الأمة ككل.

وهذا الأمر ينطبق أيضاً على واقعة الطفّ، حيث إنها ـ شأنها شأن كلّ واقعة تحصل في تاريخ الإنسانية ـ تعتبر إحدى الوقائع التي هزّت الإنسانية والمجتمع الإسلامي هزّاً عنيفاً، وهي بهذا تختلف عن بقية الوقائع، لما ارتُكب فيها من بشاعات وفظاعات وقد تركت هذه الواقعة بصمات واضحة على المجتمع الإسلامي لا زالت آثارها موجودة إلى الآن، حيث يمكن مشاهدتها بوضوح.

والدليل على هذا أن الأدب قد توجّه بكل عناصره ومشاعر أصحابه إليها، والأدب عادة لا يتوجّه إلى فكرة عابرة، ولا يستمدّ منها صوره أو عناصره، بل إنه يتوجّه إلى الفكرة المعمّقة.

وفجائع الأيام تبقى مدّة ... وتزول وهي إلى القيامة باقيه

فهذه ليست كلمة عابرة، وإنما هي كلمة تنطوي على معاناة كبيرة يحاول الأدب أن يبرزها على ساحته.

الانطباعات التي تركتها واقعة الطفّ:

والواقع أن هذه الحادثة الأليمة التي مرّ بها تاريخ المسلمين قد تركت آثارها وانطباعاتها على جوانب متنوّعة منه، مما انعكس على حياته وطريقة

تفكيره. وسنحاول أن نستفيد منها من خلال محاضرتنا هذه، ونذكر من هذه الجوانب الانطباعات التالية:

الانطباع الأوّل ـ أنها وجدت تيّاراً ثوريّاً في الأمة:

إن هذه الواقعة المباركة قد أوجدت تياراً ثورياً في الأمة الإسلامية يدور حول مسألة الثأر للدين ولكرامته. وكلّ أمّة من الأمم حينما تتعرّض لهزة أو أزمة فإنها تقف بين أحد طريقين: الصبر والسكوت، حفظاً لمصلحة المجتمع، أو الجهاد في سبيل الله وسبيل الدين. وهذه الواقعة تبرعمت وأخذت صوراً عنيفة جداً، ويعود ذلك لأسباب عديدة نذكر منها:

الشعور بالإثم ودوافعه:

فالأمة التي شهدت مقتل الحسين عليه السلام وأصحابه وسبي عياله وهتك حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله، ووقفت مكتوفة الأيدي دون أن تتدخل للوقوف بوجه البغي، ولنصرته مع ما تعرّض له عليه السلام من ظلم وقتل، سواء كان بدافع الجبن أو بدافع التخاذل أو تحت ضغط عوامل قاهرة أقوى منها، فإنها ستشعر بعد ذلك بشيء من الندم والألم وتأنيب الضمير. فالضمير عندما يصحو ويثور على صاحبه فإنه يأخذ بتعنيفه وإلقاء اللوم عليه لأنه لم يجاهد في سبيل الله، ولم يؤدّ ما يفترضه عليه دينه ورسالته، ولم يقف الموقف الذي يريده الإسلام منه ويرضاه له. فهذا التوبيخ الذي يقع تحته الإنسان يدفعه إلى التحرّك، مهما كانت دوافعه التي قد تكون ناشئة عن مظاهر فكرية، أو مظاهر ممارسة وتطبيق من قبيل حركة التوّابين مثلاً.

الدوافع الفكرية، موقف الحسن البصري نموذجاً:

أما المظاهر الفكرية فمن قبيل ما نجده من خلاف فكري قد تبرعم بين مذاهب المسلمين، وقد حاول الأمويون بشتى الوسائل تطويق هذا اللون من الفكر الذي يبنى عليه رفض الظلم والثورة عليه، وامتصاص جذوته عن طريق

توظيف رجال منهم ـ رجال العلم التابعين للبلاط ـ لمحاربه. وذلك كالحسن البصري الذي كان يعد سيّد التابعين كما منحه التاريخ هذا اللقب، والحال أنه لم يكن سوى رجل من المقاتلين في جيوش الأمويين، ثم وظّف كقاضٍ، ثم بعد ذلك ترك تلك الوظائف وأصبح في عداد العامة.

وكان هذا الرجل من جملة من وظّفوا لمعالجة هذا الأمر، فقد وقف ينادي من على منبره بعدم مقارعة الظلم، ويدعو الناس إلى الامتناع عن التحرّك وإلى طاعة السلاطين، ثم راح يبرّر هذا الموقف ويبرهن عليه بأن مسألة مقارعة الظلم تخلق مشكلة في المجتمع وتفرز نتائج يكون مردودها أشدّ وأكبر من الظلم نفسه، وعليه فيجب أن تترك مقارعة الظلم مطلقاً. وقد راح يلحّ على هذه الفكرة إلحاحاً شديداً إلى درجة أن أحد الكتّاب كان يقول عنه: إن هذا الرجل قد جنى جناية كبيرة على تاريخ الإسلام بإبطاله معنى الجهاد في نفوس المسلمين، وقضائه على روح التوثب والتمرّد الذي كان عند أبناء الأمة الإسلامية، والحال أن الإسلام لم يصل إلى هذه النتيجة إلا بالجهاد والروح المتوثّب وتجسيد كلمة الله. لقد كان النبيﷺ يستعرض المسلمين قبل أن يذهبوا إلى الجهاد لكي يرى المقاتلين هل أنهم صالحون للجهاد أم لا، فيأتي صبي ويقف على مرتفع ويتطاول لكي يراه النبيﷺ كبيراً فلا يمنعه من الجهاد[1].

إن هذه الحالة لم تأتِ من فراغ، وإنما جاءت بتوجيه مقصود، لأن المفروض في مثل هذه الحالة أن هذا الصبي لا زال في مقتبل الحياة، وهو مقبل على دنيا واسعة جميلة في عينه، فالنتيجة يجب أن تكون بناء على هذا التصوّر أن يتخلف هذا الصبي عن الجهاد وإن دُفع إليه، لا أن يتطاول كي يبدو

---

(١) بحار الأنوار: ٢٠/ ٥٧.

كبيراً وبالتالي يسمح له رسول الله ﷺ بالذهاب إلى الجهاد. فهذا هو التصوّر الأوّلي للمسألة، لكن هذا الصبي لما كان مقتنعاً بمسألة الجهاد وأنها كانت تمثل شيئاً مبدئياً له، فقد انعكس هذا الفهم والاعتقاد على سلوكه فصار بهذا الوضع من العزم والحزم، وبهذا اللون من الإيثار بالنفس الذي خلقه الإسلام للجهاد في سبيل الله والوقوف في وجه الظلم ولإعلاء كلمة الله. أما أن يأتي شخص فيحاول أن ينتزع هذا الروح من جسم الأمة الإسلامية فهذا يعدّ كارثة كبيرة، وسهماً يضرب في مقتل.

والأدهى من ذلك أن هذا الأمر قد أُلبس ثوباً دينياً، فاختلقت له الأحاديث واختُرقت له الروايات التي اخترعوها ثم نسبوها إلى صاحب الشريعة ﷺ، وقضية اختلاق الأحاديث هي من أشدّ الكوارث التي منيت بها الأمّة الإسلامية، وكمثال على هذا أنقل لك ما رواه الدميري في كتابه (حياة الحيوان) حيث يقول: حينما توفي عمر بن عبد العزيز ـ هذا الرجل المستقيم في سلوكه، والذي كان موضع رضا من كثير من المسلمين، وكان نموذجاً مشرّفاً ـ جاء من بعده يزيد بن عبد الملك، فسار بسيرة عمر بن عبد العزيز أربعين يوماً ومشى على خطّه الذي اختطه وسار بعين اتّجاهه، فكان يكره الظلم والباطل ويعيد للناس حقوقهم، وكان يتّصف بروح مملوءة بالرأفة بالمجتمع. فلما رآه بعض الأمويّين على هذه الحال، اتّفقوا على أن يأتوه بأربعين شيخاً من شيوخ دمشق يشهدون عنده ويحلفون بالله له أن الخليفة إذا عمل عملاً حسناً أثيب عليه وإذا عمل عملاً سيئاً لا يعاقب عليه، واخترعوا له حديثاً عن النبي ﷺ في هذا المعنى، فترك ما كان عليه من صلاح، وجانب سيرة عمر بن عبد العزيز، وانغمس في العبث واللهو والملذائذ والفجور والمجون[1].

---

(١) حياة الحيوان: ١/ ١٠١.

إن هذا اللون من الأحاديث أخذ طابعاً متكاملاً يعضد بعضه بعضاً، وربما تستغرب أن بعض هذه الأحاديث لا زال يعيش معنا إلى الآن، ومنها القول المنسوب لرسول الله ﷺ «صلوا خلف كلّ برّ وفاجر».

وهذا الحديث مروي في كتب معتبرة عندهم، ومنها (السنن الكبرى)[١] للبيهقي، وهو يرويه بطرق كلها واهية ليس فيها سند صحيح[٢]، فالذي عنده دراية في كتب الرواية يجد أن الأسناد التي ذكرها البيهقي كلها أسناد واهية وليست قوية. وفضلاً عن هذا فإن هذا الحديث يتعارض ويصطدم مع حديث نبوي آخر، وهو الحديث الذي يقول «اجعلوا يمّتكم خياركم، فإنهم وفدكم فيما بينكم وبين الله عزّ وجلّ»[٣].

وهذا طبيعي، لأن الإنسان حينما يريد أن يأتمّ بشخص، فلا بدّ أن يبحث عن هذا الإمام ويحقّق في صفاته، كي يميّز الفاسق ليبتعد عنه من العادل فيتّبعه وإلاّ فكيف يصحّ له أن يأتمّ بالفاسق؟

إن هذا الحديث قد اخترع، لأنه يتمّم ما سبقه من أحاديث موضوعة، كلّها تصبّ في مصبّ واحد هو التستّر على أعمال هؤلاء الحكّام الفجرة الذين أتيح لهم أن يقودوا المجتمع.

فكيف يستقيم أمر التستّر على أعمال هؤلاء مع أنه يصطدم مع ما يقوله رسول الله ﷺ «اجعلوا أئمّتكم خياركم، فإنهم وفدكم فيما بينكم وبين الله عزّ وجلّ»؟ وهل يصحّ التستّر على مثل الوليد الذي يغطس في بركة من الخمر، ثم يخرج ثملاً يترنّح، ويتوجّه إلى الصلاة، ويصلّي بالمسلمين جماعة ثم يرفع يديه وينشد شعراً في قنوته فيقول:

---

(١) السنن الكبرى: ٤/ ١٩.

(٢) سنن الدارقطني: ٢/ ٤٤.

(٣) سنن الدارقطني: ٢/ ٧٤.

علــق الـقــلــبُ الــربــابــا بــعــد مــا شــابــت وشــابــا

ومن ثم يتقيّأ في محرابه؟[١]

والغريب أن صلاة هذا من وجهة نظر طائفة كبيرة من المسلمين صحيحة ومقبولة بل حتى صلاة المصلّين خلفه، لأنّهم يدّعون أنه ﷺ قال: «صلّوا خلف كل برّ وفاجر».

وهذا يعدّ نكسة في تاريخ الإسلام، فالإسلام ليس مجموعة من المواعظ البلهاء، وإنما هو هديّة السماء لأهل الأرض، لأجل بناء الإنسان بناء طاهراً، وبناء المجتمع بناء متكاملاً. ولا يمكن للإسلام أن يتاجر في عقيدة الإنسان ويحوّلها إلى تصوّر أبله، فيصحّح عمل هذا المستهتر الماجن، إن مثل هؤلاء الذين يخترعون الأحاديث عن النبيﷺ موجودون في كل طبقة، ولا يكاد يخلو منهم عصر من العصور أبداً، ففي كل عصر نجد هناك طبقة ليس لها وازع من دينها، أو مانع يمنعها من أن تفتري الكذب على الله ورسولهﷺ أو تتاجر بدينها وعواطفها، أو قد تتملّق صاحب الحكم والسلطان.

روي أن أبا جعفر المنصور الدوانيقي كان له بقايا حساب مع الأمويين، فكان يلاحقهم في كل مكان، ومن جملة هؤلاء الملاحقين شيخ من أهل الشام كان بطانة لهشام ونديماً له، فوجّه إليه وأحضره عنده، ثم سأله عن تدبّر هشام في بعض حروبه للخوارج، وقال له: إني أريد أن أستفيد من تجارب هشام هذا. فوصف له الشيخ ما دبّر هشام في حربهم، فكان يقول: فعل هشام رحمه الله كذا، وصنع رحمه الله كذا، وقام رحمه الله وجلس رحمه الله. فقال له المنصور: يا ابن اللخناء، قم عليك لعنة الله، تطأ بساطي وتترحّم على عدوي؟ فقال الرجل: إن نعمة عدوّك لقلادة في عنقي لا ينزعها إلاّ غاسلي.

---

(١) مسند أحمد: ١/ ٨٢.

ثم ناداه المنصور وقال له: ارجع يا شيخ، فرجع، فقال له: أشهد أنك نهيض حرّ وغراس شريف، عد إلى حديثك لله أنت، فلو لم يكن لقومك غيرك كنت قد أبقيت لهم مجداً مخلّداً وذكراً باقياً[١].

فالمنصور بهذا كأنه يقول له: إن بإمكانك أن تنافقني ولا تصدق معي في الحديث، لكنك آثرت أن تكون صريحاً وفيّاً، وهكذا فلتكن الرجال.

فهؤلاء الذين يخترعون أحاديث مكذوبة لولاة السوء هم في واقع الحال إنما يغشونهم: «نصحك من أسخطك بالحقّ، وغشّك من أرضاك بالباطل»[٢].

وبعد هذا الاستطراد أقول: إن من جملة الأشياء التي تركتها واقعة الطفّ في الأمة الإسلامية هو هذا النوع من الصراع الذي جاء الحسن البصري فتبنّاه كمدرسة وعمّقه، ولذلك فإن التاريخ واظب على منحه ألقاباً كثيرة، لأنه كان موضع رضاهم، وذلك من قبيل أنه من سادات التابعين وأنه واعظ وهذا الرجل إذا أخضع للتمحيص والتحقيق فإنه لا يبين منه حينها سوى إنسان مزيّف.

وأنا لا أستغرب هذا، وإنما أستغرب من إنسان عملاق كابن عربي هذا الرجل الجليل القدر وهو فيلسوف كبير إضافة إلى ذلك وصاحب فكر، ومع ذلك نجد عنده نظرية تعدّ أخطر من كلّ تلك النظريات، فهو يرى أن الاعتراض على الظالم هو اعتراض على الله، فهو يقول: إن ولاية السلطان هي تجسيد لولاية الله.

وهذه النظرية ـ أن السلطان ظلّ الله في الأرض ـ قد تبنّاها العثمانيون في سياستهم. وهذا هو التاريخ المزيّف (لعن الله تاريخهم).. التاريخ الذي ترك انطباعات سيئة السمعة على جسد الأمة الإسلامية والأمة العربية بالذات، هذا

(١) تاريخ مدينة دمشق: ٦٨/ ٢٠٩.
(٢) شرح نهج البلاغة: ١٨/ ٣٣٩.

التاريخ الذي اخترعوا له ألقاباً من قبيل الخاقان ابن الخاقان، والسلطان ابن السلطان، والأكثم الأعلم والجناب الأعظم، والأعظم الأجل، وظل الله في أرضه. إن هذه الألقاب الطويلة العريضة هي في واقع الأمر تصوّر الحاكم على أنه صاحب إرادة متحدّرة من إرادة الله وذات امتياز منها.

والحال أن نظرية الإسلام أصرح من هذا بكثير، فهي تنصّ على أن الخليفة إنما هو ممثل للجمهور، إذا أحسن وجبت طاعته، وإذا أساء وقف بوجهه. ارتقى الخليفة الأول المنبر ذات مرّة فقال «إن استقمت فأعينوني وإن زغت فقوّموني»[١].

وكان الصحابة كلهم يسمعون الإمام علياً عليه السلام وهو يقول من على منبره حينما سئل عن بيع أمّهات الأولاد فقال عليه السلام: «كان رأيي ورأي عمر ألاّ يُبعن، ثم رأيت بيعهن». فقال له عبيدة السلماني: رأيك مع الجماعة أحبّ إليّ من رأيك وحدك[٢]. فلم يجبه عليه السلام، بل إنه عليه السلام احترم رأيه، لأنه يعتبر نفسه الشخص الذي يمثّل المجموع. وعليه فإذا أحسن تمثيلهم فقد وجبت طاعته.

واقعة الطف بصمات إيجابية في تاريخنا:

فواقعة الطفّ في الواقع هي حدث ضخم في تاريخنا، وقد تركت بصمات نبيلة في مختلف الأبعاد، ومن جملة هذه البصمات أنها تركت لنا هاتين المدرستين. وعندما نقرأ كتب العقائد مثل كتاب (المواقف) للأيجي، أو كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي ـ وهما من ضمن مجموعة من الكتب ذات الطابع العقيدي ـ فإننا نرى أنهما يتناولان مسألة حساسة، فيمثلان تيارين متميزين يمشيان جنباً إلى جنب، وكل هذا انعكاس لواقعة الطف.

---

(١) المعجم الأوسط: ٨/ ٢٦٧.

(٢) بدائع الصنائع: ٤/ ١٣٠.

أما أن يأتي أحد فيعلم الإمام الحسين عليه السلام تكليفه الشرعي ـ وكأنه عليه السلام غير عارف بتكليفه، ولم يعش في حجر النبي صلى الله عليه وآله، ولم يترعرع في مدرسته العظيمة، وكأنه أيضاً لم يكن الامتداد الطبيعي له صلى الله عليه وآله ـ فيأتي هذا ليعلمه الصواب من الخطأ في مسألة خروجه عليه السلام، فهذا بالطبع لا يستحق إلا أن يوصف بأنه تفكير أبله، ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله يقول: «الحسن والحسين، إمامان قاما أو قعدا»[١]. وهذا ما يجب أن نتعبّد به، لأنه من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله. وهكذا فإنه صلى الله عليه وآله قد وصفهما وبيّن حقيقتهما للناس. وكان الناس على علم بيّن بهذا، ووصله صلى الله عليه وآله لهما بهذا يكشف عن أنهما يعرفان تكليفهما الشرعي معرفة غاية في الدقة.

الانطباع الثاني ـ أنها إحياء لدستور الله تعالى:

وهذا الانطباع قد خلف مصيبة كبرى، فالرسول صلى الله عليه وآله حينما نزل عليه جبرئيل بالقرآن الكريم فهو إنما كان يحمل دستور أمة، والدستور لا يمكن أن يعطى لأي كان، بل لا بدَّ من أن تكون هنالك طبقة خاصة تستطيع أن ترى أبعاده الحقيقية، وأن تفسره بالشكل الصحيح. وهذا أمر طبيعي وقانوني، ففي الأمم المتحضرة عندما يُراد أن يُجرى تعديل على الدستور فإنه يُدفع إلى لجنة مختصة من فقهاء القانون ليقوموا بإجراء التعديل اللازم عليه، لأنهم أعلم بمراده ودواخله. والقرآن الكريم بما أنه دستور إلهي لأمة يراد لها أن تحكم بما أنزل الله. فإن الله تعالى قد بعث معه من يجسّده ويطبِّق تعاليمه، وهؤلاء هم الراسخون في العلم الذين يشرحون أحكامه ونظرياته: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

فمن هم أهل الذكر؟ هم الذين قال فيهم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بين جموع المسلمين: «إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن

---

(١) دعائم الإسلام: ١/ ٣٧.

(٢) سورة النحل، الآية: ٤٣؛ سورة الأنبياء، الآية: ٧.

تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[١].

وهذا الحديث مروي عند جمهور المسلمين جميعاً، وأنا لا أهتم لما يروجه البعض إزاء هذا الحديث فيرويه: «كتاب الله وسنتي»[٢]. وإن كان في واقع الأمر جناية على التاريخ والأجيال، إن حامل التاريخ يجب أن يكون أميناً، وأن يقدم للأمة الأثر الصحيح، لا المفتعل والمختلق. فجمهور المسلمين ينصّون عليه: «كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً».

المبحث الثاني ـ الجناية على العترة ﷺ جناية على القرآن الكريم:

وفي تصوري أن الجناية على العترة الطاهرة ﷺ هي جناية على كتاب الله، لأن الجناية على الفقيه القانوني الذي يعرف النص القانوني وخفايا الدستور هي جناية على الدستور نفسه هذا من جهة ومن جهة أخرى إن حملة القرآن هؤلاء هم ليسوا كمن حملوه متأخرين، فحملة القرآن الكريم هم الذين نزل الوحي في بيوتهم، وكان يقرع أسماعهم. ومعنى هذا أن جبرئيل ﷺ حينما كان يهبط على النبي ﷺ فإنه كان يهبط في محراب فيه رسول الله ﷺ والحسين ﷺ وقد ارتحله. يروي المسلمون جميعاً أن النبي ﷺ أطال السجود مرة فقال له الصحابة: نراك أطلت السجود، فهل هبط عليك الوحي؟ قال ﷺ: «لا، وإنما ولدي ارتحلني، فكرهت أن أعجلّه»[٣].

فكان ﷺ غالباً ينتهي من المحراب والحسنان ﷺ إلى جانبه، فيهبط

---

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢.
(٢) سنن الدارقطني: ٤/ ١٦٠.
(٣) أسد الغابة، ٢/ ٣٨٩.

الوحي يقرع أسماعهم. كان الإمام الحسن عليه السلام يطوف حول الكعبة ذات مرة فوقف له رجل شامي مخدوع، فشتمه، وقال له: كان الأولى بمعاوية أن يلحقك بأبيك ولا يدعك تطوف حول الكعبة كما يدور [. . .] في الطاحون، فقال له الإمام: «على رسلك: أنا آخذ بيدك إلى بيتنا لأريك زغب جناح جبرئيل».

وهذا هو الخلق الإسلامي، ولذلك حينما دخل أحد الأدباء بيت النبي صلى الله عليه وآله راح يخاطبه:

وعفّرت خدّي في ثرى مس عَفره	لجبريل من جنحيه ريش مزغّبُ
وفيه محاريبٌ لآل محمدٍ	بهنّ ضراعات إلى الله تُنصبُ
وآثارُ أقدامِ صغارٍ ومهجعٌ	إلى الحسنين الزاكيين وملعبُ
وصوتُ رحى الزهراء تطحنُ قوتها	إلى جلدِ كبشٍ حيث مجلسُ زينبُ
رؤى سوف يبقى الدهر يروي جلالها	وتبقى على رغم البساطة تأشبُ[1]

فالواقع أن هؤلاء من هذا المنبع وهذا المعدن النقي، ولذا كان قتلهم قتلاً للقرآن الكريم وذبحهم ذبحاً له وقضاءً على الفكر الإسلامي وعلى الروح الإسلامي الذي أرادته السماء لأهل الأرض وهذه الوقائع السلبية التي تقترن بتاريخ الواقعة هي وقائع كثيرة، ودورنا نحن هو أن نفكر كيف نوظف هذا الحدث الضخم في تاريخ المسلمين لخدمة المسلمين، فيجب ألا نأخذ منه الجانب السلبي وإنما ينبغي أن يوظف توظيفاً كاملاً لخدمة الإسلام، وأن نؤكد لهذه الأمة أن أمة محمد صلى الله عليه وآله هي أمة حية لن تموت ما دام فيها روح كروح

---

(١) ديوان المحاضر: ١/ ١٥.

الحسين عليه السلام، لأن النبي صلى الله عليه وآله والقرآن الكريم قد ادّخرا هذه الروح لتبقى حياة دائمة مستمرة في جسم الأمة.

وقد يسأل سائل فيقول: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ۝١٥٤﴾[1] فيجاب بأن هذا الذي يقتل وينزف دمه وتفارق روحه بدنه هو في حقيقة الحال ليس ميتاً على أساس الروح وإن كان ميتاً على أساس الجسد، لأنه يبقى يعيش في مشاعر المسلمين وفي أرواحهم وفي قلوبهم. فهذا روح حية ودم يتنزّى لن يموت بل إنه سيعيش خالداً على صعيد النفس.

فالقرآن إذاً ادّخر هؤلاء ليكونوا مداد الحياة للأمة، يقول أحد الأدباء:

التـرابُ الـجـديـبُ مـا اخـضـر لـو لـم ... يـتـصـدّ لـه الـسـحـاب الـهـطـولُ

وصــدى كــلّ هــادرٍ وبــلــيــغٍ ... لـيـس مـثـل الـجـراحِ حـيـن تـقـولُ

قـد يـمـوت الـرسـولُ جـسـمـاً ولـكـن ... بـالـرسـالات لـن يـمـوتَ الـرسـولُ[2]

وإلا ففي الواقع أنه حتى النبي صلى الله عليه وآله يموت، فالقرآن الكريم يخاطب: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾[3]، لكنه موت الجسد وليس موت الروح والنفس، فهو صلى الله عليه وآله شعلة وهّاجة وروح متمرّد على الظلم والشرك.

إذاً أهم شيء يمكن توظيفه من واقعة الطف هو أن يتخذ من الحسين عليه السلام قبساً ونوراً ومن روحه روحاً مهمتها إيقاظ العزم في نفوس المسلمين وتتحرى لهم الطريق الواضح.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٤.

(٢) ديوان المحاضر: ١/ ٤٠.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٣٠.

المبحث الثالث ـ الجانب العاطفي في المأساة:

نعم يبقى هناك في هذه الواقعة الجانب العاطفي الذي يفرض نفسه على الواقع.

وقد يقول قائل: ما هو الداعي إلى تكرار هذه المأساة كل سنة حيث تعتصر فيها الدموع؟

والجواب: إن هذه مغالطة، فلو قرأنا تاريخ الواقعة من سنيّها الأولى كما في شعر الكميت فهل نجد فيها اعتصار دموع؟ كلا إنها كانت محاجّات فكرية وأدباً عالياً مترفاً من أروع ما يكون، فانظر قصيدته التي يقول فيها:

طَرِبتُ وما شوقاً إلى البيضِ أطرَبُ ... ولا لعباً مني وذو الشيب يلعبُ[1]

وهي قصيدة أحسن فيها الشاعر توظيف الحدث حينما يمر بالمصارع، حيث لم يوظفه لخدمة الجانب المأساوي وإنما وظفه لصالح العظة والعبرة.

وانظر إلى شعر جعفر بن عفان أحد شعراء أهل البيت ﷺ، وكذلك شعر دعبل بن علي الخزاعي حيث يقول في تائيته:

تجاوبنَ بالإرنانِ والزفرات ... نوائح عُجمُ اللفظِ والنطقاتِ

أفاطم لو خلتِ الحسين مجدّلاً ... وقد مات ظمآناً بشط فرات

إذن للطمت الخدّ فاطم عنده ... وأجريت دمع العين بالوجناتِ[2]

وهي تائية رائعة لا يقرأ فيها الإنسان الدمع وإنما يقرأ فيها الفكر والعظة. وقد وظّف الحدث أيضاً أحسن توظيف.

---

(١) مروج الذهب: ٣/ ٢٥٤.

(٢) ديوان دعبل: ٣٨.

فالمسألة إذاً أن واقعة الطف لم تكن مجرد دموع على امتداد تاريخها، فهي من أيامها الأولى كانت عبارة عن تذكير ووعظ وحثّ على الجهاد ونصرة الدين، وأول من وقف بعد مصرع الحسين عليه السلام هو عبد الله بن الحر أو سليمان بن قتة، فقد وضع سيفه على القبر وأنشأ يقول:

مررت على أبياتِ آل محمدٍ ... فلم أرَها أمثالها يومَ حلّتِ

ألم ترَ أن الشمس أضحت مريضةً ... لفقد حسينٍ والبلادَ اقشعرتِ

وكانوا رجاء ثم صاروا رزيةً ... لقد عظمت تلك الرزايا وجلّتِ

أتسألنا قيس فنعطي فقيرها ... وتقتلُنا قيس إذا النعلُ زلّتِ

وعند غني قطرةً من دمائنا ... سنطلبها يوماً بها حيث حلتِ

فلا يبعد الله الديارَ وأهلَها ... وإن أصبحت منهم برغمي تخلّتِ

وإن قتيلَ الطف من آل هاشمٍ ... أذلّ رقاب المسلمين فذلّتِ[1]

وواضح من أبياته أنه لم يأخذ فيها الجانب المأساوي فقط وإنما أخذ فيها جانباً فكرياً، فيصرح بأن هذا الذي حدث قد أصاب المسلمين جميعاً بالذل ما لم ينهضوا بهذا الدم للأخذ بثاره.

إذاً فالمسألة ليست كما يقال، وهذه من مزايا واقعة الطف، لأن الإمام الحسين عليه السلام من سنخ القرآن الكريم، فكما أن القرآن يأخذ كل قارىء منه معنًى حسب فهمه فكذلك واقعة الطف ومصائب العترة عليهم السلام، فهي من هذه السنخية عيناً، فكل واحد يأخذ منها معنًى وفائدة. وكلما عاودتها الأقلام وواجهتها

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٢٦٣.

أخذت منها زاداً، إذ إن فيها عطاء لا يقف عند حد، ففي كل سنة تعطي هذه الواقعة عطاء متجدداً، ولذا يقول الشاعر:

أنست رزيتكم رزايا التي سلفت وهوّنت الرزايا الآتية

وفجائع الأيام تبقى مدة وتزول وهي إلى القيامة باقية

وقد روي أنه حينما دخل دعبل الخزاعي رحمه الله على الإمام الرضا عليه السلام، وأنشده قصيدته التائية التي مطلعها:

مدارس آياتٍ خلت من تلاوةٍ ومنزلُ وحي مُقفرُ العرصاتِ

سمعت جارية تبكي من وراء الخباء، ثم خرجت وتحت ردائها شيء فوضعته على الأرض فإذا هو طفل رضيع يضطرب. ويبدو أن الجارية ذكية فأرادت أن تعرض منظراً حياً متحركاً من مناظر الطف، فلما رأى الإمام عليه السلام ذلك انفجر باكياً[1] مع أن الطفل كان سليماً معافى ليس به شيء، ولكن المنظر ذكّره بواقعة الطف عندما رجع الإمام الحسين عليه السلام يحمل رضيعه بعد أن آبَ من أرض المعركة ودماؤه تسيل على يديه، وقف عليه السلام بباب الخيمة وصاح: «رباب، خذي ولدك مذبوحاً». ومهما تكن البراعة والقدرة والصبر عند الإنسان وسيّما الأم فإنه لا يمكن تصوّر عاطفة أم تنظر إلى رضيعها مذبوحاً، فهي واقعة أكبر من أن تتصور، وأكبر من أن يخوض فيها القلم. أخذت الطفل ورجعت به وهي ولهى إلى المخيم، وقد ذهب عنها رشدها، فوضعته إلى جانب المهد تهزّه ذاهلة لا تشعر بما تصنع والمهد خالٍ منه، ثم راحت تدور حول مصرعه:

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١/ ١٥٣/ ٨، ٢٩٤/ ٣٤، ٢٩٦/ ٣٥.

خـذت سـلـوتـي وظـلـيـت اسـالـي　　　بــرويــحــتــي والــدمــع هــالــي

أدورن عـلـى ايـمـيـنـي وشـمـالـي　　　أهــز بـالـمـهـد والـمـهـد خـالـي

* * *

كــم رضــيـع لـك بـالـطـفّ قـضـى　　　عـطـشـاً يـصـفـق بـالـراحـة راحـا

اليوم الرابع

موقف الإسلام من الجور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٢٥﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول ـ سبب نزول الآية الكريمة:

إن معظم المفسرين يذكرون أن الآية الكريمة نزلت في أصحاب بدر، فهي تعلن أنهم سيتقاتلون يوم الجمل، فقد كان في معسكر البصرة جملة من الصحابة، وفي معسكر الإمام عليه السلام كذلك، فالآية نزلت في زمن النبي صلى الله عليه وآله مشيرة إلى هذا المعنى وهي من الآيات التي أشار فيها القرآن الكريم إلى ما سيكون.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

وإلى هذا يذهب الفخر الرازي[١] والطبرسي صاحب (مجمع البيان)[٢] وغيرهم[٣]. والآية بهذا ترتبط بموضوعنا الذي سأبيّنه إن شاء الله.

ولم يكن الإخبار مقتصراً على الآية الكريمة فقط، وإنما أخبرهم النبي ﷺ بذلك أيضاً ووضع هذه الصورة أمامهم، يقول الرازي: كان النبي ﷺ يوماً يمشي ومعه الزبير يسايره، وجاء علي بن أبي طالب عليه السلام، فتبسّم له الزبير ورحّب به، فقال له النبي ﷺ: «يا زبير أتحبه؟». قال: نعم يا رسول الله، أحبّه كحبّ ولدي أو أشدّ.

قال ﷺ: «كيف بك إذا خرجت إليه تقاتله؟».

وبقيت الكلمة في وعي الزبير، فكان يقول: كنا نقرأ هذه الآية ولا نعلم أننا المعنيون بها[٤].

وهذا أحد مضامين الآية، وفيها مضامين أخرى سنتناولها تباعاً إن شاء الله.

المبحث الثاني ـ قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾:

الفتنة: هي الواقعة التي يفتتن بها الناس، سواء كانت في المجال السلمي أو الحربي. فكل واقعة ينقسم حولها الناس ويفتتنون بها، ويتقاتلون من أجلها هي فتنة ففي الأحوال السلمية مثلاً يُعَدُّ انتشاراً بعض المنكرات فتنة، لأن الناس ينقسمون حولها، فبعضهم يقول: إنها ظاهرة سليمة تخدم المجتمع، والآخر يراها ظاهرة سلبية تفسد المجتمع، فيحدث الصراع فيما بينهم حولها.

---

(١) التفسير الكبير: ١١٥/ ١٢٠.
(٢) مجمع البيان: ٤/ ٤٥٢.
(٣) شواهد التنزيل: ١/ ٢٧٣/ ٢٧٣.
(٤) التفسير الكبير: ١٥/ ١٢٠.

وفي مجتمعنا المعاصر مثلاً ينادي الكثير من الناس بضرورة اندماج المرأة في كل فعاليات الحياة وأنشطتها على اعتبار أنها تشكّل نصف المجتمع. وإذا كانت كذلك فلا يجوز الحجر عليها، بل لا بدَّ من انطلاقها ودخولها المعمل والحقل والمجالات الحيوية العامة. ولو كان ذلك على حساب بيتها وأولادها. مع أن هناك أعمالاً لا تناسب المرأة، فلا يناسبها مثلاً أن تكون تحت آلة ثقيلة وهي في فترة الحمل، لأن ذلك ينعكس على صحتها وصحّة جنينها، ويعرّضها إلى آلام كبيرة.

والحمل بحد ذاته عمل مرهق، فهي مجاهدة في المجتمع لكونها تحمل له امتداده وهو الطفل، ولولا الحمل والولادة لانقرض المجتمع فهي في ساحة جهاد وعمل فعلي ولا داعي لتكليفها بعمل شاق إضافي.

فنلاحظ إذاً أن الناس انقسموا حول هذه النقطة، فمنهم من يقول بضرورة انطلاقها، لأنها نصف المجتمع، وقسم يقول: إن ذلك سيكون على حساب الأخلاق والأطفال والأسرة والمجتمع، حيث سيحرم الأطفال من العطف والرحمة والرعاية، فينتج من ذلك مشاكل اجتماعية وأخلاقية فيجب ألاّ تخرج المرأة للعمل.

فهذا اللون من الصراع فتنة، ولا بدَّ أن نحتكم فيه إلى الضوابط التي وضعها الشارع حول مدى حق المرأة في العمل، وما الذي يضرها، وما الذي ينفعها. وليس من المعقول أن يأتي بعد (١٤) قرناً من الزمان من يعلّم الإسلام موقفه من المرأة، لأن الإسلام هو الوصفة الإلهية السماوية للإنسان والله أرحم بعباده من الناس، وعندما خطّط للمجتمع جعل المرأة في مكانها، وأعطاها الحقّ في العمل في حالات معيّنة، ومنعها في حالات أخرى. والله تعالى لم يرد للمرأة أن يظلمها، إذ ليس له جلّ وعلا مصلحة في أن يظلمها بأن يعطي

رفاهية للذكر على حسابها، فهم كلّهم عباده، وهو ربهم. ومن غير الممكن أن تكون لدينا تعاليم من السماء تظلم نصف المجتمع لحساب النصف الآخر.

فالفتنة التي تكون في المجال السلمي يأمرنا الله بالابتعاد عنها، وأن ننظر جهة الحقّ فنميل إليها، وذلك بالرجوع إلى الطبيب الاجتماعي وهو الفقيه، فكما أن الطبيب البدني يتخرّج من كلية الطب، فإن الطبيب الاجتماعي يتخرّج من الأكاديمية العلمية الإسلامية، وإذا كان عنده قابلية ولياقة فعلينا أن نسأله عندما تطرأ مثل تلك الأمور.

ومن الأمثلة على الفتنة في المجال السلمي ما يرويه القرطبي حيث يقول: كان ابن وهب يقول: يجب الخروج من المجتمع الذي يصنع فيه المنكر علانية، اقتداء بفعل أبي الدرداء[1]. فلو صار المنكر في بلاد ما معروفاً، وليس هناك من يستنكر فعلى المسلم أن يخرج منه إلى بلد يحافظ فيه على أهله وأسرته ونفسه، لأن المنكر إذا تفشّى في المجتمع فالإنسان أحياناً لا يستطيع أن يخرج من نطاق المجتمع، فيجرفه الإطار الاجتماعي.

فمثلاً على صعيد التلفزيون هناك بعض القنوات المفيدة التي تعلّم النظريات، أو التي تكون ذات فوائد عقلائية، أو حتى بعض التسلية البريئة، ولكن فيه قنوات تنتهي إلى المنكر، وتفسد الشخص وعائلته. فإن قلنا للبعض: حاول أن تمنع عائلتك عن المنكر، قال: لا أستطيع ذلك إن التيار أصبح عند الناس هكذا. في حين أن هذا التيار نحن الذين نصنعه، ومن يرد أن يصلح فعليه أن يعاكس التيار، فإن لم يعاكسه أخذه السيل وأصبح مثل الآخرين.

فالقرآن يقول: اتقوا هذه الفتن، لأنك عندما تصاب بمرض في الجسم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٣٩٢.

تذهب إلى الطبيب، لكن إن أصابك الوباء الأخلاقي والاجتماعي فعليك ألا تبقى متفرجاً، والمسؤولية هنا قد تكون أكبر فعلينا أن نحمي أنفسنا من الأمراض الاجتماعية التي يفتتن بها الناس.

أما فعل أبي الدرداء المذكور في كلام القرطبي فهو أنه اختلف مع معاوية، والاثنان من الصحابة، والسبب أن معاوية كان يبيع الذهب المصنّع كالأواني الذهبية بثمن أكثر منه في الموزون، وهذا ربا بإجماع المسلمين، لأنه زيادة على أحد المتساويين جنساً مما يكال أو يوزن، فلما قيل لمعاوية في ذلك قال: لا أرى بذلك بأساً[١].

والناس عندما يرون الخليفة كذلك يكونون مثله، إذ هم على دين ملوكهم، كما نرى نحن الآن أن البنوك تتعامل بشكل علني بالربا، مع العلم أن للربا آثاراً ماحقة، ومن آثاره النقيصة من حيث تُطلب الزيادة، فيكون الأمر عكس ما أُريد له، ومن يعمل بالربا فإنما يريد الزيادة والواقع أن الحال يصبح عكس ذلك، فليس هناك من يعمل بالربا وتكون عنده زيادة أبداً: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾[٢] وهذا معلوم بالتجربة، وحتى في البلدان المتقدمة لم تستطع الأموال الربوية أن تحقّق الرفاه الاجتماعي أبداً، لأن الله وعد بمحق الربا.

فكان معاوية يقول: لا أرى بذلك بأساً فقال أبو الدرداء: لا أساكنك ببلد أنت فيه، لأن الله أمرني أن أتّقي ما يفتتن به الناس، حيث قال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾. ثم خرج من الشام فكان أبو وهب يقول: أقتدي بفعل أبي الدرداء باعتبار أنه صحابي وفعل الصحابي حجّة عند مذاهب المسلمين.

---

(١) الموطأ: ٢/ ٦٣٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٦.

وهنا مفارقة أُلفت إليها النظر، وهي أن السنة ما هي إلا فعل النبيﷺ أو قوله أو تقريره، فالفعل والقول من النبيﷺ واضحان، أما التقرير فهو أن أحداً يفعل شيئاً أمام عين النبيﷺ فيقرّه عليه، ولا يعترض على فعله أما مذاهب المسلمين فيتوسّعون في ذلك، ويعتبرون فعل الصحابي سنة أيضاً، مدّعين أن الصحابي إذا فعل شيئاً فلا بدَّ أن يكون قد رأى النبيﷺ فعله، أو أمر به، أو أقرّه عليه. فإن كان رأى الصحابي سنة فالإمام الحسن والحسين عليهما السلام صحابيان فلِمَ لا نعتبر فعلهما سنة؟.

المبحث الثالث ـ إشكالية شمولية الفتنة:

ثم انتقلت الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ وهنا يرد السؤال التالي: ما ذنب هؤلاء غير الظالمين الذين لم يشتركوا في الفتنة، حتى تصيبهم؟ إننا نقرأ في القرآن قوله تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[١] ونقرأ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾[٢] فإن كان الإنسان يؤاخذ بعمله، فما ذنب هذا الذي تصيبه الفتنة وهو لم يصنع شيئاً؟ فالآية تقول إن الفتنة لا تصيب الظالمين فقط، وإنما تتعدى لكل المجتمع.

جواب الفخر الرازي حول ذلك

يجيب الفخر الرازي على ذلك بجوابين، ولا يمكن أن نعتبرهما رأيين ناهضين كما سترى[٣].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤؛ سورة الإسراء، الآية: ١٥؛ سورة فاطر، الآية: ١٨؛ سورة الزمر، الآية: ٧.

(٢) سورة المدثر، الآية: ٣٨.

(٣) التفسير الكبير: ١٥/ ١٢٠ ـ ١٢١.

الرأي الأول ـ أن لله حق التصرف في ملكه:

فالله خالق الإنسان ومالكه، وهو يتصرف فيه كيف يشاء، وليس لأحد أن يعترض عليه في التصرف في ملكه.

وهذا ليس جواباً لأن الله وإن كان يتصرف بعباده ولا يسأل عن ذلك، لكنه لا يتصرف بما هو خلاف العقل، لأنه تعبّدنا بالعقل وأمرنا أوامر لا تصطدم مع العقل العام، فليس من الممكن أن يظلم الناس، لأن الظلم خلاف العدل، فالله تعالى أمر بالعدل وعمل به، وأقام السماوات والأرض على أساسه، فلا نستطيع القول: إنه يتصرف بملكه كيف يشاء، فحاشا لله أن يعمل القبيح، إذاً إصابة البريء بالفتنة ظلم قبيح، ولو أنك الآن رأيت من يعتدي على بريء ولو كان ملكاً له فإنك تستنكر ذلك في نفسك.

الثاني ـ إثابة من أصابته الفتنة:

فإن في هذا لطفاً وثواباً لمن أصابتهم أضرار الفتنة وهم لم يشتركوا فيها. فالله بلطفه سيعطيهم العوض عن هذا الظلم الذي أصابهم.

وهذا عبث كما ترى، إذ يمكن من البداية ألاّ يعرضه للعقاب، ولا يعطيه الثواب، والله منزه تعالى عن العبث.

فالرأي الصحيح أن المجتمع إزاء الفتنة ينقسم قسمين: قسم يدخل في صلب الفتنة ويأتي المنكر الذي يضرّ المجتمع، والقسم الآخر يتوجّب عليه أن ينكر المنكر، ويأخذ على يد أهله، ويأمر بالمعروف فترك الإنكار من هؤلاء ظلم، والظلم يعاقب عليه الإنسان تقول الرواية عن النبيﷺ في حديث حسن[1]: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمّهم الله بعاقبه»[2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٢٤٢.
(٢) كنز العمال: ٣: ٧٧/ ٥٥٧٥.

المبحث الرابع ـ الآراء في السلطان الجائر:

ولو رجعنا إلى التاريخ لوجدنا أن عقائد المسلمين حول هذه النقطة شطران: القسم الأول الشيعة والمعتزلة، والقسم الآخر المذاهب الإسلامية الأخرى.

رأي الأشاعرة في المسألة

فرأي المذاهب الإسلامية الأخرى أن من يحكم المسلمين حتى لو كان فاسقاً ظالماً جاهلاً، فليس من حق أحد أن ينكر عليه أو يخرج، لأن الإنكار يؤدي إلى سفك الدم، والصراع والمشاكل، وهذه النظرية تجدها في كتاب (المواقف)[١] مثلاً و(الأحكام السلطانية) للماوردي، و(مآثر الأناقة) للقلقشندي، و(المذاهب الإسلامية) لأبي زهرة، وغير هؤلاء[٢] بل إنهم يقولون حتى لو وصل إلى الحكم جاهل أو ظالم، فيجب ألاّ تنام ليلة واحدة وليس في عنقك بيعة له[٣].

رأي الإمامية والمعتزلة

ويقابل هذا الفكر فكر أهل البيت عليهم السلام قال تعالى ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[٤] وقال النبي صلى الله عليه وآله على ما يرويه الإمام الحسين عليه السلام: «من رأى منكم سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرمات الله، ناكثاً لعهد الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بقول ولا فعل كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله»[٥].

---

(١) المواقف في علم الكلام: ٨/ ٣٥١ ـ ٣٥٣ (ط مصر ١٣٢٥هـ).
(٢) صحيح مسلم: ٦/ ٢٠ ـ ٢٢.
(٣) صحيح مسلم: ٦/ ٢٠ ـ ٢٢.
(٤) سورة هود، الآية: ١١٣.
(٥) بحار الأنوار: ٤٤/ ٣٨٢.

وإنما حورب مذهب أهل البيت من قبل عبد الملك بن مروان ومن سبقه أو لحقه، لأنه يمثل فكراً خطراً عليهم، فحاربوه مثلاً بالروايات التي تنسب إليهم الكذب، وتفتري عليهم.

من مفتريات الشاطبي على الشيعة

وعندما ترجع إلى المصادر تجد أن هناك قضايا تنسب لهذا المذهب لا علاقة له بها لا من قريب ولا من بعيد يقول الشاطبي صاحب كتاب (الاعتصام): إن الشيعة يجوّزون أن يتزوج الإنسان (١٨) امرأة في وقت واحد ففي أي مكان وجد الشاطبي هذا الافتراء؟ في حين أن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «لا يحل لماء رجل أن يجري في أكثر من أربعة أرحام من الحرائر»[١].

ويقول إن الشيعة يفسرون قوله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾[٢] بأن المثنى مع اثنين، فيكون الناتج أربعة، ثم ثلاث مع ثلاث فيكون الناتج ستة، ورباع أي أربعة مع أربعة فيكون الناتج ثمانية، ثم يكون المجموع (١٨ امرأة)[٣] ومن يمرّ بهذه النظرية يقف موقفاً سلبياً من الشيعة بلا شك، لكنها افتراء لا واقع له، ومن المخجل أن نرى في تاريخ المسلمين مثل هذا التهافت لأن المسلمين اليوم بأمسّ الحاجة إلى التماسك والتعاون، والدين اليوم يتعرض إلى إبادة، والمجتمع إلى تفكك وانحلال، ونحن بأمسّ الحاجة إلى الاتحاد والتلاحم والتراحم، ونحن نقف موقف المتفرّج من اليهودية وهي تفتك بنا، وتعبث بمقدساتنا. يقول الإمام الصادق عليه السلام لأحد أتباعه: «ابتلينا بثلاث: من نقلوا عنا

(١) فقه القرآن: ٢/ ٩٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ٣.
(٣) مر مثل هذا الاتهام الباطل الشنيع وردّه في ج٢، ص٣١٩ من محاضرات الوائلي.

ما لم نقل، ومن قالوا فينا ما لا نستحق، ومن نسبوا إلى أعدائنا ما ليس فيهم. وشتموهم حتى شتمونا»[١].

فلا بدَّ أن نكون حذرين لأن في التاريخ دسَّاً وحسداً ومطامع وأهواء، والإمام كما ترى يحذّر من هذه الأصناف الثلاثة: فالصنف الأول ينقل عن الأئمّة ما لم يقولوه، والأئمّة يقولون: «ما أتاكم عنا فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فخذوا به، وما خالفه فاضربوا به عرض الجدار»[٢] والصنف الثاني المغالون، والثالث من راحوا ينسبون إلى أعداء أهل البيت ما ليس فيهم، ثم سبوهم فكانت النتيجة أن أعادوا السب عليهم ﷺ.

فالآية تريد أن تقول: لا بدَّ أن تنكروا المنكر، ولا يقولن أحد: لا شأن لي بذلك، فإن الفتنة ستصيبه أيضاً. يقول الحديث: «ثلاثة من الذنوب تعجّل عقوبتها ولا تؤخّر إلى الآخرة: عقوق الوالدين، والبغي على الناس، وكفر الإحسان»[٣]. لأن عقوق الوالدين تخريب المجتمع، فلا يمكن أن يكون في المجتمع انسجام أو تماسك إذا لم يكن الابن منسجماً مع الوالدين.

فالمجتمع نسيج، فإذا بقيت فيه ثغرة غير متلائمة صار ذلك عيباً فيه. والبغي على الناس أن يعتدي أحد على الناس، والباقون ينظرون إليه، فهم بهذا اشتركوا معه في الجريمة بسكوتهم عن الظلم، والسكوت عن الظلم ظلم وغريزة عدم السكوت عن الظلم أودعت حتى في الحيوانات.

وبالعكس هناك روايات تقول إن التظالم إذا ارتفع من الناس عمّهم الخير والرخاء، وهذا ما نلاحظه الآن في البلدان الكافرة، فهم وإن كانوا يمارسون

---

(١) الإرشاد: ١/ ٢٨٢.
(٢) الاستبصار: ٣: ١٥٨/ ٥٧٣.
(٣) الأمالي (المفيد): ١/ ٢٣٧.

المنكر علناً، لكن الله لا يعجّل لهم العقوبة في الدنيا، إنما يغدق عليهم بالخير، وذلك أنهم لم يتظالموا، فرحمهم الله. وبالعكس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[١].

وأما كفر الإحسان فإنك عندما تحسن لإنسان لا تتوقع منه أن يتحول إلى عدوّ لك على الأقل فهناك نفوس مريضة لئيمة، تحسن إليها العمر كله، لكنها تُعاقبك في النهاية أشد المعاقبة.

ومن هنا تدرك معنى الكلمة المشهورة: «اتقِ شرَّ من أحسنت إليه»[٢]. فمن الناس من يولّد عندهُ الإحسان شعوراً بالنقص، ويجعله ينتقم. يقول الطبرسي في (مجمع البيان) نقلاً عن الثعلبي: قال النبي ﷺ لعمار بن ياسر: «يا عمار ستكون من بعدي هنات، حتى يختلف السيف فيما بينهم، فإذا رأيت ذلك فالزم هذا الأصلع الجالس على يميني فإنه لا يدعوك إلى ردى ولا يصدك عن هدى، يا عمار، إذا سلك الناس وادياً، وسلك علي وادياً، فاسلك وادي علي، يا عمار، طاعة علي طاعتي، وطاعتي طاعة الله»[٣].

وكان ﷺ وعد عماراً أن يكون آخر شرابه من الدنيا ضياحاً من لبن، وتقتله الفئة الباغية[٤].

والغريب أنني رأيت أحد الحفّاظ عندما يستعرض واقعة صفين يقول: وعندما قتل عمار مع علي اتّضح أن الحق مع علي أي أن الحق لم يتّضح إلا عندما قتل عمار، ولولا ذلك لما عرفنا أن علياً عليه السلام على الحق. وهذا من الإجحاف بعلي عليه السلام ونهجه القويم فعلي عليه السلام لا يحتاج إلى مثل هذه التزكية.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٢) تذكرة الموضوعات.

(٣) مجمع البيان: ٤/ ٤٥٣.

(٤) دعائم الإسلام: ١/ ٣٩٢.

المبحث الخامس ـ العقاب في الدنيا والآخرة:

ثم قالت الآية: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ والعقاب يكون في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فكما ذكرنا لأن الإنسان إذا ساهم في الباطل فإنه يساهم في بناء إطار اجتماعي يؤدي إلى الظلم وإلحاق الأذى بعباد الله فالجريمة فيها إيحائية وتشجيع على الجريمة قال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾[1] لأن المعتدي يسهّل الاعتداء على الدماء وتصبح الدماء شيئاً فشيئاً لا حرمة لها، ويصبح المجتمع غابة يأكل فيها القوي الضعيف، ومن يأكل الحرام يشجع على أكله وذلك أشبه بمن أصيب بوباء جسدي معدٍ، فإذا نشرت الوباء الخلقي خلقت إطاراً اجتماعياً لذلك، والفرد بعد ذلك لا يستطيع التمرّد على هذا الإطار.

ومن ينشأ في مجتمع ملوث فإنه يتعلّم التلوث، وبالعكس لذا أمرنا الله ألاّ نصاحب إلاّ من نثق به، لأن الصحبة تُعدي فلا بدَّ إذاً من إنكار الظلم والمنكر.

تقول الرواية: «لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»[2].

إننا نصنع الكثير من المجرمين الظالمين، ثم ندعو الله أن يخلّصنا منهم، فهذه الآفة نحن ربيناها في المجتمع، ولا بد أن تأكلنا في النهاية وذلك بتركنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أمّا عقاب الآخرة فالنار، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾[3].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

(٢) الكافي: ٥: ٥٦/ ٣.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

ومن هنا يثير البعض هذا التساؤل: هل كان تحرّك الإمام الحسين عليه السلام ضد هؤلاء صحيحاً؟ ألم يكن بوسعه أن يبقى في مكانه ولا يعرض نفسه للذين غدروا به أو الذين قتلوه؟ وهذا السؤال لا بدَّ أن يطرح على الأنبياء أيضاً، فنقول لهم: لِمَ خرجتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر؟ ولم جئتم بشرائع تغاير النظام الاجتماعي الذي كان سائداً في زمانكم؟

إن الأنبياء جاؤوا لإصلاح المجتمع، وهو يصلح بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذان إن أمكن أن نفعلهما بالقلب كفى، وإلاّ فباللسان، فإن لم ينفع فباليد والسيف. وهذا هو نظام الحياة، وكل الأنبياء تعرضوا للأذى، وضحّوا من أجل رسالاتهم، وأي نبي لم يتعرض للأذى أو الرمي بالحجارة أو القتل؟ فهل ننكر عليهم كما يُنكر ذلك على الإمام الحسين عليه السلام؟

ثم إن الإمام الحسين عليه السلام أحد سيديشباب أهل الجنة[١]، وهو إمام إن قام وإن قعد[٢]، ومن البلاهة أن نعلّمه تكليفه الشرعي، إنه وليد منبع الرسالة، وربي في حضن رسول الله صلى الله عليه وآله يتلقى القرآن وهو في حجر النبي صلى الله عليه وآله صباح ومساء.

فنهوضه عليه السلام إذاً ضمن القرآن والسنة، لأنه رأى فتنة ستعمّ المجتمع، ولا بدّ من إنكار المنكر. وللمجتمع مقدسات هي الأعراض ثم الأموال ثم الدماء ثم الكرامة، وكلّها عرّضها الأمويون للهدر. وقد خرج الإمام الحسين عليه السلام، لأن الناس خرجوا عن المعروف، ونظروا إلى المنكر فأقرّوه، وأقروا من تربّى على الفهود والقرود، وراح يجلس على كرسي الخلافة ويقول:

أقول لصحب ضمّت الكأس يشملهم   وداعي صبابات الهوى يترنّم

(١) صحيح مسلم: ١٦/ ٤١.

(٢) دعائم الإسلام: ١/ ٣٧.

خذوا بنصيب من نعيم ولذّة   فكلٌّ وإن طال المدى يتصرّم[1]

فلما وصل الأمر إلى هذا الحد تهيأ الإمام الحسين عليه السلام للعلاج، وكان العلاج يتطلب التضحية:

وما رأى السبط للدين الحنيف شفاً   إلا إذا دمه في كربلا سُفكا

وما سمعنا عليلاً لا علاج له   إلا بنفس مداوية إذا هلكا

واستعد الإمام الحسين عليه السلام للتضحية، وخرج من مسجد النبي صلى الله عليه وآله في المدينة يرفع شعار:

لا ذعرت السوام في فلق الصبح   مغيراً ولا دُعيت يزيدا

يوم أعطي من المهانة ضيماً   والمنايا يرصدنني أن أحيدا[2]

وأعدّ للأمر عدّته وكان تخطيطه من المدينة، وكان يعرف أن المعركة تريد وقوداً، وناهيك به من وقود، أفلاذ كبد رسول الله صلى الله عليه وآله. وأبناء أمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة عليها السلام. وخيرة أبناء الأمصار من الصحابة المتهجّدين بالأسحار، العباد الأتقياء، بل كان الوقود يحتاج إلى التضحية حتى بالعيال، فهيّأ عياله ونفسه لمقارعة الباطل.

نعم، وضع خدّه الشريف على قبر النبي صلى الله عليه وآله مودعاً ولسان حاله يقول: «يا رسول الله، أنا فرخك وابن فرختك»[3].

فكأن لسان حاله: إني خارج لآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر تجسيداً

---

(١) جوهر المطالب (الدمشقي): ٢/ ٣٠١.

(٢) شرح الأخبار: ١٤٤/ ١٤٤.

(٣) بحار الأنوار: ٤٤/ ٣٢٧.

لأوامرك وشكا إليه من أمته ثم ودّعه وخرج فمرّ على بعض بيوت الهاشميّين يودّعهم، وأخرج عياله بذلك الشكل الشجي، وقابلته إحدى بناته وهي فاطمة التي أراد أن يبقيها لأنها كانت مريضة لا قابلية لها على الحركة، فأتى بها إلى بيت أم سلمةﵥ فألحّت عليه فاطمة، ثم راحت تطوف على المحامل واحداً بعد واحد. تودّع أهلها، ثم جاءت إلى الإمام الحسينؑ فتعلّقت بركابه، وقالت: أبه خذني معكم، والله لا طاقة لي على فراقكم. قال: بنية، إنك مريضة لا طاقة لك على الحركة، ومن الممكن أن أرسل إليك فيما بعد من يصحبك إلينا إذا تغيرت الظروف.

ثم تركها في بيت أم سلمةﵥ، وبقيت تنتظر الأخبار حتى رجع الناعي ينعى الإمام الحسينؑ، يقول المؤرخون: خرجت تقوم ويقعدها الألم، وهي تقول: أيهذا الناعي، قف لي قليلاً حتى أسألك. فوقف بشر، فقالت: ما وراءك؟

أخبرني عن الإمام الحسينؑ فقال لها: الخبر هناك عند قبر رسول اللهﷺ، وسوف أخبر الناس بذلك. فقالت له: أنا عليلة ولا طاقة لي على الانتظار فقال لها: بنيّة، عظّم الله لك الأجر بأبي عبد الله:

يـنـاعـي ريـض بـهـونـك   أنـشـدك وجـاوبـنـي

* * *

مـا بـيـه الـحـك بـمـمـشـاك   عـلـيـلـة والـمـرض ذبـنـي

عـنـدك عـلـم بـإخـبـاري   يـومـا عـنـدك انـتـه اخـبـار

* * *

بـالأمـس كـانـوا مـعـي   والـيـوم قـد رحـلـوا

الليلة الخامسة

الجوار في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

يعتبر المفسرون هذه الآية من أمهات الكتاب، لما فيها من مضامين أخلاقية ضخمة، وكل ما في القرآن الكريم عطاء بلا شك، لكن هذه الآية تعتبر من أركان الإسلام، لما تضمنته من مكارم أخلاق وأمور هامة تدور حول قضايا اجتماعية وواقعية تمس المجتمع عبر تعرضها لقضية خاصة شخصية، وهذا ما سنطّلع عليه خلال البحث إن شاء الله.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٦.

المبحث الأول ـ معنى القربى وأقسامها:

ولنبدأ بالآية جزءاً جزءاً، فنقول: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾. اللفظة في القرآن الكريم تارة تحتمل أكثر من معنى وتارة لا، أي يكون لها معنى واحداً، وهذه الفقرة من الآية تحتمل أكثر من معنى، فيجب أن نلتمس القرائن والأدلة لنتمكن من تعيين المراد، فـ ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ لفظ يقع على معنيين، القربى المادية، والقربى المعنوية.

القرابة المعنوية

وهي تتمثل في العقيدة أو الإسلام، فالمسلم قريب المسلم وأخوه، كمن له جار مسلم يشاركه في العقيدة فقط دون القرابة. فالجار المسلم له ثلاثة حقوق عليك: حق الجوار وحق الإسلام، وإذا كان قريبك فله حق القرابة أيضاً. فالله تبارك وتعالى يأمرنا بالإحسان إلى الجار الذي تربطنا به عقيدة، وهذا الإحسان ليس له وصفة محددة عند المشرّع الإسلامي وإنما هو يترك ذلك للمجتمع، فعندما نقول لأحدنا: أحسن إلى جارك، فإنه يفهم أننا نطلب منه ألا يؤذي جاره ولا يُسيء إليه وأن يحفظ عرضه ويصون بيته وماله وأن يتفقده في غيبته وجوعه. ونحن عندنا حضارة في هذا المجال عريقة إلى حد أن عدي بن حاتم كان إذا رأى قرية من النمل رجع وفتّ لها الخبز ولا يترك النمل جياعاً ويقول: هؤلاء جيراني[1].

وأئمتنا عليهم السلام أكدوا كثيراً على هذا المعنى باعتبارهم الروافد الحقيقية في الإسلام، فالإمام زين العابدين عليه السلام في رسالة الحقوق يخصص فصلاً لحقوق الجار[2]. وبطبيعة الحال فإن الإمام زين العابدين عليه السلام يمثل رافداً من روافد

---

(١) بحار الأنوار: ٦١، ٢٤٢.

(٢) رسالة الحقوق ضمن بحار الأنوار: ٧١/ ٧.

الإسلام، وكان إذا جنّه الليل يُشرف على القدور ويقول: «اغرفوا لآل فلان، اغرفوا لآل فلان»[١].

وهذا معنى سامٍ، فالجار ـ حتى إذا كان شبعاناً ـ لكن حينما تهدي له ويهدي إليك فإن هذه الحالة تعتبر وسيلة من وسائل التقرّب والمودة، وتعبيراً إنسانياً يمثل صورة حضارية مشرقة، ولكن ببالغ الأسف أقول: إن العقائد يجب أن تقرّب ما بين الناس لا أن تفرقهم، سيما إن كانوا متجاورين، فالعقيدة ينبغي أن تجمع بين الناس وتذوب الخلافات وتخلق جواً ناعماً بينهم، والذي يحدث الآن أن بعض الجيران يمتنع عن أكل طعام تقدّمه إليه بحجة أنه من ذبيحة ذبحت لأجل الحسين عليه السلام وأهدي ثوابها إليه، فهو لغير الله ونحن نقول لهم: بأي دليل ومدرك تمتنعون عن أكل هذا الطعام، مع أن جمهور المسلمين أجمعوا على وصول الثواب إلى الميت من قراءة قرآن أو طعام يهدى ثوابه إليه[٢]؟ فهل من الخلق الامتناع عن طعام يهدى لسيد شباب أهل الجنة؟ ولكن: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[٣].

القرابة المادية

وهو القريب منك. وعلى هذا الرأي ما هو مجال المسؤولية هنا؟ بعض الروايات ترى أنه ما بينك وبينه أربعين بيتاً[٤]، وبعض الفقهاء يرى أنه ما بينك وبين أربعين ذراعاً[٥].

---

(١) المحاسن: ٢: ٣٩٦/ ٦٧.
(٢) روضة الطالبين: ٥/ ١٨٥.
(٣) سورة القصص، الآية: ٥٦.
(٤) فتح الباري: ١٠/ ٣٧٤.
(٥) الخلاف (الطوسي): ٤/ ١٥٢.

والواقع أن هذا لا يمكن تحديده، ولذا فقد أوكل الشرع تحديده إلى العرف، فالشارع ليس له اصطلاح به، وما يفهمه العرف والرأي العام من كلمة (جار) هو المعول عليه، فحينما يقول: ابن محلّتي التي أسكنها هو جاري. فعندها تكون هي الحد، لأنه المعنى الذي تفاهم عليه العرف. وهذا هو الذي أمرنا الله عز وجل بالإحسان إليه بأن نستر عورته وأن نشبع جوعه وأن نتعامل معه على أساس من الأخلاق، ولذلك كان الأئمة عليهم السلام يستعيذون بالله من أن يكونوا بقرب جار يؤلمهم[1].

المبحث الثاني ـ معنى ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾:

وهو إما البعيد عنك في العقيدة ككونه مسيحياً وأنت مسلم، وهذا لا يمنع من أن تلاقيه وتلقي عليه التحية ويلقيها عليك، غاية الأمر أنك لا تحييه بتحية الإسلام وإنما تقول له: نهارك سعيد، أو مرحباً بك، أو طاب يومك، وما بمعنى هذا، وليس به بأس. وهذا جانب من الأخلاق التي أراد لها الشارع أن تنتشر بين الناس كوسيلة وطريقة لأداء حق الجيرة فالإحسان إلى الجار بهذا الشكل مطلوب ولو كان كافراً، لأننا نريد أن نبرهن لهم أننا على شريعة سمحاء، ويعرفوا بأننا لا نعاديهم لدينهم. وإذا كان البعض يرموننا بالعنصرية متذرعين بمواقفنا تجاه اليهود، فنحن نقول لهم بأنا لم نحارب اليهود لأنهم يهود، بل إنهم عاشوا ما بين أظهرنا ولم نحاربهم، لكن لما حاربونا وأخرجونا من ديارنا وقتلونا وسفكوا دماءنا حاربناهم، فنحن لم نحاربهم من أجل عقيدتهم، بل إنا نقر بالعقائد القادمة من السماء ونحترمها ونكرمها، غاية الأمر أنها ختمت بالدين الإسلامي، وهذا ما يتوجب علينا أن نبلّغه للعالم، وعلى أساسه نتعامل مع الآخرين بروح المواطنة.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٨.

آراء المفسرين في معنى ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ وفي ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾، للمفسرين عدة آراء.

الرأي الأول ـ أنه رفيقك في الدراسة:

وهذه من باب تطبيق المفهوم على مصاديقه، فالطالب يجلس مع طالب على كرسي واحد فيكون صاحبه بجنبه. فالمشرّع الإسلامي يأمر بأن تسود بينهما شريعة الأخلاق. فيجب أن أساعده وأنفعه بكلمة، وإذا بدرت منه حركة غير موزونة أرشده وأوجهه، لأن علاقة ما قد وقعت بيني وبينه ربطتني به، ويترتب على هذه العلاقة التزامات منها أن أحسن إليه. وعليه، فالمقصود به: شريكك في الدرس، وعلى هذا المعنى فتحنا أعيننا، ففي الحواضر الإسلامية التي تدرّس العلوم الإسلامية كالنجف مثلاً أو الأزهر الشريف أو قم أو العتبات المقدسة الأخرى التي فيها جاليات مختلفة تجد أن روّاد هذه المدارس يشتركون في الدروس والأكل والحديث، وتسودهم روح الانسجام والمحبة وطلب العلم والخلق.

الرأي الثاني ـ أنه شريكك في العمل:

كأن تكونا في معمل أو متجر أو ورشة، تشتركان في عمل واحد يربطكما بنوع من الارتباط. واللازم هنا ألا يكون تعاملكما جافاً خشناً، بل يجب أن يتسم بالمرونة والعطاء الإنساني، فهذا جارك بالعمل، وهو صاحبك بالجنب.

الرأي الثالث ـ أنه رفيقك في السفر:

وهو يتحقق حتى ولو كان سفركما لفترة قصيرة، إذ خلال هذه الفترة قد يحصل بينكما حديث وتعارف، فلا بدَّ حينئذٍ من أن تعامله كما رسم الإسلام لك بحيث إنك تترك أثرك فيه فيحمل عنك انطباعاً حسناً إلى الحد الذي لو تركته

معه فإنه سيشعر أنه قد افتقدك وما كان خلاف هذا فليس من خلق الإسلام في شيء، بل إن خلق الإسلام أن تعطي رفيقك في السفر كما تأخذ منه.

وكان السجاد عليه السلام إذا خرج في سفر مع قافلة انفرد عنها، ولما قيل له في ذلك أجاب بأن الناس يعرفون أنه ابن رسول الله وسوف يكرمونه لأجل النبي صلى الله عليه وآله بما لا يستطيع مكافأتهم بمثله، فلهذا ينفرد عنهم ولو تمكن من مكافأتهم بمثل ما أكرموه به لما انفرد عنهم.

وهذا هو الذي نريد أن نكون عليه في سفرنا: أن نعطي كما نأخذ لا أن نأخذ فقط. ومن غير اللائق أنك تجلس إلى جانب رفيق لك في سفر ثم لا تكلمه، بل لا بدَّ من مجاذبته أطراف الحديث وتجالسه على خوان واحد وتؤاكله، وهذا كله من الأعمال المحببة إلى الله[1].

الرأي الرابع ـ أنه الزوجة:

وربما يعترض معترض بأن الزوجة لا تحتاج إلى توصية للعناية بها، فهذا أمر فطري، فكل إنسان منسجم مع زوجته يعتني بها ويهتم بامرها، فكلاهما يكمّل الآخر، فما وجه توصية المشرّع إذاً؟ فنقول له: إنه ليس كل الأزواج منسجمين فضلاً عن أن البعض ربما يكون قد انخدع بزوجه، زيادة على أن هناك من الرجال من يميل بطبعه إلى التطليق، فهو إما من ملل يصيبه أو أنه مذواق، كما ورد أن النبي صلى الله عليه وآله سأل شخصاً عن زوجته فقال: يا رسول الله طلقتها وتزوجت غيرها، ثم سأله بعد فترة فأجابه بالجواب عينه، فقال له صلى الله عليه وآله: «إنك مذواق مطلاق»[2].

---

(١) وسائل الشيعة: ٢: ١٤٥/ ١٥٨٩٤.

(٢) البحر الرائق: ٢/ ٤١٢.

وهذا كثيراً ما يحصل، فالرجل بعد فترة من زواجه يبدأ الملل بالتسلل إليه فيهجر زوجته أو يلجأ إلى إيذائها، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[١]. لماذا؟ لأن المرأة خلال هذه الفترة قد أعطت كل ما عندها وأنت كذلك، فأيام الفضل والمودة بينكما موجودة فلا تنسياها، ولا تدعاها تذهب هباءً، هي أعطتك ما لم يظفر به أبوها منها وأنت كذلك. فلا وجه حينئذٍ لنسيان هذا: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾[٢].

والزوجة لا بدَّ أن تتصف بمواصفات معينة كي تستحق تلك التوصية والرعاية، جاء رجل لرسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله، أخطب المرأة الجميلة أو ذات الدين أو ذات المال؟ فقال ﷺ: «اظفر بذات الدين تربت يداك»[٣]، لأن ذات الدين يحملها دينها على رعاية زوجها وحفظ بيته في غيابه والتضحية من أجله، والزوج ينبغي أن يواجهها بمثل ذلك، لأنهما كليهما جزء النواة التي ستكوّن المجتمع الذي يصلح بصلاحهما ويفسد بفسادهما.

ودور الوصية هنا التذكير بما يجب لو طرأ على العلاقة نوع فتور أو تنافر، فإنه يجب مع ذلك ألا يضيع أحدهما حق الآخر. وربما كانت المشكلة هي أننا لم نلجأ إلى الحل من البداية، بل كان لجوؤنا إليه بعد وقوع المشكلة، ولو رجعنا إلى الآداب الإسلامية في اختيار الزوج والزوجة والتي يذكرها فقهاء المسلمين لاستغربنا من تطور الفكر الإسلامي في هذا المجال، ولوجدنا أن مكاتب الزواج التي أنشئت حديثاً في أوروبا ليست حديثة عهد في الإسلام بل هي معروفة ومقرّرة عنده منذ بدء نزول التشريع. ومن المواصفات التي وصفها الإسلام قوله ﷺ: «تخيّروا لنطفكم»[٤].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٣) الكافي: ٥: ٣٣٢/ ١.

(٤) دعائم الإسلام: ٢/ ١٩٩.

والبعض حينما يملك الثروة نراه يتزوج من بلد أوروبي مع أن حضارتهم غير حضارتنا، ومن هنا قد لا يحصل الانسجام، وأما زوال الفورة الجامحة التي دعتك إلى الزواج منها ترى أنك شيء وأنها شيء آخر مختلف تماماً، وعندها يحصل الطلاق، والمتضرر الوحيد هنا هم الأطفال. فلم هذا وأنت مسلم تعيش في بلد إسلامي، والله مكنك من التزوج ممن تحفظك وبيتك في غيابك، هذه المرأة التي تشترك معك في دينك وعقيدتك وعاداتك وتقاليدك وأخلاقك؟.

فالمقصود هنا: أن الإنسان يجب أن يختار من تلائمه في حياته كيلا يقع المحذور، فالعلاقة الزوجية ليست علاقة عابرة كي تتم بهذه الصورة، بل سيكون هناك رباط وأطفال بحاجة إلى تربية ورعاية وعناية وتوفير جو معتدل لهم يعيشون فيه مراحل حياتهم ودراستهم كي نعدّهم للحياة. فإن لم يجد الطفل هذا فإنه سيلجأ إلى الشارع، وما الذي سيجده في الشارع؟ سيجد مجاميع المجرمين والقتلة وباعة المخدرات، هؤلاء قتلة الخفاء وأصحاب معاول هدم الأسر. وهو داء عضال ينبغي عدم الإعانة عليه، وإلا فهل يرضى أحدنا بأن يرى أخاه يتلوى أمامه من هذا السم؟ فمسؤولية المجتمع ككل التعاضد من أجل محاسبة هذا الداء الوبيل ومجابهته بكل الوسائل، وأولى وسائل مجابهته حفظ البيت من قبل الأب والأم وعدم التفريط بهذه العلاقة، كي ينال الأطفال التربية الحقة: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1].

المبحث الثالث ـ أنواع المشي والاختيال فيه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[2]، المختال: هو الذي تحسّه

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٦.

يمشي على قلبك لا على الأرض، فهو بمشيه هذا كأنه يمزّق قلب من يراه، لأنه يخالف الأمر الإلهي، وهو بعكس: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾[١] وهو تعبير شفاف يصف عباد الرحمن دون عباد الهوى والغرائز والأنانية. فالمتكبر لا يعرف النبضة الإنسانية، والله بهذا يبغضه. فالاختيال إذاً يتعلق بحركة الجسم من مشي وتمطّ[٢].

أنواع المشي ودلالاته:

وقد بحث العلماء في هذا المجال الذي أطلقوا عليه اسم (علم الحركة الجسمية) أو (كنسج) كما يسميه بيير ووسل في كتابه الذي يحمل الاسم نفسه أي علم حركة الأجسام، والذي صدر عام (١٩٥٢م) والمشي له دلالات بحسبه:

١ ـ مشية الشيخ، قال الشاعر:

زعمتني شيخاً ولست بشيخٍ   إنما الشيخ من يدب دبيبا[٣]

وقال آخر:

حنتني حانيات الدهر حتى   كأني خاتل أدنو لصيد

قريب الخطو يحسب من يراني   ـ ولست مقيداً ـ أني بقيد[٤]

أي لتقارب خطاه تحسبه مقيّداً، فهذه مشية الشيخ.

المأمون يعرف آثار الخمرة على الإنسان:

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.
(٢) قال تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾.
(٣) العين: ١/ ٣٦٦ ـ زعم.
(٤) أمالي الطوسي: ١/ ٣٥.

٢ ـ مشية السكران، وصاحبها يترنح فيعرف بها أنه كذلك. دخل أحدهم على المأمون وأنشده:

إذا ما احتساها شارب ذو صبابة   تمشت به مشي المقيد بالوحل[١]

فالتفت إليه المأمون وقال: يريبني وصفك لها. فقال له: ويريبني معرفتك بها. أي يبدو وأنك تعرفها.

٣ ـ مشية الرمل: يروى أن النبي ﷺ لما أراد العمرة مع أصحابه قال لهم: «إذا أردتم المرور بين الصفا والمروة فأرملوا»[٢]، أي اركضوا.

والسبب في ذلك أن قريشاً قالت: إن محمداً وأصحابه عندما ذهبوا إلى المدينة مرضوا ـ حيث إن في المدينة حمّى ـ واصفرت وجوههم، فنستطيع القضاء عليهم.

فأراد لهم ﷺ أن يظهروا قوّتهم للمشركين، وأن يبين لهم أنهم على خير ما يرام.

وقد ذكر الفقهاء أن الشخص يستحب له أن يرمل عند السعي[٣]:

٤ ـ مشية الخبب، وهي كمشية الخيل إذا أسرعت في السير.

٥ ـ مشية الخيزلى، وهي مشية فيها تكسّر كمشية النساء.

٦ ـ مشية الهيذبى، وهي التي يهذب فيها[٤]. قال أبو الطيب في مقصورته:

ألا كل ماشية الخيزلى   فداء لماشية الهيذبى

---

(١) لمشي المقيد أسماء كثيرة ذكرها صاحب لسان العرب منها الكروس: ٦/ ١٩٦.

(٢) منتخب مسند عبيد بن حميد: ٢١٩/ ٦٥٥.

(٣) النهاية (الطوسي): ٢٤٥.

(٤) تاج العروس: ١/ ٥١٣ ـ هذب.

فمشية الخيزلى مشية تتكسّر كمشية النساء، وهو ما يحاول أن يتظاهر به بعض الشباب الذين حيثما تنظر إليهم تبكي الرجولة الضائعة عندهم، وكأنه قد نسي أنه يجب عليه أن يجعل نفسه فيما أعطاه الله من صفات لا فيما أعطى المرأة منها، وقد قال رسول الله ﷺ: «لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال ولعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء»[1].

فكما نجد ذلك عند الرجال نجده عند النساء اللواتي يرتدين البناطيل ويركضن أمام الرجال في المنتديات والشوارع، فأين العفة أيتها المرأة المسلمة؟ أنسيتِ أن جمالك في عفافك لا في مظهرك؟.

وهاتان الكلمتان الواردتان في مقصورة المتنبي إنما وردتا في أروع قصيدة، وصاحبه لا تنكر شاعريته، لكن ببالغ الأسف أقول: إننا لا نكرّم أدباءنا ولا نضعهم في مواضعهم التي تليق بهم، مما يضطرهم ويلجئهم إلى التكسّب بالمدح، فيمدحهم الجبابرة يحصلون على لقمة عيشهم، أما لو ترفع عن المدح فإنه لا يحصل على لقمة الخبز أبداً، ورحم الله القائل:

وما عكفت بقرباني على صنم ... أكرمت شعري لأهل البيت قربانا

فالعلم والأدب حريان بأن يكرما.

فكل نوع من أنواع المشي يدل على شيء كما يقول بيير ووسل. كدلالته على الشيخوخة أو الرجولة أو الأنوثة أو على قضايا فسلجية أو نفسية.

ابن القيم يقسم المشي إلى عشرة أقسام:

وهذا ليس بجديد على تاريخنا، فقد تعرّض له علماؤنا في مؤلفاتهم، فابن قيّم الجوزية في كتابه (زاد المعاد)[2] يقسم المشي إلى عشرة أقسام، وكل قسم

---

(١) الكافي: ٥: ٥٥٢/ ٤.

(٢) زاد المعاد: ١/ ١٦٨ ـ ١٦٩.

له دلالته الخاصة، ومنها الاختيال، وهو منهي عنه إلا في الحرب، رأى الرسولﷺ أبا دجانة الأنصاري في إحدى المعارك يختال بمشيته، فقال: «إنها لمشية يبغضها الله ورسوله إلا عند القتال في سبيل الله»[١]. والسبب في محبوبيتها هنا أنك توحي بها لأعداء الإسلام عدم اكتراثك بهم، وهذا دليل القوة، قال المعرّي:

سر إن اسطعت في الهواء رويداً   لا اختيالاً على رُفات العبادِ

خفف الوطء ما أظنّ أديم الـ   أرض إلا من هذه الأجساد[٢]

فأنت بمشيتك الخُيلائية وتصعير خدّك إنما تدوس على خدود من سبقك إلى رمسه، خدود كريمة دفنت تحت التراب، وكلنا سيذهب إلى التراب. هذه هي الحقيقة المرة المؤلمة، فالمتكبر المتعجرف يقال له: لا تمشِ على رؤوس الناس بهذا النوع من الاختيال، بل امشِ رويداً رويداً: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[٣]، وآية أخرى تقول: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ۝١٩﴾[٤].

إذاً الاختيال هو عبارة عن المشي الذي يعبّر عن تيه وصلف وتكبر، والمفسرون يربطون بين عقب الآية وصدرها، ويقولون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[٥] يعني أنه تعالى أمر بمعاملة الجار باللطف والإنسانية ونهى عن أن يكون المرء مختالاً فخوراً متكبراً على الناس ومنهم جاره.

---

(١) الكافي: ٥: ٨/ ١٣.
(٢) سقط الزند: ٩٧٤ ـ ١٩٧٥.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.
(٤) سورة لقمان، الآية: ١٩.
(٥) سورة النساء، الآية: ٣٦.

المبحث الرابع ـ الجوار جواران/ عفوي ومتعمّل:

وبعد الإلمام بمكارم الأخلاق في الآية نرجع إلى الجوار: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ ما معناه؟ الجوار جواران: جوار عفوي، وجوار فيه تعمّل.

فالجوار العفوي أن يأتي أحد ويشتري بيتاً بجانبي فيصير بذلك جاري، أو يشتري قطعة أرض بجانب أحد فيصير جاره، فتترتب له وعليه حقوق الجوار.

أما الجوار الذي فيه تعمل فهو أن يستجير بك أحد فيقول لك: أنا مطلوب أو معرّض لخطر وبيتك فيه أمان لي. وهذا المعنى يضمنه الإسلام حتى للمشركين: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[1] فحتى لو كان هناك مشرك يستجير بالمسلمين فإنه يتعين على المسلمين أن يجيروه ويوفروا له الأمان ويدعوه إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، فإن قبل منها وإن لم يقبل فلا يُساء إليه وإنما يخرج للمكان الذي يأمن فيه، فالمشرك إذا طلب أن يجار فإنه يجار، فما بالك بمسلم يطلب أن يجار؟ فهذا يجب أن يجار بطريق الأولوية، وهذا المعنى عريق في حضارتنا وليس بجديد، فتاريخنا مليء بالمفاخر، والذين يستجار بهم يموتون دون المستجير هم وأطفالهم وعيالهم، ويضحون بأموالهم، وهذه كانت سيرتهم، وهو خلق في صميم تاريخ العرب ونفوسهم. فحماية الجار من الأمور الاجتماعية المتعارفة عند العرب. بل إنه حتى الذي يعيش بين أظهرهم يتخلّق بأخلاقهم، يقول السموأل:

تعيرنا أنا قليل عديدنا ... فقلت لها إن الكرام قليل

وما ضرنا أنا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليل

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦.

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه　　فكل رداء يرتديه جميل

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها　　فليس إلى حسن الثناء سبيل

إذاً، الجوار معنى عريق في حضارتنا، وعندما جاء الإسلام أكّد هذا المعنى وركّزه في النفوس، وأعطى للجار حقوقاً كثيرة، وانطلاقاً من هذا المعنى نلاحظ أن مسلم بن عقيل لما دخل إلى الكوفة ذهب إلى بيت المختار بن أبي عبيد ونزل عنده، وعندما اشتدت الأزمة وبدأ الوضع يصل إلى مرحلة الجد، رأى أن المكان غير مناسب فذهب إلى دار هاني بن عروة، فكان أن أحسن جيرته وضيافته. وهانيء صحابي وقد عُمّر (٨٩) سنة وكان من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام في غزواته وحروبه، وهو يزار اليوم كما يزار باقي الشهداء، وله زيارة خاصة ضمن أعمال مسجد الكوفة، مما يدل على أن له موضع رضا واعتزاز عند أهل البيت عليهم السلام والحسين عليه السلام ترحّم عليه ثلاثاً عندما بلغه مصرعه، وكان رئيس مراد، وهي قبيلة من القبائل الضخمة في الكوفة، وهم لم يتخلوا عنه، لكن المصيبة أن شريحاً القاضي قد خدعهم، فهم عندما سمعوا بخبره حاصروا القصر. وجاء عمرو بن الحجاج ـ وعنده ابنته رويحة زوجة هاني ـ وقال له: هذه شيوخ ورؤساء مذحج، ونحن لم نترك جماعة ولم نخلع يداً عن طاعة، وقد بلغنا أن صاحبنا قتل. فالتفت عبيد الله بن زياد إلى شريح وقال له: اذهب إليه[١]. (القصة).

الإيمان قيد الفتك:

ومنذ دخل عبيد الله بن زياد إلى الكوفة أخذ في مراقبة هاني، وعرف أنه لا يختلف إلى المجلس، فقال: ما لي لا أرى هانئاً؟ حيث كان هاني منشغلاً هو

---

(١) مثير الأحزان: ٢٣.

وبعضاً من أصحابه في مبايعة مسلم وشراء الأسلحة والتهيؤ لقتال الأمويين، وكان عنده شريك بن الأعور الهمداني وقد جاء من البصرة مع عبيد الله بن زياد، فمرض فنزل في دار هاني بن عروة أياماً، ثم قال لمسلم: إن عبيد الله يعودني وإني مطاوله الحديث فاخرج إليه بسيفك فاقتله وعلامتك أن أقول: اسقوني ماء، ونهاه هاني عن ذلك.

فقالوا له: إنه مريض وبه وعكة، فقال: أنا ذاهب إليه، فقالوا له: إن شريكاً مريض. فقال أعود شريكاً وهانئاً. فذهب ليعودهما، فلما دخل عبيد الله على شريك وسأله عن وجعه وطال سؤاله، رأى أن أحداً لا يخرج، فخشي أن يفوته. فأخذ يقول:

ما الانتظار لسلمى أن يحييها كأس المنية بالتعجيل اسقوها[١]

فكان شريك يتصور أن هذه فرصة يضرب بها مسلم عنق ابن زياد، لكن هذا الأسلوب يرفضه أهل البيت عليهم السلام فليس أسلوب الرجال الغدر والطعن في الظهر بل هو أسلوب الجبناء الذي يأبونه عليهم السلام قيل للإمام علي عليه السلام: إنك تشتري درعاً للصدر فقط، وليس درعاً كاملاً، أفلا تخاف أحداً أن يطعنك من الوراء؟ قال: «إذا مكّنت عدوي من ظهري فلا أبقى الله عليه إن أبقى علي»[٢].

فأنا أواجهه وجهاً لوجه ولا أهرب من أحد، ولا أتبع هارباً، ولذا احتج مسلم بقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «الإيمان قيّد الفتك»[٣]، حينما طلب منه قتل عبيد الله غدراً. وكان أن خرج مسلم قبل الموعد المحدد للنهضة بسبب الظروف

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٢٤٢.
(٢) المستطرف في كل فن مستظرف: ١/ ٤٧٣.
(٣) تهذيب الأحكام: ١٠: ٢١٤/ ٨٤٥.

التي مرّ بها، لأنه التفت وراءه بعد الصلاة فوجد خلفه ثلاثمائة شخص لا تربطه بهم رابطة عقد بيعة، ونحن لا نلقي باللوم على عواتق قوم لم يفعلوا شيئاً.

مصرع مسلم بن عقيل رحمه الله:

على أية حال قبض على مسلم في نهاية المطاف في دار طوعة وجيء به إلى عبيد الله بن زياد، فدخل ساكتاً، فقال له الحرس: سلّم على الأمير. فقال له: اسكت ويحك، ما هو لي بأمير. فالتفت إليه عبيد الله وقال له: سلّمت أم لم تسلم فأنت مقتول: فقال له مسلم: وإني لأرجو أن يرزقني الله الشهادة على يدي شر خلقه، فإنك لا تدع سوء القتلة وقبح المثلة ولؤم وخبث الطوية لأحد أولى بها منك. فقال له: يا عاق يا شاق، أتيت فخرجت على طاعة إمامك وألقحت الفتنة. فقال له: الفتنة ألقحها أبوك عبد بني علاج، والذي شق عصا المسلمين معاوية وابنه يزيد. فقال له: منتك نفسك أمراً حال الله بينك وبينه وجعله لأهله. قال: ومن أهله؟ قال: أهله أمير المؤمنين يزيد. قال: رضينا بالله حكماً بيننا وبينكم. قال: أو تظن أن لك في الأمر شيئاً؟ قال: ما هو بظن، ولكنه اليقين.

فأخذ يشتم مسلم بن عقيل ويبهته، فقال له مسلم: يا عدو الله اقضِ ما أنت قاض. فأمر عبيد الله(لع) بكر بن حمران أن يصعد به أعلى القصر ويرميه من فوقه. وكان مسلم موثق اليدين، فطلب منه أن يمهله حتى يصلي ركعتين، فصلاهما ثم توجه إلى زرود ـ وكان فيها الحسين وآل عقيل ـ وصاح: السلام عليك يا أبا عبد الله، إن ابن عمك بين أيدي القوم. يقول المؤرخون إن الحسين عليه السلام قام وقال: «وعليك السلام يا غريب كوفان». ثم ضُرب بالسيف فلم تعمل الضربة فيه. ثم ضرب ثانية فسقط رأسه عن بدنه وألقي ببدنه من أعلى القصر:

المكدر گضه وضاعت أخباره رموه الگوم من گصر الأماره

هاني انجتل بعده وبكت داره مظلمه ولا بعد واحد يصلها

وكان آخر عهد الحسين عليه السلام به أن جاء أعرابي إلى خباء علي الأكبر، وهم في الطريق، فسأله: ماذا تريد؟ قال: أريد خباء الحسين ثم أقبل به إلى الحسين عليه السلام، وكان جالساً بين آل عقيل، قال: أبا عبد الله، إن عندي لخبراً، إن أحببت أن أحدّثك به سرّاً، وإلا جهراً، فقال الحسين عليه السلام: «ما دون هؤلاء سر». قال: أبا عبد الله، عظم الله لك الأجر بمسلم، لقد خلّفته يجرّ في الأسواق، وينادى عليه. هذا جزاء من عصى الأمير. فقام الإمام مختنقاً بعبرته، فتلقّته يتيمة لمسلم وتعلّقت بثيابه.

يا بويه عن الأهل وينك حال البعد بيني وبينك

من غبت لسه ناطرينك ما غفت عيني وحگ عينك

* * *

لم يُبكِها عدم الوثوق بعمها كلا ولا الوجد المبرّح فيها

اليوم الخامس

المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

كل مجتمع من المجتمعات يخضع للسنن الطبيعية، حيث يوجد فيها الطيب والأوسط والمتردي، وهذه يقتضيها العلم والعقل، والتطبيقات التاريخية قائمة عليها. أما الذي يقول: إن الذي عاصر الرسولﷺ ولو لدقيقة واحدة فهو لا يصدر منه ذنب، ولا يصح عليه ذم، فهذا كلام غير علمي. نحن لا نريد أن ترمينا المجتمعات الخارجية بالبلاهة، فيقولون لنا: إذا كان من رأى النبي فهو معصوم، فلماذا قامت قيامتكم على اعتقاد بعضكم باثني عشر معصوماً، فأنتم لا تقولون بالعصمة؟ إن هذا المجتمع الذي عاصر النبيﷺ له كرامة ومنزلة، ويتعين علينا أن نوقّره، لكن علينا أن نقيّمه، فالقرآن وضع المنهاج فقيّم الطيب

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٠.

وغير الطيب، وقيم الذي يعمل العمل الصالح والذي لا يعمل العمل الصالح، فلا نبتعد عن منهاج القرآن والسنة والعقل.

المبحث الأول ـ حول مسألة شتم الصحابة:

فهذه هي إحدى المشاكل في تاريخ المسلمين، فمثلاً مجلة لأحد المذاهب الإسلامية تصفنا بأنا كفرة حيث إننا نشتم الصحابة. ونقول: نحن لا نشتم الصحابة، وليلاحظوا تاريخ التشيّع منذ أن تبرعم في الأذهان وإن رأينا أن علي ابن أبي طالب عليه السلام أفضل الصحابة، ونحن نحترم الآخرين وإنجازاتهم، فنحن لم نشتم، فالذي بدأ بالشتم هم الأمويون حيث شتموا الإمام علياً عليه السلام ثمانين سنة وقد عُدّت المنابر بـ(٧٠) ألف منبر كان علي بن أبي طالب عليه السلام يُشتم عليها[١].

وقد يقول قائل: هناك طبقة مارقة هي التي تشتم.

فنقول: هؤلاء لا كلام لنا معهم، ولكن لنا كلام مع كل فقيه مسلم لا يقول: هؤلاء مارقون، بل يحترمهم ويقول هؤلاء خلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله ويعطيهم مكانة، مع أنهم يشتمون علي بن أبي طالب عليه السلام ويمجّدون قاتله، فهل ترى أن هذا مما لا يشكل عندنا ردة فعل؟ فردّ الفعل جعل البعض يشتم، وإلا فإن الشتم ليس من خلقنا[٢]، وإنما نحن نقيّم الآخرين، فالقرآن الكريم يقول: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾[٣] و﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾[٤] و﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾[٥]، والسنة النبوية تقيّم، وهذا هو

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ٣/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠.
(٢) نهج البلاغة ـ الكلام: ٢٠٦.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٩٨.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٩٧.
(٥) سورة الحشر، الآية: ٢٠.

المنهاج العلمي، فالقرآن يبين لنا حقيقة الشرائح في المجتمع الذي عاصر النبي ﷺ.

المبحث الثاني ـ وقفة مع أهل النفاق والذين في قلوبهم مرض:

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ المنافقون الذين يبطنون ما لا يظهرون ويبتغون الغوائل عند المسلمين. وهم شريحة كبيرة في المدينة، وكان النبي ﷺ يراهم ويعرفهم، لكنه كان لا يريد فتح جبهة داخلية، حيث إنه ﷺ كان مشغولاً بالجبهات الخارجية وقتال المشركين، فإذا فتح ثغرة في الداخل فإن وضع الإسلام يتغير، ولذلك سكت على مضض، فكان ﷺ يعطيهم الأموال، وهم المؤلفة قلوبهم، حيث كان يعطيهم من سهم الزكاة، ويروى أن عمر بن الخطاب قال له: نحن ديننا قوي، وإنما كنا نجامل هؤلاء، فلماذا نعطيهم الآن؟ فأجابه النبي ﷺ بأن الهدف أبعد من إسكات هؤلاء.

فالمنافقون شريحة كبيرة في المدينة، ولهم دور كبير في تخذيل المسلمين، ونحب أن نشير هنا إلى نقطة، وهي أنه إذا كان دين الدولة الإسلام، فهل هذا الدين شعار على الصدر، أو أنه تطبيق عملي؟ فعندما أقوم بفتح مؤسسات إلحادية وأسمح لفئات إلحادية بالتحرك بكامل حريتها، وأعطيها حق التصرف ضمن الدولة الإسلامية، كي أعطي الشعب حريته ويكون ديمقراطياً، ثم أقول: هذا المجتمع إسلامي، فهذا يعد خطأ، فالإسلام يقول: إن الذي يريد أن يحتفظ بعقيدته داخل نفسه فليحتفظ، لكن لا يظهر الكفر. أما الذي يريد أن يلحد ويخرّب الدين باسم الديمقراطية والحرية، فهذا غير مسموح له، لأن فيه اعتداء على حرية الجميع، وعلى عقيدة الجميع.

والنقطة الأخرى أن البعض يقول: إن دين الدولة الإسلام ثم يعمد إلى فتح خمّارة أو مؤسسة باسم الفن للمتاجرة بالجسد العاري. فكيف يجتمع الإسلام

مع هذه الأشياء التي تنخر المجتمع والعائلة والعز والأخلاق؟ فهذا لون من النفاق، فهو يظهر مالا يبطن، فهذه ـ دين الدولة الإسلام ـ تقال ولا تطبق.

وإن الذي يفعل هذا إنما يهزأ ويسخر، ولا سخرية في العقيدة الإسلامية، فإن الله جل وعلا أراد بهذه العقيدة صلاح الأمة وصلاح المجتمع، فهو عز وجل عندما فرض على المسلمين أن يكونوا متوحدين في ظل دين الإسلام، لم يرد أن عليهم فتح ثغرات فيه.

﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وهم شريحة معاصرة للنبي ﷺ، وهؤلاء كانوا يتربصون الدوائر بالنساء، فليلاحقونهن للاعتداء عليهن. أما كيف ذلك فالمعروف أن العرب كانوا يستقذرون وجود الكنيف داخل بيوتهم، فكانوا يقضون حوائجهم خارج البيت، تقول الآية: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَآئِطِ﴾[1]. فالغائط هو المنحدر، وإنما سمي به ما يخرج من الإنسان من باب تسمية الحال باسم المحل. فالمنحدر الذي يتوارى فيه عن أعين الناس يسمى غائطاً[2]، وإنما كانوا يستقذرون وجود الكنيف داخل بيوتهم، لانعدام الوسائل الصحية المعروفة اليوم والتي تمنع حصول الرائحة وما شاكل. أما النساء فيخرجن غالباً إلى الغائط عند الغروب أو الليل، فكان هؤلاء يتربصون الدوائر منذ خروج المرأة لقضاء حاجتها فيلاحقونها للاعتداء عليها. وكانوا يتخذون ذلك تسلية، بل وفي كل مكان بحيث يصل الحد إلى أن يقول أحد شعرائهم:

يا حبذا قلة من منزل ... وحبّذا الكعبة من مسجدِ

وحبذا اللائي يزاحمننا ... عند استلام الحجر الأسودِ

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٣.

(٢) الصحاح: ٣/ ١١٤٧ ـ غوط.

فهو يلاحق المرأة حتى في الكعبة. فهؤلاء الشريحة هم ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، فالذي لا يملك غيرة على زوجة جاره وعرضه لا غيرة له، وفي الحديث النبوي: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[١]. فالإيمان يمنع الزنى، وهؤلاء مرضى، والمرض الخلقي أخطر من المرض الجسدي، فالمرض الجسدي قد لا يكون سريع العدوى، أو تكون العدوى محدودة، أو لا يكون معدياً أصلاً، بخلاف المرض الخلقي الذي تكون عدواه كبيرة، وينتشر في المجتمع بسرعة.

هل المنافقون ومرضى القلوب والمرجفون فئة واحدة؟

نلفت نظرك إلى نقطة وهي أن للواو في: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ﴾ رأيين عند المفسرين:

الرأي الأول: أنها عاطفة، والعطف يقتضي التغاير، فالمحصلة أن هناك ثلاث فئات، وهذا هو الرأي الصحيح.

الرأي الثاني: أنها مقحمة، أي ليس لها معنى، فيصير: ﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ و﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ و﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ﴾ كلهم فئة واحدة، لكن لهم صفات ثلاث.

لكن! إقحام الواو يتسبب في إثارة الكثير من التساؤلات والمشاكل في الآيات، كما وقع بين أبي الدرداء وبعض الصحابة مع معاوية، حيث كان معاوية بعد الواو في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ

(١) الكافي: ٢/ ٣٢، ٥/ ١٢٣.

ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾[1] مقحمة حيث تصبح: إن كثيراً من الأحبار والرهبان الذين يكنزون الذهب والفضة، والواو تكون حينئذٍ لا معنى لها، فيخصص نزول الآية في النصارى فقط، في حين أنها عامة في كل من يمنع الزكاة. فأراد معاوية بهذا أن يقذفها على اليهود والنصارى، ويبرّىء ساحة المسلمين من أي شيء إن لم يدفعوا الزكاة، ولذلك اختلف بعض الصحابة معه.

فالقول بأن الواو مقحمة غير مقبول، لأن القرآن منزّه عن الزيادة، ولذا فإن الإقحام غير وارد إطلاقاً، والواو هنا للعطف.

المبحث الثالث ـ من هم المرجفون؟:

بعد هذه المقدمة نرجع للآية: ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾، وهم باصطلاحنا المعاصر الرتل الخامس[2]، وهم كالعث داخل جسم المسلمين، ووظيفتهم التخذيل والتوهين، حين يشيعون أن جيش المسلمين قد انهزم، أو أن النبيﷺ قد قتل، كما حدث في يوم أحد حيث صاح أحدهم: (قتل محمد)، و: جاء جيش المشركين من هنا.

وهناك قسم آخر منهم حاول أن ينعت أهل الصفة ـ وهم مجموعة من الصحابة ليس لهم قدرة مالية على أن يشتروا بيوتاً أو يتأهلوا. فلذلك وصفهم النبيّﷺ في الصفة (وهي طارمة المسجد، وكانت مسقوفة بالبواري). وكان المسلمون يأتونهم بالطعام ـ بأنهم هم الذين في قلوبهم مرض. فأشاعوا أنهم يلاحقون النساء، كما نشروا إشاعات أخرى لإحداث الانهزام النفسي عند المسلمين. ولإضعاف المناعة عندهم بعبارات مثل: أسلحتكم محدودة، وطاقاتكم محدودة، وإن عدوكم أقوى منكم. وهكذا كانوا يبثون الدعاية.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

(٢) أو الطابور الخامس، وأول من استعمله هتلر، وذلك أنه أطلقه على الجواسيس ورجال المخابرات والاستخبارات الموجودين في ألمانيا آنذاك.

المرجفون وقضية الإفك وموقف الأمير ﷺ منها:

كما كانوا قد لعبوا دوراً خطراً في قضية الإفك، وهي حادثة عائشة زوجة النبي ﷺ بعدما حملها صفوان، وبدأت الألسن تلوك عرض النبي ﷺ. وكان أن حاول البعض استغلال ذلك الموقف بما يتماشى مع نفسيته، حيث نسبت في ذلك أقوال للصحابة، ومنها أنهم نسبوا للإمام علي ﷺ حينها أنه حينما بعث إليه النبي ﷺ وكلمه حول ذلك قال له الإمام ﷺ ـ حسب ما يدعون ـ: «النساء كثير»[1]. أي بوسعك أن تطلّقها وتتزوج غيرها. وهذا ليس من خلق الإمام ﷺ. فنحن نعرف معدن الإمام، والدليل على ذلك أنه دخل بين جبلين من الجثث في واقعة البصرة حتى جاء إلى هودج عائشة وهو في ذلك الجو الانفعالي، وقال لها: «ما أنصفك الذين أخرجوك من بيتك إذ صانوا حلائلهم وأبرزوك»[2].

ثم وضع لها بيتاً وعشرين خادمة، فتأمل النبل.

فالإمام علي ﷺ لم تصدر منه هذه الكلمة أبداً، وما زنت زوجة نبي قط وهذه كتبنا وعقائدنا، فائتِ بواحد من الشيعة يتهم زوجة نبي! والأربعة الذين رووا حادثة الإفك هم من غيرنا. ومع ذلك يتقولون علينا ويتهموننا بأننا نتطاول على أم المؤمنين، فما معنى هذا؟ هل نتهم عرض النبي ﷺ؟ طبعاً لا، أما إنها خرجت على إمامها وقاتلته فنعم، ونحن نقول الواقع، فالذين تخلّفوا عن أداء جزء من الحقوق الشرعية قاتلهم أبو بكر واعتبرهم الخصم مرتدين، ونحن نقول: التي تقاتل إمامها، بمَ يمكن أن نصفها؟ وكيف يمكن أن نعتبرها؟ ولا تقل: تابت، لأن هذا شيء آخر.

---

(١) مجمع الزوائد: ٩/ ٢٣٦.

(٢) شجرة طوبى: ٢/ ٣٢٤.

والخلاصة أنه لا يوجد مسلم يؤمن بالله ورسوله يتجرأ على قذف عرض النبي ﷺ، فعرضه منزّه البتة.

فهؤلاء المرجفون في المدينة كانوا شريحة كبيرة، وكانوا يستخدمون حرب الإشاعات التي تعتمدها الآن الدول المتحضرة. وقد قرأت إحصائية في بعض كتب التفسير أن إسرائيل عندها (٨٩٠) مؤسسة للإشاعة والإعلام، فالإشاعة تلعب دورها في تحطيم الإنسان. وقد تجد وضيعاً ينشر رواية أو نظرية تمجّد صنماً أو تسقط الآخرين.

فهذه الشرائح الثلاث المعاصرة للرسول ﷺ ـ ومنهم المرجفون الذين هم أهل الإشاعات وبث التفرقة وإهدار كرامات الناس، ومحاولة الإطاحة بعلاقاتهم وبهم ـ ألا يجب أن نقيمها؟ نحن نتّبع منهاج القرآن ومنهاج الرسول ﷺ في تقييم هؤلاء وغيرهم، ولذلك فإننا عندما نقرأ: «إن خير القرون القرن المعاصر للنبي ﷺ ثم الذي يليه فالذي يليه»[1] فإننا نرفض هذا، إذ إن في هذا القرن يوجد مؤمنون، وهم نعمة من الله، ويصعدون لمستويات عالية من الشرف، وكذلك يوجد ملحدون ومنافقون، فهل من اللائق وضع هؤلاء في مصافّ أولئك المؤمنين؟

ثم قالت الآية: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾، أي أنت مهادنهم الآن للمصلحة العامة، أو ما نسميه بقاعدة «دفع الأفسد بالفاسد»، مثلاً أعرف أن لا ولاية لأحد على أحد، لكن أحياناً أتنازل عن شيء من حريتي للمصلحة العامة، فدفعت الأفسد بالفاسد، لأن القاعدة تقول: إن ذلك متعين، فالفاسد أهون من الأفسد، فالقرآن يقول للنبي ﷺ: أنت جاملتهم وهادنتهم من أجل دفع الأفسد بالفاسد، لكن هؤلاء إذا لم ينتهوا عما هم فيه لنغرينك بهم. وفعلاً قد أغراه

---

(١) سنن أبي داوود: ٢: ١٧٩/ ٣٦٥٩.

القـرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[(١)]، و﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾[(٢)].

فسارع النبي ﷺ إلى الإعلان عن استعمال القوة مع هؤلاء، لا سيما أن المسلمين قد اشتدت شوكتهم وتنامت قوتهم وزاد عددهم، وأصبح عندهم سلاح، فكان أن خاف هؤلاء وسكتوا.

المبحث الرابع ـ حول الاستثناء في قوله ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾:

﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هذا الاستثناء هل هو واقع على الزمن، أم على العدد؟

والجواب أنه واقع على العدد، أي لا يجاورك في المدينة إلا القليل منهم، حيث إنه سيبقى منهم أفراد قليلون، ومعنى بقاء عدد قليل منهم في المدينة أن الآخرين الخارجين سوف يتعرضون للعذاب عند خروجهم، فالخارج من بلده يتعرّض إلى الألم والعذاب، ومن لا وطن له لا وجود له، إذ إنه سيكون عرضة للإذلال وللكلام الخشن النابي، ولذلك كان الجهاد حتى دون الشبر من الأرض متعيناً، غير أن البعض لا يملك هذا الحس:

من يهن يسهلِ الهوان عليه:

فنجده ينسى وطنه وترابه، والحال أن الخروج من الوطن كخروج الروح من الجسد، ومن العقوبات التي توقع بالجناة التغريب، أي نفيهم خارج البلد، فيعيشون في حالة صراع نفسي وحنين دائب إلى وطنهم، فالوطن ليس تراباً فقط، بل هو عواطف ومشاعر تشدك إليه وتجعلك تحنّ له.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦١.

المبحث الخامس ـ الجوار وأقسامه في واقع العرب والمسلمين:

﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ أي يخرجون، والقرآن نعتهم بالمجاورين، فكيف يتحقق الجوار هنا؟ وما حدّه هناك ثلاثة آراء:

الرأي الأول: أنه أربعون داراً، واستدلّوا عليه بأن رجلاً دخل على النبيﷺ وقال: أنا جاورت جماعة، لكن كان أقربهم إليّ وأشدهم أذى عليّ. فقال النبيﷺ لأصحابه: توزعوا على المساجد وقولوا: «إن أربعين داراً جار، وأنه لا يؤمن بالله ورسوله من لا يأمن جاره بوائقه»[1].

أي أنه ﷺ حدّد الجوار بـ«أربعين داراً». والبوائق: الأذى. فجارك مثل عرضك، وكان هذا المعنى متأصلاً في حضارتنا العربية قبل الإسلام. ولما جاء الإسلام دعمه وأمضاه. لكن هذا الرأي «أربعين داراً» يبقى بعيداً عن الواقع وإمكان التطبيق نوعاً ما.

الرأي الثاني: أنه مدى الصوت، وهو مروي عن الإمام عليعليه السلام بقوله: «إن من يبلغه الصوت فهو جارك». بحيث إنك إذا صحت سمعوك، فهؤلاء هم جيرانك.

الرأي الثالث: إن جارك هو كل من يسكن معك في مدينتك. وأقرب الآراء هو «من يبلغه الصوت». فهذا الجار له أن تستر عورته، وتقضي حاجته، وألا تعرّضه إلى ضرر معتدّ به غير متعارف عند الجيران، فمثلاً مجاري تصريف المياه الموجودة في بيتك لو سبّبت الرطوبة لبيت جارك، فهذا ضرر غير معتد به، أما لو وضعت جداراً أمام بيته ومنع الشمس والهواء عنه وسبّب التسلّط عليه وعلى عائلته، فهذا ضرر معتد ولا بدّ من رفعه.

---

(١) الكافي: ٢: ٦٦٦/ ١.

وهناك حقوق للجوار أبسطها ـ كما يعبر عنه الرسول الأكرم ﷺ ـ «ألا تؤذيه بقتار قدرك»[١]. أي رائحة الطبخ التي تنتشر في بيتك، وجارك جوعان فقير، يقول حاتم الطائي:

سلي الطارق المعترّ يا أم مالك ... إذا ما أتاني بين ناري ومجزري

أأبسط وجهي إنه أول القرى ... وأبذل معروفي له دون منكري[٢]

فأخلاق الإسلام تأمرنا ألاّ نبيت شبعين وجيراننا جياع.

أحمى من مجير الجراد:

وكذلك من حقوق الجار توفير الحماية له، وهذا المعنى متأصل في شبه الجزيرة العربية، فالذي يبني خيمة بجانب أحد فإنه قد جاوره ـ أي أخذ ضماناً بالحماية، لأنه جاره ـ ووصل الأمر إلى حماية الجراد كما في قصة مدلج بن سويد المشهورة بمجير الجراد، والذي ضرب به المثل بذلك فقيل: أحمى من مجير الجراد. وكان قد وقع جراد قرب خبائه، وجاء قوم ليصيدوه، فتقلّد سيفه وأخذ رمحه وركب فرسه، ثم خرج إليهم قائلاً: أيكون الجراد في جواري وأنتم تريدون أخذه؟ لا يكون ذلك. ولا يقتل أحد جاري والسيف في يدي، فلم يقترب أحد، ثم قال: إن طار عن جواري فافعلوا ما بدا لكم. فما زال يحرسه حتى حميت الشمس عليه وطار. فقال: شأنكم الآن، فقد تحوّل عن جواري[٣].

فهذا الرجل عنده أن حماية الجار أهم مبدأ في حياته، بل وأهم من حياته. ولما جاء الإسلام دعم هذا المعنى وعززه.

---

(١) كنز العمال: ٩: ٥٨/ ٢٤٩٣٥، ١٨٥/ ٢٥٦١٣.

(٢) تاريخ مدينة دمشق: ٢٧/ ٢٩٣.

(٣) الكنى والألقاب: ٣/ ١٥٢.

المبحث السادس ـ مصرع مسلم بن عقيل:

وفي مثل هذه الليلة جاء مسلم بن عقيل ـ لما بعثه الإمام الحسين ثقة منه ببطولته وخبرته ـ وحيداً ومعه اثنان، ونزل في دار المختار بن أبي عبيد، فكتب يزيد إلى عبيد الله بن زياد: أما بعد، فإن أنصاري في الكوفة قد كتبوا إليّ أن مسلم بن عقيل دخل الكوفة وجمع الجموع، فسر حين يصل كتابي هذا حتى تلقاه، فتخرجه أو تقتله أو تنفيه. وفعلاً خرج ابن زياد وسار الليل والنهار، إلى أن وصل إلى مدخل الكوفة وتشبّه بالحسين، فلبس ملابس سوداء وعمّة سوداء، وأخذ يسلم على الناس بعصا في يده، والناس يقولون: مرحباً بك يا ابن رسول الله، قدمت خير مقدم، فساءه ما رآه، فلما وصل إلى القصر قال الغلام الذي كان معه: تنحوا إنه الأمير عبيد الله، فتراجعوا.

فالحسين اضطر لأن يبعث مسلماً، لأنه كان يتحلّى بكفاءات عالية، وقد برهن على ذلك حينما تعرّض لحاله لو تعرّض لها غيره لكان هدفاً للانهيار، لكنه وقف وتحامل، ثم غيّر مكانه، فانتقل إلى دار هاني بن عروة، وكان شيخ مراد، وكان يركب في أربعة آلاف دارع وثمانية آلاف راجل ـ فقام بأداء حقوق الجوار، فلما علم عبيد الله بن زياد بذلك أرسل خلفه ثم سأله: أين مسلم؟ قال: والله لو كانت رجلي على طفل من أطفال آل محمد ما رفعتها حتى تقطع؟ قال: أدنوه مني. فاستعرض وجهه بقضيب كان في يده حتى أدماه، يقول الفرزدق في أبياته:

فإن كنت لا تدرين ما الموت فانظري ... إلى هانىء بالسوق وابن عقيلِ

إلى بطل قد هشّم السيف وجهه ... وآخر يهوي من طمار قتيلِ

أصابهما فرخ البغي فأصبحا ... أحاديث من يمشي بكل سبيلِ

فوصل الخبر إلى مسلم بأن هانياً قد أُسر وقتل، فخرج فصلّى بالمسجد،

فرأى وراءه عدداً لا يتجاوز الـ(٣٠٠) شخص، فلما خرج إلى باب المسجد لم يرَ أحداً يدله على الطريق، فخرج من أحد الأزقة، وأخذ يمشي في الأحياء إلى أن وقف على باب دار امرأة وقد التهب قلبه عطشاً، فقالت له: من أنت يا هذا؟ قال: أنا عطشان أريد ماءً. فدخلت إلى الدار وأقبلت إليه بكأس من الماء، فتناوله مسلم وجرع منه جرعة وأرجعه، فخرجت وقالت: ألم تشرب الماء؟ قال: بلى. قالت: فما وقوفك على باب داري يرحمك الله؟ قال: أمة الله، ليس لي في هذا المصر أهل ولا عشيرة. قالت: ما الخبر؟ قال: أنا مسلم بن عقيل تخلّى عني هؤلاء القوم. قالت: أنت مسلم؟ قال: نعم. قالت: على الرحب والسعة.

ثم أدخلته الدار، وأقبلت إليه بماء، فأسبغ وضوءه، ولم يزل قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً حتى أوشك عمود الفجر أن ينبلج. فدخلت إليه وقالت: سيدي، ما رأيتك رقدت منذ البارحة؟ قال: بلى هوّمت عيناي فنمت ورأيت عمي أمير المؤمنين عليه السلام في المنام وهو يقول: إنك صائر إلينا عن قريب. وإني لأظن أن هذا آخر أيامي من الدنيا. ثم قام واستأنف صلاته، وما هو إلا قليل حتى سُمعت أصوات الخيل حول الدار، قالت: سيّدي أتاك القوم. قال: لا عليك. ناوليني سلاحي، فأخذ سيفه وخرج وهو يرتجز:

آليت لا أقتل إلا حرّاً ... وإن رأيت الموت شيئاً نكرا

أخاف أن أكذب أو أغرا ... أو يخلط البارد سخناً مرّا

ردّ شعاع الشمس فاستقرا ... كل امرىء يوماً ملاقٍ شرّا

فقال له محمد بن الأشعث: إنك لا تكذب ولا تُغرّ ولا تخدع، إن القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاريك. فداروا حوله أربع فرق: فرقة بالرماح، وأخرى

بالسيوف، وأخرى بالحجارة، وفرقة توقد النار وتلقيها على رأسه، وطوعة وراءه تقول: جاءك القوم من حيث تحذر. وهو يقاتل والمرأة تلاحق خطواته. وقاتل قتال الأبطال، وجعل يأخذ الفارس من على ظهر جواده ويتلقّاه بسيفه ويقتله إلى أن أثخن بالجراح، فلما اشتد عليه الألم والجرح دمعت عيناه، فقال له عبيد الله بن العباس السلمي أو محمد بن الأشعث: إن الذي يطلب ما أنت تطلب إذا نزل به مثل الذي نزل بك لم يبكِ. قال: ويحك، أو تظن أني لنفسي بَكيت؟ والله إني ما لنفسي بكيت، ولا لها من القتل أرثي وإن كنت لم أحب لها طرفة عين تلفاً، ولكن أبكي لأهلي المقبلين إليّ، أبكي للحسين وآل الحسين عليه السلام.

سيدي مسلم، لقد بكى الحسين لأجلك حينما بلغه سلامك.

ثم أخذ إلى القصر، فأمر عبيد الله بضرب عنقه[١].

وكان الحسين عليه السلام آنذاك في زرود[٢]، فلما أصعد مسلم إلى أعلى القصر حوّل وجهه إلى جهة الحسين عليه السلام وصاح: عليك مني السلام أبا عبد الله. إن ابن عمك بين يدي القوم لا يدري متى يقتل. فقام الحسين عليه السلام مختنقاً بعبرته وقال: «وعليك السلام يا غريب كوفان» ثم دخل إلى خيمة النساء، وصاح: «زينب». قالت: لبيك. قال: «عليّ بطفلة مسلم». فأخرجت إليه طفلته، فوضعها في حجره، وأخذ يمسح بيده على رأسها، رفعت رأسها إليه وقالت: يا عم، أراك تصنع بي ما يُصنع باليتامى، لعله قد استشهد والدي؟ قال عليه السلام: «أنا أبوك، وبناتي أخواتك». قالت: يا عم أنت خير من أظلّت الخضراء وأقلّت الغبراء.

ولكن أجمل شيء للبنت إذا ناداها أبوها باسمها!.

---

(١) روضة الواعظين: ١٧٦، ١٨٨.

(٢) زرود: جبل رمل قرب جبل طيّىء يبعد عنه بمسيرة ليالٍ. معجم ما استعجم: ٣/ ٩١٤ ـ عالج.

الليلة السادسة

أنصار الله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول ـ لماذا طلب النبي عيسى عليه السلام الأنصار؟:

الإحساس عبارة عن إدراك المحسوسات والأشياء بالحاسة، وهو تارة يقع على شيء قد حدث فعلاً، وأخرى يقع على شيء متوقع الحدوث، فمثال الأول حينما يدرك الرائي هذا المنظر بعينه أو بلمسه بيده أو بتذوقه بلسانه، ومثال الثاني حينما يستنتج المرء عبر مجموعة من القرائن ما الذي سيحدث. وهذا هو الإدراك لشيء متوقع. والإدراك في الآية الكريمة من النوع الثاني، حيث إن

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٢.

النبي عيسى عليه السلام من خلال قرائن معينة استنتج وأدرك أن اليهود يريدون اغتياله، فلما أحس عليه السلام وأدرك أنه يراد قتله قال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ﴾.

لكن هل إنه عليه السلام طلب الأنصار ليدفع عن نفسه القتل، أم لشيء آخر هو هدف أكبر من ذلك، أعني تحقيق رسالة الله؟ وهنا يكون المراد: من يعينني ليكون معي في تأدية رسالتي الإلهية السماوية التي بعثني الله بها، وأمرني بتأديتها؟ وليس هو لدفع القتل عن نفسه.

إن دأب الأنبياء عليهم السلام في طلب النصرة أنهم إنما يطلبونها لتحقيق رسالة الله جل وعلا، وليس للدفاع عن أنفسهم عليهم السلام حتى لا يقتلوا، وإلا فمن منا يمكن أن يستثنى من قاعدة القتل أو الموت؟

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره   تعدّدت الأسباب والموت واحد[1]

وهنا ثلاث نواح حول طلب الأنبياء عليهم السلام النصرة أحب أن أشير إليها:

الناحية الأولى ـ لماذا لا يخاف الأنبياء عليهم السلام الموت؟:

إن الأنبياء عليهم السلام لا يريدون النصرة لغرض الدفاع عن أنفسهم حتى لا يقتلوا كما قلنا، وذلك راجع إلى سببين:

الأول: أنا ذكرنا أنه ليس هناك أحد يمكن أن يستثنى من قاعدة القتل أو الموت ولا يخرج من هذه الدنيا.

الثاني: أن الخروج من الحياة إذا كان بالشهادة وفي سبيل الله فإنه سيكون في غاية الكمال ورقيّ الدرجات. وباختصار فإنه لا توجد نسبة بين الشهادة وبين الموت على الفراش، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «إن أكرم الموت

---

(١) البيت لأحمد بن نباتة. سير أعلام النبلاء: ١٧، ١٣٤.

القتل. والذي نفس علي بن أبي طالب بيده، لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من ميتة على فراش»[1]، ورحم الله أبا الطيب المتنبي حيث يقول:

ولو أن الحياة تبقى لحيّ ... لعددنا أضلّنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموت بد ... فمن العار أن تموت جبانا[2]

فالذي يستشهد من أجل الرسالة هو الذي ينتزع الخلود. فالنبي عيسى عليه السلام طلب الأنصار لأجل أن يعينوه على أداء الرسالة.

الناحية الثانية ـ الخضوع للسنن والأسباب الطبيعية:

فالأنبياء عليهم السلام عندما يريدون النهوض بأمر ما فإنهم لا يغفلون عن حقيقة أن الله تعالى ربط الأسباب بمسبباتها، بل هم عليهم السلام يدركون ذلك تمام الإدراك. فالله تعالى قادر على أن يخلق بالسبب وبغيره. فلماذا أمر الإنسان بأن يتزوج؟ إن الإنسان حينما يتزوج فإنه سيحصل من اللقاء بين الأب والأم ولد، وهذا الولد هو ثمرة الزواج الذي أراده الله تعالى وأمر به. وهذا ما ندعوه بالسبب الطبيعي، مع أن الله عز وجل يستطيع أن يخلق ابتداءً كما قلنا، ولا يحتاج للأبوين في عملية الخلق هذه، حيث إنه تعالى خلق من أم بدون أب مثل رسوله عيسى عليه السلام، وخلق من أب دون أم مثل فحل النخل، وخلق من دون أب ولا أم مثل آدم وحواء، وخلق من الأبوين كما هو المألوف في عملية التكاثر الجنسي عند أغلب الكائنات الحية، والتي هي الصفة الغالبة فيها.

من سمات السنن الطبيعية:

فالله تعالى إنما ربط الأسباب بمسبباتها، كي تتسق أحوال العالم، ويسير

---

(١) نهج البلاغة/ الكلام: ١٢٣.

(٢) ديوان المتنبي: ٤٧٤.

على نظم السنن الطبيعية وقوانينها التي خلقها وأودعها فيه، ومن السنن الطبيعية أن النهضات تحتاج إلى أنصار وأعوان، فالرسولﷺ بقي في مكة فترة ثلاث عشرة سنة ولم يقم بحالة حربية، وإنما كان المسلمون في حالة دفاع، لكن لما هاجر ﷺ إلى المدينة والتف حوله أنصاره فإنه آنذاك بدأ يتطلّع للقتال وللهجوم. فهؤلاء الأنصار إنما كانوا مع النبي عيسىعليه السلام بطلب منه، حتى ينصروا رسالته الربانية. وهذا من باب ربط الأسباب بمسبباتها من قبل الله عز وجل.

الناحية الثالثة ـ أن في كثرة الأنصار نوعاً من التزكية:

أي أنه إذا كان مع المصلح أنصار كثيرون أولو قيمة ومكانة اجتماعية مرموقة فإن هذا يعدّ شهادة تزكية لحركته على أنها صحيحة، وأن تحرّكه صواب، وهدفه سليم. أي أن هذا يصبغها بصبغة المشروعية من وجهة نظر الناس على أقل تقدير، حيث إن معه هؤلاء الخيرين، ولذلك فإنه إذا كثرت جماعة إنسان مع كونهم أهل استقامة ودين فنحن نقول: إن هذا الرجل على صواب، لأن هذا مما يزيد في رصيد حركته.

ونرجع إلى الأنبياءعليهم السلام فنقول: إن أداءهم رسالتهم يحتاج إلى أنصار يمدونهم بالعون، وقد التفت المشركون من قبلُ لهذا المعنى فقالوا للنبي شعيبعليه السلام: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[1]، أي لولا جماعتك الذين أعطوك منعة وعزة ونصرة لضربناك.

خلاصة المبحث:

فطلب الأنبياءعليهم السلام الأنصار إذاً يكون لأهداف:

الهدف الأول: الذود عن العقيدة.

---

(١) سورة هود، الآية: ٩١.

الهدف الثاني: أنهم شهادة تزكية.

الهدف الثالث: أنهم سيعرّضون إلى ثواب الله.

الهدف الرابع: أن في ذلك خضوعاً للسنن والأسباب الطبيعية.

ولذلك فقد انبرى الحواريون (رضوان الله عليهم) لإجابة دعوة نبي الله عيسى عليه السلام.

المبحث الثاني ـ معنى الحواريين:

والحواري مشتق من الحَوَر، وهو شدة البياض عندما يمتزج بالسواد فيقال: عين حوراء، إذا اشتد بياضها مع سوادها وإن كانا قد التقيا. فهذه الثلة والنخبة من الأصحاب لقبوا بهذا اللقب للنقاء الذي كانوا يتصفون به، ولنظافة قلوبهم.

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وآله يعبّر عن الزبير بن صفية ابنه عبد المطلب بقوله: «هذا ابن عمتي وحواريّ من المسلمين»[1]. لكن للأسف كانت له خاتمة عجيبة، وإلا فإن مواقفه كانت مع خط الرسالة ومع النبي صلى الله عليه وآله، غير أن ابنه عبد الله وعوامل قوية أخرى أثّرا عليه، وحالا دون التزامه موقفه ذلك والثبات عليه. وكان مصرعه تافهاً، فقد كان يصلي في وادي السباع، بعد أن ترك المعركة، لأن الإمام علياً عليه السلام ذكّره بما كان الرسول صلى الله عليه وآله يقوله في شأنه عليه السلام. وكان أن جاء إليه عمرو بن جرموز وقال له: أنت الذي أشعلت نار الحرب ثم تتركها؟ فلما أبى أن يذهب للقتال طعنه برمحه وقتله[2].

فالآية الكريمة حينما تقول: ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ

---

(١) التبيان: ٢/ ٤٧٣.

(٢) الطبقات الكبرى: ٣/ ١١٠.

ﷺ، فهي إنما ترسم لنا الصورة الحقيقية الواضحة للحواري، وتفصح عن دوره الذي سيمارسه في الحفاظ على الدعوة.

المبحث الثالث ـ دور الأنصار في حياة الأنبياء عليهم السلام:

والأنصار جمع النصير، مثل أشراف وشريف[1]، وهؤلاء قد ينصرون على الأمر المادي أو على الأمر المعنوي. فلننظر لهذا التقرير لدور الأنصار من المنظار الذي كان عليه أنصار النبيﷺ، ولنرَ جهة الاعتبار بالنسبة لصحبة النبيﷺ عندما كثر أصحابه، وكيف أنها عند الله جهة استقامة، في حين أنها عند البعض غير ذلك، فإذا كان عند هذا البعض مال كثر أصحابه وجماعته، أما من لا يملك مالاً فيعبّرون عن أتباعه بالأراذل: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[2]. فهؤلاء يقولون هذا للنبيﷺ لأنهم ليس همهم الاستقامة في شيء مطلقاً، وإنما كل همهم هو المال. والحال أن الصحابة الذين التفوا حول نبيناﷺ. أولئك الروّاد الأوائل الذين نأكل من ثمارهم الآن، وبجهدهم استمر الإسلام حيث ضربوا أروع الأمثلة في التضحية لم يكونوا إلا فقراء متواضعين لله جل وعلا.

ونقرأ صوراً إيمانية لهذه النخبة الكريمة التي تأسست بالرسولﷺ وجعلته مثلها الأعلى، وهي صور تهز الإنسان من أعماقه، ومنها ما روي من أن عبد الله بن عمر قال: جاء رجل أسود حبشي إلى النبيﷺ فقال: يا رسول الله، قد فضّلتم علينا بالألوان وبالصور (الملامح) وبالنبوة، أترى إذا اتّبعت دينك وعملتُ بما عملتَ أنت، أكائن أنا معك في الجنة؟ فقال النبيﷺ «بلى والذي نفسي بيده، وإنه ليُرى بياض الأسود وضياؤه في الجنة من مسيرة ألف عام».

---

(١) تحفة الأحوذي: ١٠/ ٢٧٢.

(٢) سورة هود، الآية: ٢٧.

فأسلم الرجل وحسن إسلامه ولازم النبي ﷺ، حتى نزلت سورة: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝﴾[1].

وهنا أودّ أن أشير إلى أن الصحافي المصري محمداً التابعي حينما يمر بكلام الدكتورة بنت الشاطىء في تناولها لشرح هذه السورة وتقريرها أنها نزلت في الخمسة أصحاب الكساء[2]، وهم النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ، حيث نزلت السورة بمناسبة النذر المعروف، فإنه يعقب على كلامها بقوله: إن التفسير الذي تروي عنه ما هو إلا خرافات، كتفسير النيسابوري[3] وتفسير الزمخشري[4]، وإن هذه السورة لا علاقة لها بهؤلاء، وإن الدكتورة بنت الشاطىء تخرّف بهذا الخصوص، والمفروض بها أن تعرف اختصاصها، وأن هذا ليس من عملها.

ونسأل: لماذا هذا التحامل على أهل بيت النبي ﷺ؟ إن عندنا ركاماً هائلاً من التعمية والحقد والتزوير يجثم على صدر التاريخ الإسلامي، ولا بدَّ من إزالته كي تعرف الأجيال المسلمة حقائق التاريخ الحقيقي المشرّف والناصع، وتستفيد منه في حياتها، وتتلاقح مع التجارب المارة فيه، وإلا فإن المسلمين كافة هم من سيكونون الضحية، فلماذا نمنعهم إذاً من أن ينهلوا من هذا المعين الصافي والمنهل الطاهر، منهل الرسول ﷺ وآله ﷺ؟

على أية حال، لما نزلت هذه السورة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ١.
(٢) المعجم الأوسط: ٧/ ٣١٩.
(٣) أسباب نزول الآيات: ٢٩٧.
(٤) الكشاف: ٤/ ٦٧٠.

نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ إلى قوله تعالى ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝١٩ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١﴾[١]، جاء الرجل الأسود يسمع الآيات الشريفة، ثم قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، وإن عينيّ تريان ما تراه عيناك في الجنة؟ فقال النبي ﷺ: «بلى والله». فرفع رأسه وفاضت روحه الطاهرة.

فهذه صورة إيمانية تهز الإنسان من أعماقه، قال عبد الله بن عمر: فقام النبي ﷺ بتجهيزه، وإنزاله إلى القبر، وسمعته يقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝٢٢﴾[٢]. فقلنا ما الخبر يا رسول الله؟ فقال: «والذي نفسي بيده، لقد أوقفه الله وقال: أي عبدي، وحقي لأبيضن وجهك ولأبوئنك من الجنة حيث تشاء»[٣].

فتأمل هذه الصورة الرائعة، حيث حظي هذا الصحابي وأمثاله بهذه المنزلة الكبرى، وهي القرب من رسول الله ﷺ، ولم يخالفوه، فكان جزاؤهم هذا.

عود على بدء:

فالنبي ﷺ لم يلجأ إلى القتال أول بعثته، لأنه لم يكن لديه في مكة أنصار فيهم الكفاية لأداء هذه المهمة والقيام بها، لكن حينما هيّأ الله تعالى له من يتّبعه عن إيمان وعقيدة، وأصبح له أنصار بحقّ أخذ باستعمال هذا العلاج.

من هم الأنصار؟:

---

(١) سورة الإنسان، الآيات: ١ـ٢١.
(٢) سورة الإنسان، الآية: ٢٢.
(٣) المعجم الكبير: ٢١/ ٣٣٤.

ثم إن عندنا صنفين من الأنصار، مهاجري مكة، وأنصار المدينة، ذلك أن المهاجرين هم أنصار أيضاً لكنهم كانوا إلى جانب النبيﷺ في مكة، وكان عددهم قليلاً، لكن الذين وقع عليهم عبء القتال وإقامة الدعوة بعد ذلك هم أنصار المدينة (الأوس والخزرج) وهكذا اختص مصطلح المهاجرين بأهل مكة، فيما اختص مصطلح الأنصار بالأوس والخزرج.

محاولات التفريق بين الأنصار والمهاجرين:

ولم يرُق المنافقين ما كان عليه الأنصار من أهل المدينة والمهاجرون من حب ووئام ووفاق. فراحوا يعملون جاهدين في حياكة المؤامرات، لخلق نوع من الحساسية بين الطرفين، فلعبوا دوراً كبيراً في تخريب العلاقة بينهما، وإلقاء بذور الفتنة في بعض الأحايين. واستمرت آثار هذا الخلاف بعد ذلك وإن كانت كمينة. وبالنتيجة كانت هناك عدة محاولات منهم لتخريب هذه العلاقة بينهم، وتمزيق وحدة الصف الإسلامي. ونذكر من هذه المحاولات وآثارها السلبية:

الأولى ـ قضية فيء بني النضير:

وهي قضية تمثّل أبرز مظاهر الاحتكاك بين المهاجرين والأنصار، فقد كان فيء بني النضير يعود للنبيﷺ خاصة، لكنهﷺ رأى أن التوازن في المجتمع مختل، حيث إن بعض المسلمين (وهم أنصار المدينة) كان عندهم مزارع وتجارة، والمهاجرون لا يملكون شيئاً، لأن قريشاً قد سلبتهم كل أموالهم، فوزّع ﷺ الفيء على المهاجرين فقط دون الأنصار[1].

فاستغل عبد الله بن أبي هذه النقطة هو والمنافقون من أتباعه، فأخذوا يدورون بين الأنصار ويقولون: لقي محمد حزبه وأعطاهم المال، يأخذ مما

---

(١) شرح الأخبار: ١/ ٣١٨.

أفاء الله عليه بأسيافنا، ويعطيه لجماعته، والله ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾[1].

فوصلت الكلمة إلى رسول الله ﷺ، فلم يردّ عليه وقتها، وكان قد قرّر أمراً، ولما سمع ابن عبد الله بما قال أبوه وقف له بباب الدار في المدينة عندما رجع وقال له: والله لا تدخل البيت حتى يرضى عنك رسول الله ﷺ، وحتى تعرف من هو الأعز ومن هو الأذل، ثم جاء فدخل على النبي ﷺ وقال له: روحي لك الفداء، لقد سمعت ما قال أبي، وعلمت أنك متألم لذلك، وأنك تريد أن تقتله، فلي عندك رجاء. فقال رسول الله ﷺ: «ما هو؟». فقال: إذا أردت قتله، فأطلب منك أن أتولى ضرب عنقه. قال ﷺ: «لماذا؟». قال: لأمرين:

الأول: أن تعلم أننا لأي أمر نقتل آباءنا وأبناءنا.

والثاني: أني أخشى أن تدركني حمية الجاهلية، فأقتل قاتل أبي لعلي لا أصبر على رؤيته إذا رأيته، فارتدّ عن الإسلام[2]، فعفا عنه الرسول الأكرم ﷺ إكراماً له.

الثانية ـ حرب أمير المؤمنين عليه السلام ومعاوية وملابساتها:

واستمر الاحتكاك بين المهاجرين والأنصار، وقد ساعدت عليه عوامل أخرى منها أن كل الأنصار كانوا إلى جانب علي بن أبي طالب في صفين، وكان لمعاوية رجل واحد من الأنصار وهو البشير أبو النعمان الذي انضم إلى أبيه فيما بعد، وهو والي عبيد الله بن زياد على الكوفة حينما دخلها الإمام الحسين عليه السلام.

---

(١) سورة المنافقون، الآية: ٨.

(٢) مجمع البيان: ١٠/ ٣٧٣ ـ ٣٧٥.

فالذين كانوا إلى جانب الإمام علي عليه السلام كان عليهم أن يدفعوا الثمن، وأي ثمن هو؟ إن الأمويين حينما أرادوا كتابة التاريخ كانوا كلما مروا بالأنصار أو بالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أعرضوا عن كل منقبة لهم، ولم يذكروهم بخير. كان خالد بن عبد الله القسري أحد الذين كتبوا التاريخ الإسلامي. وكان عنده كاتب، فقال له يوماً: هناك روايات تمدح علي بن أبي طالب وتمدح الأنصار، فهل أذكرها؟ قال: لا، لا تذكرها إلا أن تجدهم في قعر جهنم.

ودفع أبناء الأنصار جزءاً من الثمن، وهو أن الذين قتل آباؤهم في صفين قطع معاوية عنهم عطاءهم، وأماتهم جوعاً، مع أن أولاد الشهداء لهم ضمانات مالية من بيت المال حتى يخرجوا من مسمّى اليتم. ثم أخذوا يلاحقونهم ملاحقة شديدة ويهددونهم.

وحينما جاء معاوية للحج وخرج الناس لاستقباله، لم يخرج معهم أحد من الأنصار، فحاول الوالي إكراههم على الخروج لاستقباله، وانتهى الأمر إلى قيس بن سعد بن عبادة، فأبى أن يخرج، لكنهم أجبروه على ذلك فخرج.

وكان عمرو بن العاص إلى جنب معاوية الذي استقبله، فرأى أنه قد أتى وحده، فقال له: ما لي لا أرى الأنصار؟ قال: ليس عندهم رواحل. فقال معاوية: فأين ذهبت نواضحكم؟ (يريد أنهم أهل زراعة). فقال له قيس: أفنيناها يوم بدر، يوم ضربناك وأباك على الإسلام حتى أدخلناك فيه كرهاً. فأراد معاوية أن يجيبه، فسحب عمرو بن العاص رداءه وقال له: على رسلك، إن أجبته بواحدة أجابك بأربعة. فسكت[1].

فكانوا يلاحقونهم في كل شيء، ولكن هذا لا يضيرهم. وقد كان

(١) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٩٦.

الرسول ﷺ يعبّر عنهم بقوله «عيبتي»[١]. وقد كانوا أحبّاء الرسول ﷺ الذي أغدق عليهم المنزلة تلو المنزلة بما لا حدود له. وكانوا صحابة كراماً، وقد بذلوا كل ما عندهم من دم ومال وعطاء في طريق الإسلام فهؤلاء أنصار الله جل وعلا.

نماذج من أنصار أمير المؤمنين عليه السلام:

أما أنصار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فنذكر منهم بعض النماذج، وإن كان في التاريخ ثغرات افتعلها الحقد، ومن هؤلاء الأنصار عمار بن ياسر رضي الله عنه الذي استشهد في واقعة صفين، وكان أبواه أول من استشهدا في سبيل الإسلام حيث شدّتهما قريش للأوتاد، وعرّضتهما للعذاب: وطفتهما بالحراب.

فابنهما عمار ثمرة هذا الزواج المبارك، وقد قال له النبي ﷺ: «يا عمار، تقتلك الفئة الباغية، وآخر شرابك من الدنيا ضياح من اللبن»[٢].

فلما كان في يوم صفين استسقى، فلم يكن ماء، فسقي لبناً، فأخذه وقال: لا إله إلا الله، لقد قال لي رسول الله: «يا عمار، تقتلك الفئة الباغية، وآخر شرابك من الدنيا ضياح من اللبن». وأخذ سيفه وقاتل قتال الأبطال حتى صرع.

والغريب أن يصدر من المؤرخ الحافظ عندما يستعرض واقعة صفين قوله: وعندما قتل عمار مع علي اتضح لنا أن الحق مع علي. أي أن الحق لم يتضح أنه لأمير المؤمنين عليه السلام إلا عندما قتل عمار رضي الله عنه معه، ولولا ذلك لما عرفنا أن أمير المؤمنين عليه السلام على الحق، وهذا إجحاف به عليه السلام، وبنهجه القويم، فهو عليه السلام لا يحتاج إلى مثل هذه التزكية، وهو الذي يقول فيه النبي ﷺ: «أنت نفسي التي

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

(٢) دعائم الإسلام: ١/ ٣٩٢.

بين جنبي»، مع أنه يرويها بنفسه. وهناك ثلاثمائة آية نزلت فيه عليه السلام وترويها كتب التفسير، وإن عماراً قد اكتسب الشرف والمنزلة بولائه أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبصحبتهم.

إذاً فأمير المؤمنين عليه السلام إنما طلب الأنصار لا ليستعين بهم في القتال. فهو القائل: «لو تظاهرت العرب على قتالي ما وليت عنها»[1]، والقائل: «إذا مكّنت عدوي من ظهري فلا أبقى الله عليه إن أبقى عليّ»[2]. وهو عليه السلام تصدّقه مواقفه، فلو أراد لكفاه سيفه، فلماذا إذاً يحرص على تحصيل مجموعة من الأنصار؟

الهدف كما قلنا هو الإعانة على أداء رسالته، والمشايعة له في الرأي، أي أنه عليه السلام إذا التفّ حوله مجموعة من الأبرار فإنهم سيعطون للناس انطباعاً بأن طريق الحق هو هذا، لنروِ محاورة بين عقيل بن أبي طالب ومعاوية، فمعاوية يسأل عقيلاً: أنت مررت بجيش علي بن أبي طالب، ثم مررت بجيشي، فهل تستطيع أن تعطيني ملامح كلا الجيشين؟ فالتفت إليه وقال: مررت بجيش أخي علي بن أبي طالب عليه السلام فما رأيت فيهم إلا قائماً وقاعداً، وراكعاً وساجداً، ونهارهم كنهار رسول الله وليلهم كليل رسول الله، فكأنه جيش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليس فيهم، ومررت بجيشك فما رأيت إلا قوماً ممن نفّر ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة العقبة، حيث يوجد الطليق وغيره[3].

فسكت معاوية حيث إنه لم يرَ في جماعته سوى الطريد وغيره من أمثال الوليد بن عقبة ومروان بن الحكم، ومن حذا حذوهم من هذه النماذج، في حين

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف: ١/ ٤٧٣.
(٢) المستطرف في كل فن مستظرف: ١/ ٤٧٣.
(٣) شرح نهج البلاغة: ١٨٤ ـ ١٨٥.

أننا نرى النماذج الخيّرة والصالحة هي التي تقف إلى جانب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: أولئك الأبرار والأتقياء.

الأقلام المأجورة:

هناك من ذوي الأقلام من يكتب ويقول: ما الذي دفع بعلي للقتال؟ أو لم يكن الأفضل له أن يجلس في المدينة بدلاً من أن يسفك دماء المسلمين؟.

والحقيقة أن هذا كلام حاقد، لأن ما يهم الإمام علياً عليه السلام هو إبراز وجه الحق، ولتقل الناس فيه بعد ذلك ما تقول، يقول عليه السلام: «لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله»[1] ولو كنتم وحدكم، لأنكم مع الحق، فروّاد الحق دائماً هم الأقلية، فلذا كان له مجموعة من الأنصار غاية في الرفعة، فتجد حجر بن عدي الكندي وآل العبدي والأصبغ بن نباتة وآل نباتة.. وهذه الأسر الناصعة ذات التاريخ المشرف والمواقف المشرّفة.

المبحث الرابع ـ نماذج من أنصار الحسين عليه السلام:

ومن بعد هذا السرد نأتي إلى صحابة الإمام الحسين عليه السلام، وهؤلاء ولو أنهم (رضوان الله عليهم) كانوا قلة، لكن عند التأمل في معطيات حياتهم وسيرتهم نجد أنهم كانوا على جادة الحق والصواب بوقوفهم إلى جانب الإمام الحسين عليه السلام. فلنلقِ نظرة عليهم، لقد كان مع الحسين عليه السلام بعض من صحابة النبي صلى الله عليه وآله، وهم بدريّون، وهذا من دواعي الاستغراب الذي تثيره تساؤلات بعض من الكتّاب الذين يقولون: لماذا خرج الإمام الحسين عليه السلام للقتال. فإنه إنما يرمي بنفسه إلى التهلكة؟

فوجود أهل بدر يبدّد هذا التساؤل، حيث إنه لا يمكن أن ينحرف واحد

(١) نهج البلاغة/ الكلام: ٢٠١.

منهم عن جادة الصواب، هذا بعد التنزّل إلى كون الإمام الحسين عليه السلام يحتاج في تزكية ثورته إلى وجود جمع من البدريين فيها، وكان منهم مسلم بن عوسجة وحبيب بن مظاهر الأسدي، وغيرهما. كما أنه عليه السلام كان معه مجموعة من التابعين.

ثم إنه عليه السلام نفسه كان من الصحابة، وهو سيد شباب أهل الجنة[١]، أفلا يكفي أنه عليه السلام كان على طريق الحق؟ لقد خرج عليه السلام ولم يكن معه العدد المفروض وجوده من الأنصار في أمثال هذه الثورات والتحركات، لكن هذا كان يحصل حتى مع الأنبياء عليهم السلام عندما لا يتوفر عندهم العدد الكافي للتحرك، فهم مع هذا لا يتركون هذا الأمر الإلهي. وإن قلّ أنصارهم، إذ إن هذا الأمر لا يقدح في نبوتهم. فالحق أنه لا يخدش مشروعية حركتهم أن الملتحقين بهم عدد قليل، فغالباً ما تكون القلة هي صاحبة الحق وهي المميزة.

فالإمام الحسين عليه السلام خرج مع مجموعة من الصحابة بلغ عددهم سبعين رجلاً، وكانوا يمثلون نخبة العالم، وأفلاذ كبد الدنيا، والتاريخ ينحني لذكرهم، وكانت قريش تقول للنبي صلى الله عليه وآله: إن صحابتك قد اتبعوك لأنهم وجدوا عندك خيراً.

وهنا يشكل البعض فيقول: إذا كان مع النبي صلى الله عليه وآله رجال من هذا الأنموذج فأليس في أصحاب الحسين عليه السلام من مثل هذا النوع؟

وهذا الإشكال باطل، ذلك أن الذين خرجوا مع الإمام الحسين عليه السلام هم رؤساء رهطهم، وأصحاب رئاسة ومكانة، وذوو شرف في قومهم. كما أنهم

(١) مسند أحمد: ٣/ ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٤.

ممن عُرفوا بالدين والعلم والخلق، والإمام الحسين عليه السلام زادهم شرفاً إلى شرفهم بوقوفهم معه ضد الظلم والطغيان.

وقد توّجهم بهذا الشرف ليلة العاشر من المحرم عندما وقف وقال: «أصحابي، أثني على الله أحسن الثناء، وأحمده على السرّاء والضراء، اللهم لك الحمد على أن وهبتنا أسماعاً وأبصاراً، وجعلت لنا أفئدة، فاجعلنا لك من الشاكرين، أما بعد: فإني لا أرى أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني خيراً، ألا وإني لأظن أنه آخر يوم لنا من هؤلاء، ألا وإني قد أذنت لكم، فانطلقوا جميعاً في حل، ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً»[1].

وتوّجهم الإمام الصادق عليه السلام بقوله في الزيارة المروية عنه: «بأبي أنتم وأمي طبتم وطابت الأرض التي فيها دفنتم، وفزتم والله فوزاً عظيماً، فيا ليتني كنت معكم فأفوز فوزاً عظيماً»[2].

وهذه مكانة كبيرة يتمناها كل طامح إلى الخلود، وكذلك يخاطبهم (صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه) بقوله: «السلام عليكم أيها الأرواح التي حلّت بفناء قبر الحسين وأناخت برحله»[3].

ثم وقف الإمام الحسين عليه السلام يوم العاشر من المحرم ليكرمهم (رضوان الله عليهم)، فقد كان عليه السلام كلما سقط منهم قتيل أتى إليه وتوجّه بعبارات الثناء، حتى جون (العبد) حينما سقط على الأرض أقبل إليه ووضع يده الشريفة تحت رأسه، ورفع رأسه إليه، وانحنى عليه يقبّله، ففتح عينيه وقال: أبو عبد الله يضع

(١) الإرشاد: ٢/ ٩٢.
(٢) مصباح المتهجد: ٧٢٣.
(٣) بحار الأنوار: ٦٥/ ١٣١ ـ ٦٢، ٩٨، ١٩٦/ ٣١.

وجهه على وجهي! من مثلي وقد وضع ابن رسول الله ﷺ خدّه على خدّي؟ فأخذ الإمام الحسين عليه السلام يمسح الدم والتراب عنه ويقرأ قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[1]. ثم وقف ينادي: «أين أبطال الصفا؟ أين حبيب وأين زهير وأين جرير؟». وأخذ يعدد أسماء أحبّائه وأعزائه: «ما لي أناديكم فلا تسمعون، وأدعوكم فلا تجيبون؟ أو لستم قد طلقتم حلائلكم لأجلي، وأعرضتم عن زهرة دنياكم؟»[2].

تلك الوجوه المشرقات كأنها الـ أقمار تسبح في غدير دماءِ

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

(٢) معالي السبطين: ٢/ ١٩.

اليوم السادس

قبض أرواح المؤمنين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

سنمر خلال بحثنا حول الآية بهؤلاء المخاطبين، ومن هم، ومن هو أفضلهم، ولنمر على فصول الآية فصلاً فصلاً كي تتضح لنا الرؤية حول هؤلاء:

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ﴾ التوفي هو القبض كما تقول: توفيت حقي أي قبضته[2]. فلماذا إذاً تتوفاهم الملائكة وليس ملك الموت؟ معلوم أن الملك جسم وإن كان نورياً، والجسم يحتاج إلى حيّز بشغله، ومكان خاص يكون فيه،

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٢.

(٢) الصحاح: ٦/ ٢٥٢٦ ـ وفى.

وفي كل لحظة يموت آلاف من الناس من شرق الأرض وغربها، وعليه فيستحيل على ملك الموت أن يكون عند كل هؤلاء ليقبضهم، فكان لا بدَّ له من أعوان يقومون عنه بذلك ويأتمرون بأمره في قبض أرواح الناس.

المبحث الأول ـ معنى التوفي في الآية:

وللمفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿طَيِّبِينَ﴾ ثلاثة آراء:

الأول ـ أنه يخرج منها طاهراً:

فالله تعالى حينما يخلق الإنسان يخلقه نسخة بيضاء طيبة طاهرة نظيفة غير ملوثة، ولذا فإن الرسول ﷺ حينما كان يأتي إليه المسلمون بأبنائهم حديثي الولادة ـ ليسميهم ﷺ كما هي عادتهم ـ يقبّل ذلك الطفل ويقول: «هذا حديث عهد بالله».

أي لا زال على فطرته السليمة وطيبته قبل أن يلج المحيط، وإلا فهو بعد أن يدخل المحيط نحوّله إلى قطعة ملوثة، فنعلمه الكذب والحقد والافتراء والأخلاق الشائنة إلا اللهم ربي إذا أراد الله له أن يربّى في بيئة طيبة تعلّمه محاسن الأخلاق ومحامدها، أما مع المحيط الذي نحن فيه فلا نتوقع منه أن يكون خلاف ما وصفنا من تلوث نفسه وفطرته التي فطره الله عليها، فلنقرأ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾(١) أي أننا نسلمكم الإنسان صفحة بيضاء فتقومون بتلويثها إلا من آمن.

وهذا الخطاب موجّه لكل من يقوم بعملية التربية، وأول من يقوم بهذه العملية هو الأسرة التي هي عبارة عن الأب والأم، وهما أول من تقع عليه مسؤولية الطفل وأعباء تربيته. وهذه المسؤولية تارة تكون عملية وأخرى نظرية.

---

(١) سورة التين، الآيات: ٤ ـ ٦.

فالمسؤولية النظرية تتمثل بكون الطفل حينما يبدأ بالإدراك يرى أمه وأباه ويراقب تصرفاتهما فيقتبس منهما.

والمسؤولية العملية تتمثل في أن الطفل حينما يسمع أبويه يتكلمان عن الأخلاق الحسنة وأنها خير كالأمانة مثلاً، فإنه يراقب تصرفاتهما ليرى ما إذا كانا يفعلان ما يقولان ويكونان في واقعيهما أمينين أم لا، فعملياً حينما يمدح قيمة من القيم الخلقية هل يقوم بتطبيقها على نفسه أم لا؟ كل هذا يراقبه الطفل ويحفظه.

نعم بعد ذلك ـ بعد الأبوين في عملية التربية ـ يأتي دور المعلم الذي إن كان فاضل الأخلاق حسن السيرة فإنه يترك أثره الطيب الحسن في نفس ذلك الطفل وعلى سلوكه فيخرّج لنا طفلاً فاضلاً. وهذا هو ما كنا عليه سابقاً حينما كان المعلم ربيب المسجد، فهذا الخلق الذي يكتسبه من المسجد يقوم بتغذيته إلى الطفل، وهذا الحال هو الذي كان سائداً آنذاك. أما أن يأتي إنسان اليوم ويقول: إن المساجد أصبحت الآن تنانير حقد تثير الفرقة بين المسلمين فهذا مردود، لأن هذا شاذ وهو خلاف الرسالة الحقيقية للمسجد، فهذا لا يعدو أن يكون حالة مرضية في سيرة المساجد، ولا يعنينا في شيء، بل إن الذي يعنينا هو الدور الحقيقي الذي يلعبه المسجد ورواده في عملية التربية للطفل، وهذه هي القاعدة التي تتمثل في أن المساجد تحمل زاد التقوى لتوصله إلى الطفل وتغذي نفسه به. وبعد أن جاءت المدارس والجامعات انتقلت هذه المسؤولية من المساجد وروّادها إلى هذه المؤسسات المنهجية ومعلميها الذين يشرفون على عملية التربية. والمدرّس في هذه المؤسسات يمكن أن يكون فاضلاً فيخرّج لنا طفلاً فاضلاً، ويمكن أن يكون طالحاً فيحاول أن يربي الطفل على أخلاقه الطالحة.

والمرحلة الثالثة في عملية التربية تتمثل في المحيط الذي هو عبارة عن الشارع والسوق، فالإنسان يتفاعل حتماً مع هذه الأجواء، وعلى ضوء هذا التفاعل يتولّد الطفل إما صالحاً أو طالحاً، وحينما يريد الله أن يسترجع وديعته فإما أن تكون هذه الوديعة ملوثة أو طيبة حسب تفاعلها مع مراتب عملية التربية الثلاث. فالمؤمن يتوفّى طيباً وغيره.

ويمكن تقريب ذلك بأنك إذا أودعت عند أحد وديعة ثم أردت أن تستردها منه، فتارة يرجعها لك كما هي أي كما أودعتها عنده، وتارة يعيدها سالمة مع زيادة هي أنه قام بتطييبها وحفظها داخل وعاء محكم كي لا تمتد إليها يد عابثة، وتارة يعيدها إليك معيبة ناقصة، وهكذا حال الطفل.

والإنسان يدرك حين الموت ما سيكون عليه، ولذلك يصيح عندها: ﴿ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾[1] فيقال له: لا قد فات الأوان.

فـ ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾[2] أي أن هناك نمطاً من الناس يدخل للحياة وهو شعاع ويخرج منها وهو شعاع، وهناك من هو على عكس ذلك يخرج من الدنيا وثيابه ملوثة بعد أن دخلها طاهراً.

الثاني ـ أن نفوسهم طابت عما تركوا:

فإنه ليس من السهل على الإنسان أن يخرج من الدنيا طيب النفس كما ترك بعد أن كان قد بنى بيته لتوّه، ووطّد علاقته بالمجتمع، وتزوج ورُزق بأولاد، فالموت سيشكل حائلاً بينه وبين كل هذا، فليس من السهل عليه أن يترك كل ذلك. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أخرجوا حب الدنيا من قلوبكم قبل أن تخرج

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩ ـ ١٠٠.
(٢) سورة النحل، الآية: ٣٢.

منها أجسادكم»[1]، فأولى بالإنسان أن يروّض نفسه على إخراج كل ما له علائق تربطه بهذه الدنيا قبل أن يصطدم بحقيقة الموت فلا يخرج من هذه الدنيا طيب النفس بما خلّف فيها من مال وولد وجاه.

المأمون يداهمه الموت في عز جبروته:

ولنذكر في هذا المجال قصة المأمون حينما حضرته الوفاة، وكان في طرطوس يقاتل الروم في جيش كبير له، فرأى عيناً صافية كأن ماءها الزلال، وتخرج منها أسماك صغيرة كسبائك الفضة، فأمر النجارين أن يبنوا له عريشاً عليها كي يمتّع عينه بالنظر إليها، فلما بنوا له عريشاً جلس ينظر إلى البركة فخرجت سمكة بيضاء نضحته بالماء، فأحسّ برجفة، فقال: أحس بقشعريرة البرد في جسمي، أرجعوني إلى الخباء، ولما أرجعوه اشتد عليه المرض وزادت الحمى، فأرسلوا إلى الأطباء فلما قاسوا نبضه قالوا لهم: إنه لن يعيش هذه الليلة، فنبضه ينذر بالفناء.

فلما سمع المأمون ذلك قال: أخرجوني لأنظر إلى الجيش، فلما أخرجوه ورأى جيشه يملأ الربى رفع رأسه إلى السماء وقال: يا من لا يزول ملكه، ارحم من يزول ملكه[2].

وهذا المصير كل منا يمر به ويقع تحت تأثيره إلا من رحم الله منا، وهم أولئك الذين يملكون الثقة بالله والذين يعرفون أنهم إنما يتركون الدنيا وما فيها إلى ما هو أفضل عند الله وأجزل وأسمى، وهو رضا الله جل وعلا[3]. ونحن نردد في الدعاء: «اللهم لا تخرجنا من هذه الدنيا حتى ترضى عنا».

---

(١) وقد ورد في ذم الدنيا أحاديث كثيرة، منها ما عن رسول الله ﷺ أنه سئل: ما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت». الملاحم والفتن: ١٥٧، ٢٠١.

(٢) تاريخ الطبري: ٧/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

(٣) قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [سورة القصص، الآية: ٦٠؛ سورة الشورى، الآية: ٣٦].

أي اللهم اجعلنا متجهين إليك ومروضين أنفسنا على هذا الواقع الذي يقول بأن ما عند الله أسمى، وإلا فإن المال والولد لا يستطيع دفعاً من الإنسان إذا جاء أمر الله من مرض أو ألم أو ضيم، وليس يقدر على ذلك سوى الله الذي يجير ولا يجار عليه.

فالإنسان تارة يكون من النوع الذي يخرج من الدنيا برماً لما يترك خلفه من مال وولد وأسباب الكمال التي عنده في الحياة، وتارة يكون من النوع الذي يخرج من الدنيا طيّب النفس لعلمه بأنه وافد على الله جل وعلا. يقول سلمان المحمدي رضي الله عنه:

وفدت على الكريم بغير زاد ... من الحسنات والقلب السليم

فيجيبه الإمام عليه السلام:

«وحمل الزاد أقبح كل شيء ... إذا كان الوفود على كريم»[1]

فهؤلاء تتوفاهم الملائكة ونفوسهم طيبة، فلذلك يتركون الدنيا راضين مرضيين، ثقة منهم بأنهم سينتهون إلى عالم أفضل.

الثالث ـ أن الملائكة تتوفاهم بسهولة:

وقد وردت روايات كثيرة في هذا المعنى، ومنها أن الله إذا أراد قبض روح عبده المؤمن فإن روحه تسلّ من جسمه كما تسلّ الشعرة من العجين[2]، في حين أننا نجد أن بعض الناس يبقى ينازع ويصارع الموت صراعاً مرّاً لأيام عديدة، ولذا نجد أن الرسول صلى الله عليه وآله مع ما هو عليه من القرب واللطف يرفع برأسه

---

(١) نفس الرحمن في فضائل سلمان (الميرزا النوري): ٥٤٥.

(٢) الدر المنثور: ٦/ ١٦٧.

إلى السماء ويقول: «اللهم أعني على سكرات الموت»[١]. فاللحظات الأخيرة ليست سهلة، فإذا أراد الله أن يرحم أحداً فإنه يستلّ روحه كما وصفت الأحاديث المارة.

فـ ﴿طَيِّبِينَ﴾ أي لا يتعرضون إلى غصة الموت وألمه، ولا تشتد عليهم أيام العلة وساعات النزع، بل بيسر وسهولة، فالبعض حينما يمرض مرض الموت تطول عليه أيام المرض، وطولها يعني أيام شدة ومحنة، لأن الإنسان في هذه الفترة إن كان عنده ولد بار أو زوج صالح فإنهما يرعيانه ويهتمان به، وعلى خلافه ما لو كان عنده ولد أو زوج طالحان فإنهما سوف يبرحان به ولا يهتمان بأمره ولا يرعيانه حق رعايته، فهذا سوف يتعرض إلى غصة الموت وألمه، وطول فترة معاناة الاحتضار. فالمشار إليهم في الآية بقوله: ﴿طَيِّبِينَ﴾ يهيىء الله لهم من يرعاهم في فترة الاحتضار مع قصر تلك الفترة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ليغتنم كل مغتنم منكم صحته قبل سقمه، وشبيبته قبل هرمه وسعته قبل فقره، وفرغته قبل شغله، قبل تكبّر وتهرّم وتسقّم، يملّه طبيبه ويعرض عنه حبيبه»[٢]. نسأل الله أن يجعلنا من الذين هم ملؤهم الشعور بالإقبال عليه، فإن الله إذا أراد أن يرحم أحداً جعله كذلك.

﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾، السلام: اسم مصدر كما يقول علماء اللغة[٣]، ومعناه الدعاء، فأنت حينما تقول لشخص: السلام عليكم، فإنك إنما تدعو له بالخلاص من المكاره والآفات.

---

(١) الدعوات (الراوندي): ٢٥٠/ ٧٠٥.
(٢) العمال: ١٦/ ٢١٠ ـ ٢١١.
(٣) تاج العروس: ٨/ ٣٤.

المبحث الثاني ـ الفرق بين سلام الدنيا وسلام الآخرة:

والسلام نحوان:

الأول: سلام الدنيا، وهو يأتي معرّفاً دائماً، فنقول: السلام عليكم، وإن كان لمفرد، فالجمع للتعظيم والتفخيم هنا.

الثاني: سلام الآخرة، وهو مجرد عن لام التعريف كما في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾. والذي نفهمه من هذا أن المشرّع الإسلامي لا يترك ثغرة من ثغرات الحياة خالية دون أن يملأها وهو القائل: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾[1]. فالإسلام يعالج كل قضايانا الحياتية، فهو يضع القوانين لكل شيء، ففي الطريق يضع آداب السلام وكيفية ردّه ومن الذي يبتدىء به غيره. وآداب السلام والمجتمع يريد الله لنا أن نكون عليها ولا نتركها حتى عندما نقدم عليها، ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾[2]، فهو دعاء بالسلامة والأمن من المكاره.

فإن كان عندنا اختلال في تطبيق ذلك، كالأخلاق المنحرفة أو المجتمع الجامد الخالي من المرونة، فهذا حتماً ليس من ديننا، بل إن الخلل فينا نحن، والإسلام بريء منه. وهناك من الغربيين من يحاول أن يؤكد هذا وينسبه للإسلام، فهو يقول: إذا أردت أن تميز الشارع المسلم عن غيره فانظر فإن وجدته قذراً وسخاً كان أهله مسلمين وإلا فلا، وكذلك تعامل المسلم عن غيره، فإن تعامل معك بشكل وعر وفظ، وغشّك في المعاملة فهو مسلم وإلا فلا. والحقيقة أن هذه جريمة متقصدة في حق الإسلام وظلم له، لأن العيب هنا في المسلمين الذين يعيشون رواسب آبائهم الاجتماعية ولما يثقفوا بثقافة

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٠.

الإسلام وتعاليمه، وإلا فإن الإسلام لم يأمر بالغش[١] ولم يرتضِ للمسلمين أن يكونوا قذرين[٢]، بل على العكس من ذلك هو دين تكامل.

وهذه الرواسب التي لا زلنا نعيشها تظهر واضحة جلية في تصرّف البيت المسلم في شرق الأرض وغربها تصرّفاً بعيداً كل البعد عن القيم الإسلامية، وسبب ذلك أننا نملك موروثاً اجتماعياً تغلغل في نفوسنا وامتد أثره إلينا من آلاف السنين. وهذا يأتي بشكل خاص عند الإنسان المعرض عن تعلم الآداب الإسلامية دون ذلك الذي يفتح عينيه على الدنيا وهو يريد أن يؤدب نفسه بخلق الإسلام.

والذين توغل الإسلام في نفوسهم، وعملوا بتعاليمه، وتخلّقوا بأخلاقه موجودون في القرون الأولى وحالياً لكنهم ثلّة قليلة، والأرض لا تخلو يوماً من أمثالهم، لكننا إنما نتكلّم عن الفرد الغالب لا النادر.

والله جلّ وعلا إنما يريد منا أن نملأ ثغرات حياتنا بما أرسل إلينا من علاج لهذه الثغرات، غير أننا دائماً نضع أنفسنا بعيدين عن قوانين السماء وعلاجاتها لأدوائنا، ولنضرب مثلاً بفقير يرى نفسه لا يقدر على أن يكسب ما يقوّت به نفسه، ويرى إلى جانبه غنياً متخماً، أمامه كل فرص الحياة مهيأة، فيرفع رأسه إلى السماء ويقول: أين عدل السماء؟ لماذا أعطت هذا القناطير المقنطرة وأنا لم أعِش حتى عيشة الكفاف؟ وهذا خطأ، لأن المقصر في ذلك ليست السماء بل نحن إذ إن السماء وضعت لنا قوانين وأمرتنا بأن نطبقها كي لا يبقى فقير، ونحن تركناها وراء ظهورنا.

---

(١) دعائم الإسلام: ٢/ ٢٨ـ٥٣، ٢/ ٤٧.
(٢) مكارم الأخلاق: ٤٠.

ومثال آخر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾[١] غير أن المسلمين جاؤوا بكثير من أمثال هؤلاء ولاةً عليهم برضاهم بهم كالوليد بن عقبة الذي عمل له حوضاً وملأه بالخمر فيظل يشرب منه حتى يسكر، فما كان من الناس بعد ذلك إلا أن ضجوا للخلاص منه، والحل الجذري لأمثال هذه المسائل أنهم بدلاً من أن يأتوا به ثم يصيحوا للخلاص منه كان الأفضل ألا يركنوا لأمثال هذه النماذج الشاذة.

المبحث الثالث ـ محاولات تشويه حركات الأئمة عليهم السلام الإصلاحية:

ومن المؤسف أن بعض الكتاب حتى الآن لا يريدون للنماذج الطيبة أن تتولى الحكم وتتصدى له، فنراهم يطلبون لأمور منها أن علي بن أبي طالب لم ينجح في الحكم، لأن في حياته غلطات اجتماعية، ومنها عدم المرونة المتمثلة بعدم تركه معاوية في الحكم بل سارع إلى عزله حتى قامت بسبب ذلك الحرب.

ونقول لهؤلاء: ما هو المبرر الشرعي والديني الذي يلجأ إليه علي بن أبي طالب عليه السلام ويستند له في إبقاء معاوية في الحكم؟ أو ليس القرآن قد رسم لعلي عليه السلام منهجاً واضحاً في هذا الشأن، فهل تريدون منه أن يخالف منهج القرآن، أم أنكم تريدون للإنسانية أن تكون لقمة سائغة سهلة لمعاوية وتقع في متناوله كي يحقق أهدافه بسهولة؟ هذا غير ممكن بل الإنسانية والظروف خلاف ذلك، ولذا كان عليه السلام يحتاج إلى فترة لتطبيق قواعد الإسلام وقوانينه سيما مع اصطدامه بهذه العقبات. فتركه معاوية على الحكم غير مقبول شرعاً، فكيف يفعله؟ ثم أليس معاوية هذا هو صاحب الجرائم الكثيرة في حق الإسلام والمسلمين[٢]؟ أليس هو الذي استعمل سمرة بن جندب على البصرة فكان أن

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٣.

(٢) شجرة طوبى: ١/ ٨٥.

قتل في يوم واحد ثمانية آلاف شخص ولم يفرّق ويميز بين الخارجي والمسلم، وحينما اعتُرض عليه في قتل المسلمين قال: الخارجي يعجّل به إلى النار، والمسلم يعجّل به إلى الجنة[١]؟.

أمثل هذا يطلب من علي عليه السلام الإبقاء عليه، ويطلب منه أن يسكت على دار خربة لا يُدرى متى تسقط على رأس صاحبها؟ وهذا إن سببه إلا عدم ملئنا ثغرات حياتنا بما أراد الله لنا أن نملأها مما رسمه لنا.

نعود إلى الآية، فقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ﴾ ورد في تفسيره أن المؤمن إذا احتضر تدنو منه الملائكة فتقول له: إن ربك يسلّم عليك[٢]. يقول مجاهد: ثم تبشّره بصلاح عقبه من بعده[٣]. وهو أمر هام جداً لأنه حال خروجه من الدنيا يقولون له: إنك آمن، ثم يبشرونه.

المبحث الرابع ـ ثلاثة إيرادات حول ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

وهنا ثلاث نقاط حول هذا المقطع من الآية أحب أن أشير إليها:

الأولى ـ الجنة لا تُدخل إلا بمهرها:

فحول قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ربما يقول قائل: يا رب، أسألك أن تدخلني الجنة، وأسألك العفو عني. فيقال له: لك أن تطلب ما طلبت، لكن بالمقابل عليك أن تقدّم عملاً تستحق به هذه الجنة وهذا العفو. فالله جل وعلا بهذا يريد أن يعلمنا ألا نعيش بأحلام اليقظة، ولا نتوقع أن نحصل على كل ما نحلم به دون مقابل، فمن يرد الجنة فليقدّم مهرها وهو العمل

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/ ١٧٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ١٠٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ١٠٢.

الصالح[١]. فالله تعالى يريد أن يخلصنا من الأحلام الفارغة ويعلمنا مبدأ «أعطِ كي تأخذ» فهذه الشعوب التي حصلت على ما حصلت عليه لم تأخذه دون أن تعطي مقابله شيئاً، فهي أعطت من راحتها، وطلبت العلم وأعطت مقابله السهر، وأعطت من حالتها الاجتماعية واستقرارها حتى وصلت إلى حالة مستقرة من النظام، وبهذا أخذت ما أخذت.

الثانية ـ أن عمل الإنسان مهما بلغ لا يؤهّله لدخول الجنة:

فربما يقول البعض: إن الإنسان مهما عمل فلن يبلغ عمله درجة تؤهّله لأن يكون ذلك العمل مهراً للجنة، وهذا صحيح، ولنقرّب المسألة بمثال هو لو أن رجلاً يملك مالاً كثيراً ومرض مرضاً ميئوساً منه وأخبر أنه ميت لا محالة، فأراد السفر إلى أوروبا للعلاج فإنه قد يقدّم الملايين من ثروته وقد يقدمها كلها فيما لو طلبوا منه ذلك لقاء تمديد عمره سنة أو سنتين، ولن يتردد في شراء ذلك الوقت مع محدوديته، لأن الإنسان متشبث بالدنيا، مع أن الله تعالى قد أعطانا عقوداً من الزمن نعيشها كأعمار دون أي مقابل مادي، وأعطانا الصحة والاستقرار، وخلق لنا الأزواج، وكل ذلك دون مقابل. فنعمة واحدة من نعم الله كالبصر والعقل مثلاً لا يستطيع الإنسان أن يقابلها بكل أعماله، وحينئذٍ تكون الجنة له دون عمل يصح أن يكون مقابلها.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[٢]، فنعم الله علينا لا حدود لها، وقد أعطانا إياها، ونحن نعلم أننا لا نستطيع أن نردّ جزءاً منها. وقد

---

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «جهاد النفس مهر الجنة». غرر الحكم ودرر الكلم: ١ : ٣٧٠/ ٣٩
وقال أبو فراس: ومن يخطب الحسناء لم يغله المهر.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

التفت العلماء إلى هذه المسألة فقالوا: دخول الإنسان الجنة، بعمله أم بتفضّل؟ فالأكثر قرروا أنه بتفضّل، لما أسلفنا.

الثالثة ـ ما يُتقرب به إلى الله، من الله أم من الإنسان؟:

فالعمل الذي يقوم به الإنسان ويمكن أن يقرّبه إلى الله ويدخل به الجنة هو في حقيقته من الله، فأنت حينما تعطي فقيراً مالاً أو طعاماً، أو حينما تساعد عاجزاً على حمل حاجته، فأنت إنما تفعل ذلك بما أعطاك الله من خير أو مال أو قوة وما شاكل ذلك، فأنت بمفردك لا تستطيع أن تفجّر الأرض ماء ولا أن تنبتها زرعاً ولا أن تمنح نفسك القوة، بل كل ذلك من الله.

فما كان من الله كيف يمكن أن نطالب الله به الجنة؟ فليس عندنا شيء نقدّمه إلى الله إلا من الله. ونحن حينما ندعو الله تعالى نقول من ضمن ما ندعوه به: «اللهم أعني على نفسي»[1] كما ورد في الأثر.

وكذلك مسألة الولد البار أو الصدقة الجارية أو العلم الذي ينتفع به، وهي الثلاث الواردة في قوله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث...»[2]. فالإنسان بهذه الثلاث يدخل الجنة بما لم يعمله مطلقاً، لأنه لم يخلق الولد البار، وهذا الولد عمل لأبيه صالحاً فأدخل الله أباه الجنة بما عمل هو له، والله هو الذي خلقه وأعطاه إياه، ورزقه المال والزاد والقوة كي يتمكن من عمل ذلك.

وهنا أود أن أشير إلى مسألة هامة جداً هي أن البعض منا يعتبر أن الحد بينه وبين أبيه هو القبر:

---

(١) مصباح المتهجد: ٤٥٣.

(٢) عوالي اللآلي: ١/ ١٩٧.

طوى الموت ما بيني وبين محمد   وليس لما تطوي المنية ناشر[١]

وهو من أفدح الأخطاء، لأن عين الميت على ابنه، فإن رآه فرحاً فرح له وهو في قبره، وإن رآه مستاءً استاء له وهو في قبره أيضاً. فمثل هذا لا يصح أن يجعل القبر الحد الفاصل بينه وبيننا، بل لا بدَّ من مواصلة العلاقة والعمل الصالح له كي تُنفّس عنه كربات القبر وشدائده.

وقد روي عن أبي الحسن الأول عليه السلام أنه سئل عن الميت: يزور أهله؟ قال: «نعم». فقيل له: في كم يزور؟ قال: «في الجمعة وفي الشهر وفي السنة على قدر منزلته». فقيل له: في أي صورة يأتيهم؟ قال عليه السلام: «في صورة طائر لطيف يسقط على جدرهم ويشرف عليهم، فإن رآهم بخير فرح، وإن رآهم بشر وحاجة حزن واغتم»[٢].

فيجب على الإنسان أن يصلي على أبيه ويحج إن كان مديناً بذلك، دخلت امرأة على رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت له: يا رسول الله إن أمي نذرت الحج فماتت ولم تحج قال: «حجّي عنها، أرأيت لو كان عليها دين أكانت تقضيه؟ دين الله أحق بالقضاء»[٣].

بل إن استقامة الولد نفسها رحمة للوالد، فإن رآه الناس كذلك قالوا: رحم الله أباه، لقد أحسن تربيته ورعايته.

المبحث الخامس ـ المصداق الأكمل لقوله تعالى ﴿طَيِّبِينَ﴾؟:

وبعد كل هذا نقول: من هم أفضل من ينصرف إليهم هذا المعنى ـ توفّيهم

---

(١) تعزية المسلم (ابن هبة الله): ٣٤.

(٢) الكافي: ٣/ ٢٣٠/٣.

(٣) بداية المجتهد ونهاية المقتصد (ابن رشد الحفيد): ١/ ٢٥٧.

طيبين، والدعاء لهم بالسلام وتبشيرهم بالجنة من كل هؤلاء؟- والجواب: هم الشهداء دون شك، لأن الشهداء يخرجون من الدنيا طيبين فتتلقاهم الملائكة وعليهم عطر الشهادة وإشراق المبدأ الذي ضحّوا بأنفسهم من أجله، وهو كل المقدسات التي أمر الله تعالى بالدفاع عنها: «وفوق كل تبرٍّ تبرّ حتى يقتل الرجل في سبيل الله»[١].

وكذلك تسلّم عليهم الملائكة؟ لأنهم أهل لذلك، فهؤلاء أعطوا الله أعمارهم، فأعطاهم الله عمراً مستمراً: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[٢]، ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[٣] فهؤلاء خرجوا من الدنيا رفاقاً فأصبحوا رفاقاً في الجنة أيضاً. قال أحد الشعراء:

ورفاق هذي الدار فيما أسلفوا للكاتبين رفاق تلك الدار

فهم يترافقون بين يدي الله بعد أن جعل مصيرهم إلى الجنة.

وتقليدياً إذا ذُكر الشهداء ذكر في طليعتهم شهداء الطف الذين تميزوا بمزايا، ومنها إصرارهم على التضحية في سبيل الله، فلنستمع إلى زهير بن القين وهو يخاطب الحسين عليه السلام قائلاً: «يا سيدي، إن سيفي بألف، وفرسي بألف، والذي منّ عليّ بهذا الموقف لا أتركك حتى يكلاّ عن جري وفري»[٤].

وذلك أن الحسين عليه السلام جمعهم في ليلة عاشوراء وخطب فيهم قائلاً: «أثني

---

(١) دعائم الإسلام: ١/ ٣٤٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ٦٩.

(٤) كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٤٠٦.

على الله أحسن الثناء، وأحمده على السراء والضراء، اللهم لك الحمد أن وهبتنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، فاجعلنا لك من الشاكرين».

ثم قال: «أصحابي، إنما القوم يطلبونني»، إلى أن قال: «اسلكوا ما بين هذين الجبلين». فيقوم العباس عليه السلام قائلاً: «لِمَ يا أبا عبد الله؟ قبّح الله العيش من بعدك»[١]. فكان كل واحد من أصحابه يقوم فيكلمه بمثل ذلك، ووقفوا موقف الصلابة والعطاء والتضحية أمامه. ولم يقتصر الأمر على الرجال فقط، بل وقف ذلك الموقف المشرّف أيضاً نساؤهم وأطفالهم وشيوخهم، ورحم الله السيد الهندي رحمه الله إذ يقول:

أدركوا بالحسين أكبر عيد فغدوا في منى الطفوف أضاحي[٢]

فهؤلاء قدموا أنفسهم عطاء في سبيل الله، ولهذا نقرأ أن الحسين عليه السلام أراد أن يضرب مثلاً حينما دعا الهاشميين وأراد أن يقدمهم للقتال قائلاً: «إن الحمل لا ينهض به إلا أهله»، غير أن الأنصار رفضوا قائلين: «لا والله لا نرى هاشمياً مضرّجاً بدمه ونحن ننظر، بل نحن أول من يبدأ»[٣]. فكان الحسين عليه السلام يصر على تقديم الهاشميين حفاظاً على صحابته، غير أن الأنصار كانوا يرفضون أشدّ الرفض فتقدموا هم أولاً، فكان أصحابه يتقدمون الواحد تلو الآخر، وكلما وقع أحدهم يذهب إليه الحسين عليه السلام ويجلس عند رأسه ويؤنبه ويمسح الدم والتراب عن وجهه، ويقرأ قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[٤]. ولما فرغ مخيّم الأنصار من أهله التفت إلى مخيم آل بيت محمد

---

(١) أنساب الأشراف: ٣/ ١٨٥.

(٢) ديوان السيد رضا الهندي: ٥٢.

(٣) كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ٤٠٩.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

فأخذ يواصل التضحية بهم في سبيل الله، وكان أهله آل عقيل، وآل جعفر وآل علي بن أبي طالب.

أما بيت عقيل فكان فارغاً إلا من أطفال صغار، وهذا المعنى كان يترجمه زين العابدين عليه السلام بقوله: «إذا مررت على دور آل عقيل خنقتني العبرة، لأني أراها خالية ليس منها إلا أرامل ويتامى»[(١)].

فقد كان أول من قدّم في الطف من آل عقيل ـ بعد مسلم الذي قتل قبل ذلك ـ هو ابنه عبد الله بن مسلم الذي يخاطبه الإمام عليه السلام في زيارته: «السلام على القتيل ابن القتيل، عبد الله بن مسلم بن عقيل»[(٢)].

وعبد الله هذا أمه رقية بنت أمير المؤمنين عليه السلام وكان قد جاء إلى الحسين عليه السلام وقال: «أبا عبد الله، ائذن لي حتى أقاتل بين يديك». فالتفت إليه الحسين وقال: «بني أكره أن تراك أمك صريعاً، بني ارجع». وكأني بلسان حاله يقول له: أنا لا أحب أن أرى أمك والدموع في عينيها وهي تنظر إليك مضرّجاً بدمك.

قال: «لا والله، إني لا أؤثر الحياة الدنيا على الشهادة بين يديك»، قال: «إبرز يا بني» أجابه الحسين عليه السلام إلى ذلك أمام إصراره على القتال، فنزل الميدان وهو يرتجز:

اليوم ألقى مسلماً وهو أبي ... وفتية راحوا على دين النبي

ليسوا بقوم عرفوا بالكذب ... لكن كرام وخيار الحسب[(٣)]

---

(١) كامل الزيارات (ابن قولويه): ٢١٣/ ٣٠٦.

(٢) العوالم (الإمام الحسين): ٣٣٧.

(٣) بحار الأنوار: ٤٥/ ٣٢.

فقاتل قتال الأبطال، ثم وقف يستريح ليمسح العرق عن جبينه، فأقبل إليه سهم سمر يده إلى جبهته، عند ذلك صاح: «وانقطاع ظهراه». وسقط إلى الأرض يفور بدمه، فأقبل إليه الحسين عليه السلام وجلس عنده وقال: اللهم اقتل قاتل آل عقيل»[1].

وهكذا استمرت مواكب التضحية حتى خلا منهم المخيم، فوقف بينه وبين مخيم الأنصار وصاح: «ما لي أناديكم فلا تسمعوني، وأدعوكم فلا تجيبوني».

تلك الوجوه المشرقات كأنها الـ ... أقمار تسبح في غدير دماء

---

(١) ينابيع المودة: ٣/ ٧٣.

الليلة السابعة

الملازمة بين العلم والعمل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾[١].

المباحث العامة للآية الكريمة

المبحث الأول ـ في العلاقة بين العلم والعمل:

من الأولويّات المعتمدة في الحضارة الإسلامية أن كلّ عمل لا بدَّ أن يصدر عن علم، وإلاّ فإنه سيكون وصاحبه عرضة لأخطاء عدّة، حيث إن العمل الذي يصدر عن علم يكون أقرب إلى الصواب عادة، ولذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[٢] أي لا تتّبع الشيء الذي لا علم لك فيه. وقد جعل الله تعالى لكل عمل يصدر من الإنسان قواعد ومقاييس، حتى

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

يكون تصرّف الإنسان فيه علميّاً موجّهاً ومقنّناً، وليس عشوائياً. فالآية تقول: ﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ أي أن هؤلاء كذبوا بمضامين القرآن الكريم وبمضامين الوحي لأنهم لم يحيطوا بعلمه ولم يعرفوه.

ونستفيد من المقطع عدّة أمور، منها:

أولاً: أنهم لم يحيطوا بعلمه، لأنهم ليس لهم قدرة على الاجتهاد، ولم يرجعوا إلى المجتهد لأخذ رأيه. فالإنسان إما عالم، أو مقلّد للعالم[١] فالعالم هو الذي له القدرة على الاجتهاد والاستنباط، أي أنه يفهم الأدلة والأصول، ثم يستخرج الفروع منها، أما الآخر فليس له تلك القدرة على فهم الأدلة واستنباط الأحكام الشرعية، ولذلك نراه يضطر إلى تقليد العالم، حتى يكون فعله صادراً عن علم. فأي تصرف من التصرفات كالصلاة والصوم والزكاة بدون علم فهو باطل.

الاجتهاد ـ تعريفه واقسامه:

ولنعطِ نبذة بسيطة عن اجتهاد المجتهد، ولنبدأه بتعريف الاجتهاد فما هو الاجتهاد؟ الاجتهاد هو بذل الوسع لاستنباط الحكم الشرعي من مداركه المقرّرة من الكتاب والسنّة والعقل وهو تارة يكون مقابل النص، أي مقابل آية ذات دلالة يقينية، أي دليل قطعي الصدور مثل ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾[٢] فهذه الآية واضحة الدلالة في الفرائض، حيث تقول: إن ميراث الذكر حصتان، وميراث الأنثى حصّة، فهنا لا يمكن لأحد أن يجتهد، بل يتّبع النص، وأي اجتهاد يعتبر اجتهاداً مقابل النص وهذا ممنوع عند كل المذاهب الإسلامية.

---

(١) نهج البلاغة/ الكلام: ١٤٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١.

وهناك قسم آخر من الاجتهاد، ويكون بحيث لا يوجد نص صريح من القرآن ولا من السنّة، وليس فيه إجماع، فيأتي المجتهد ليجتهد فيه فيضع الحكم الشرعي.

فهنا عندنا نوعان من الاجتهاد:

الأول ـ الاستحسان والقياس:

وذلك كأن يكون اجتهاده استحساناً وظنّاً أو قياساً على موضوع قد نصّ عليه الشارع، ومثال ذلك شخص يبيع الثياب، فيقول للمشتري: بعتك الثوب بدينارين. وهذا بيع صحيح، أما إذا قال: بعتك الثوب، دون أن يذكر الثمن فهذا باطل، ثم يعمد البعض إلى قياس هذا على المهر في العقد، فيقرّر أن المهر إذا لم يذكر في العقد بطل الزواج، بتقريب أن البيع يبطل إذا لم يذكر في العقد الثمن مقابل المبيع، فكذلك المهر إذا لم يذكر مقابل البضع فإن العقد حينئذٍ يكون غير صحيح، قياساً عليه. وهذا خطأ لأنه لون من الأقيسة الظنية إذ كلاهما حكم مستقلّ، فالمهر ليس ركناً في العقد، لأن الشارع يريد أن يسهّل عملية الزواج ولا يريد أن يضع عقبة في طريقه. فهذا الاجتهاد باطل، لأنه من الاستحسانات والأقيسة الظنيّة.

الثاني ـ المستند إلى الأدلة المعتبرة:

وذلك أن يكون الاجتهاد حيث لا يوجد نصّ من القرآن ولا من السنّة، وليس هناك إجماع في المقام، ولكن توجد قواعد ومبادىء يعتبرها العقل صحيحة، فيرجع إليها الفقيه في استنباط الحكم الشرعي، فمثلاً مسألة ما لا يتم الواجب إلاّ به، فهنا يحكم المجتهد بأنه واجب، لأن المكلّف يعرف أنه لا يمكن أن يصلي بغير طهارة ولذلك فإنه يحكم بكون الطهارة واجبة، لأنها مقدمة للواجب وهو لا يتم إلاّ بها.

ومثال آخر أنه إذا تزاحم الأهمّ مع المهمّ في التطبيق فإنه يقدم الأهم، كما لو أنك رأيت أن الشمس ستغيب ولم تكن قد صليت، فإن الواجب هنا يقتضي عليك أن تسارع إلى الصلاة، لكن لو رأيت شخصاً يحترق، فهنا يختلف الأمر حيث إن الواجب يحتّم عليك أن تقدّم الأهم وهو إنقاذ الشخص من الحريق. وهذا مما يقرره العقل، لأن الصلاة لها بديل آخر وهو قضاؤها خارج الوقت، أمّا روح الإنسان فلا بديل لها، ولذا فهي أهم، وهذا مبدأ عقلاني صحيح.

ومثال ذلك قاعدة «دفع المفسدة أولى من جلب المصلحة». وهي قاعدة لها تطبيقات كثيرة.

فها هنا يتوقف الحكم على مبادىء يقرّها العقل، والله تعبّدنا بالعقل، وأمرنا أن نستدل على وجوده بالعقل، ومنعنا من التقليد في بعض الأمور فإذا كان وجود الله يُستدل عليه بالعقل، فهل يعقل ألا نصل إلى حكم الله عن طريق العقل؟ فهذا الاجتهاد هو المقبول.

الثالث ـ الاجتهاد في النص:

وهناك نوع من الاجتهاد يسمى الاجتهاد في النص، أي في نصٍّ ليس قطعيّ الدلالة، وإنما هو ظنّيها مثل خبر الواحد، والآية التي تحتمل أكثر من معنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[1]، فالقرء: الحيض عند العرب، وكذلك الطهر عندهم، فهو من الألفاظ المشتركة مثل لفظة عين التي هي للعين الناظرة وللركبة وللجاسوس ونبع الماء وللشريف وغير ذلك. وهذه المعاني تحددها القرائن.

فإذا لم تكن هناك قرينة على تعيين المراد كما في الآية، هل يعتبر هذا ثلاثة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

أطهار أو ثلاث حيضات. وهذا الإشكال مبتنٍ على وجود فرق في المقام حيث إنه إذا اعتبر القرء حيضاً فمعناه أنه بمجرد أن تنتهي الحيضة الثالثة تنتهي عدتها، أما إذا كان القرء طهراً فإنها يجب أن تنتظر حتى ينتهي الحيض وتتطهر وحينها ستنتهي عدتها.

فالفقيه إذا ترجّح عنده دليل أخذ به وإن خالفه الآخرون، وهذا الاجتهاد مقبول أيضاً. لكن للأسف إن المذاهب الإسلامية الأخرى أغلقت باب الاجتهاد، أي حرمت المسلمين من نبع ضخم وإن كان قد عاد العمل به من أيّام الشيخ محمد عبده حيث بدأ الأزهر الشريف ومجموعة من المؤسسات الإسلامية ينادون بضرورة فتح باب الاجتهاد، وخصوصاً في أيام الشيخ محمود شلتوت الذي كان من الدعاة إلى فتح هذا الباب.

فإذا أغلقنا باب الاجتهاد فإننا نغلق باب الحياة، لأن الفقه يغطّي كل أبعاد الحياة، حيث إنه ما من واقعة إلاّ ولله فيها حكم، فإغلاق باب الاجتهاد معناه وضع الناس في حرج، وهو حَجر على الفكر الإسلامي لكن ـ كما قلنا ـ تنادت الأصوات في الأيام الأخيرة، وارتفعت بضرورة فتح باب الاجتهاد ثانية.

هذا عند أهل السنة، أما نحن فعندنا رافد لا يخطىء، وهو ما يتمثّل بأهل البيت عليهم السلام فلم يغلق باب الاجتهاد حتى الآن، فما نملكه هو ينابيع متدفقة على مرّ التاريخ، ولكن نحن ـ المسلمين ـ لا يقرأ بعضنا بعضاً وهذا ممّا يؤسف له، فالمسلم عليه أن يطلع على روافد المسلم الآخر حتى يزول الكثير من سوء الفهم الناشىء في أذهانهم عن إخوانهم نتيجة خلفيات وموروثات ومقروءات وأحكام اعتباطية مسبقة. فنحن عندما نطلّع على فقه المذاهب الأخرى فإن عليهم أن يطلعوا على فقه أهل البيت عليهم السلام سواء كان الفرع الزيدي أو الإمامي.

وكذلك الإباضية حيث إنهم يملكون ثروة علمية من آثار الإمام علي عليه السلام، غاية الأمر أنه حصل خلاف فيما بينهم.

لكن الأمر المؤسف أن البعض قد فتحوا متاجر للتفرقة ليحاربوا الوحدة الإسلامية، فالمذاهب الإسلامية ليست غايات وإنما وسائل للحكم الشرعي، فإذا كان ذلك كذلك فمن الضروري أن يطّلع المسلمون على فقه بعضهم البعض.

المبحث الثاني ـ حديث العلم والجهل:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ نفهم من هذا أن الجهل رزية وأن العلم نور، لذلك فإن المشرع الإسلامي كان يقول على امتداد الدعوة والرسالة: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»[1] لأنه يريد مجتمعاً متعلماً ليس فقط علم الفقه والأصول، وإنما كل العلوم، فما من علم من العلوم. إلا وكان الإنسان مندوباً إلى معرفته. ولكننا ببالغ الأسف انغلقنا على علمي الفقه والأصول، في حين أن العالم يحتاج إلى علم الطب والهندسة والزراعة وغيرها من العلوم.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ليت السياط على رؤوس أصحابي حتى يتفقهوا»[2]. فالعلم طريق للوصول إلى الكمال النسبي، فأي عالم في أي مجال من مجالات العلوم هو في رعاية الله. يقول الحديث النبوي الشريف «إذا مشى طالب العلم بسطت له الملائكة أجنحتها»[3]، أي أن الطالب للعلم ـ كما نستطيع أن نقول ـ إذا مشى فإنه يستخدم كل الطاقات والقوى التي منحه إياها

---

(١) مصباح الشريعة: ٢٢.

(٢) المحاسن: ١/ ٢٢٩/ ١٦٥.

(٣) الجامع الصحيح (سنن الترمذي): ٥/ ٤٨ـ٤٩/ ٢٦٨٢.

العلم وجعلته عالماً. فالعالم تحمله الدنيا، أما الجاهل فإنه عبء عليها، وقد يضرُّ ولا ينفع.

كما أن الأمم تقاس عظمتها بما عندها من علماء، فنحن نحتاج للعلوم الأخرى مثل الهندسة الوراثية التي بمعرفتها يمكن زيادة إنتاج الأرض في البلاد الإسلامية بدل من أن تتصدق بها الكفرة علينا، ونحن نرى الصحابة في عهد الرسولﷺ قد استثمروا الطاقات كلّها، فنزلوا إلى الأرض وأخذوا يعملون، حتى أنتجوا.

فالعلم لم يقتصر على جانب واحد، ونحن بحاجة لكل مجال من مجالاته الحيوية. كان أحد طلاب العلم قد وقف على باب عالم، وقال: أعطني مما لا يؤلم نفساً ولا يتعب ضرساً، فأمر له بدراهم، فقال: أنا لم آتِ لطلب دراهم وإنما جئت لأطلب هدى، أنا طالب هدى لا طالب ندى، فأدخله بيته وأجابه عن مسألته، فخرج وهو يقول: إن علماً أزال لبساً خير من غنًى أسعد نفساً[١].

فالأموال تذهب، أما العلم فيبقى عندي ملكة أعيش بها طول الدهر ويمكن لهذه الملكة أن تمدني بالأموال وتجيبها إليّ. فالعلم يجيء بالمال أما المال فلا يأتي بالعلم إلاّ إذا استخدم وسيلة لذلك.

كان للمأمون العباسي مجلس ليلي في مرو (خراسان)، فيأتي إليه خواص ندمائه من علماء وأدباء، لأنه كان على مركز علمي كبير، فكان أن دخل عليه النضر بن شميل المازني وهو رجل ضليع في التاريخ واللغة والنحو، وكان عليه قميص مرقوع، فسأله المأمون: ما هذا الذي تلبسه؟ قال: قميص أتبرد به عن حرّ مرو. فقد كانت مرو منطقة حارة، فهو يقول له: هذا قميص من قطن

---

(١) تاريخ مدينة دمشق: ٥١/ ٣٩٠.

لأجل حرارة الجو. فقال المأمون: لا، ولكنك امرؤ قشف، أي أنت تقشف.

فجلسا يتحدثان إلى أن وصل الأمر إلى ذكر الزواج والنساء، فروى المأمون حديثاً عن هشام عن عروة عن النبي ﷺ: أن الرجل إذا تزوج المرأة لمالها وجمالها كانت سَداداً من عوز. فقال النضر: صدق هذا الراوي، ولكن أنا حدثني عوف عن علي بن أبي طالب أن الرجل إذا تزوج امرأة لمالها وجمالها كانت سِداداً من عوز. فقال المأمون: ما الفرق؟ فقال له: الفرق كبير لأنها بفتح السين بمعنى الاعتدال والقصد فقولنا: فلان مسدد، أي معتدل أي ليس ذا إفراط ولا تفريط، وأمّا إذا كانت بكسر السين فهي بمعنى البلغة، أي مثل المسافر يأخذ كمية قليلة من الطعام تبلغه ـ أي توصله ـ إلى أن يحصل على مقصده. فالنبي ﷺ يقول: إذا تزوج رجل امرأة لأجل مالها وجمالها فإنها تسدّ حاجة لديه، أما إذا تزوجها لأجل دينها فالأمر يختلف. فالتفت المأمون وقال له: قبَّح الله من لا أدب له، فهل أنت تُلحنني (أي تحرك الكلمة لي) وتريد تخطئتي؟ قال: لا، أنت لم تلحن وإنما قد رويت عن هشام، وهشام كان لحّانة، فأنت حفظتها كما رواها، فقال: قبح الله من لا أدب له، وأمر له بثمانين ألف دينار.

يقول النضر: فخرجت واستلمت المبلغ، فسألني الفضل كيف أمر لك الخليفة بثمانين ألف دينار؟ فحكيت له القصة. فقال الفضل: سأعطيك أنا أيضاً ثمانين ألف إلا قليلاً، حتى لا أساوي الخليفة في العطاء.

يقول: فخرجت بمبلغ (١٦٠) ألف دينار تقريباً من أجل حرف واحد. فقطعاً أن العلم هو الذي يأتي بالمال وبالرقي، وكان أرسطو معلم الإسكندر ذي القرنين، فكان الإسكندر يحترم أبويه احتراماً عادياً، لكن إذا دخل عليه

أستاذه أرسطو فإنه يكنّ له احتراماً عجيباً، فيستقبله ويودّعه، فقالوا له: أنت لا تحترم أباك بقدر ما تحترم مؤدّبك ومدرسك؟ فقال: أبي أخرجني إلى كون المصائب. أما هذا الرجل فقد أخرجني إلى عالم النور. فهذا جدير بأن أقدّره أكثر، فمنزلة العلم لا يعادلها شيء. فالحياة بدون علم ظلام دامس.

المبحث الثالث ـ مسؤولية العالم تجاه الجاهل:

تقول الآية: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ ونستفيد أيضاً من هذا المقطع أن الجاهل عدو العلم والعلماء، فـ«الناس أعداء ما جهلوا»[١]. فأكثر الناس لو كان عنده علم ما حارب غيره، فهو بسبب الجهل يعادي غيره ويحاربه. وأُلفت نظرك إلى نقطتين، كان ثمامة بن أشرس من العلماء والأدباء، وكان من ندماء هارون الرشيد وكان الرشيد يحترمه، فغضب عليه هارون الرشيد يوماً فأمر به إلى السجن، وكان السجان يوماً يقرأ القرآن فسمعه يقرأ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾[٢] بفتح ذال المكذبين، أي الأنبياء ـ أي الويل والنار لهم، وهذا كفر. فقال له: إن قراءتك غير صحيحة، فالصحيح أن تقول: للمكذّبين، فالمكذِّبون هم الذين كذبوا الأنبياء. فقال له: يا عدو الله، قيل لي: إنك قدري، فلم أصدّق. ثم أوجعه ضرباً.

فلما خرج من السجن ـ وكان الرشيد قد رضي عنه ـ قال له الرشيد: حدثني عن أعظم ما يمرّ بالإنسان ويؤذيه. فقال: أعظم شيء يمرّ به أن يجري حكم الجاهل على العالم؟ فظن الرشيد أنه تعريض به، فقال: إنه ليس تعريض بك ولكن وقع لي حادث، ثم حكى له قصته مع السجان، فضحك الرشيد ضحكاً شديداً[٣].

---

(١) نهج البلاغة/ الحكمة: ١٧٢.

(٢) سورة المرسلات، الآية: ١٥.

(٣) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: ١/ ٦٦٩.

فتعايش العالم بين الجهّال أمر صعب، لكن على عاتق العالم رسالة، وهي أن يبصّر الجاهل، والمشكلة هنا كبيرة حيث توجد قضايا ومعتقدات عند العوام لو تكلمنا فيها لأعطت ردوداً معكوسة. وهذا بلاء كبير، حيث إن هناك قضايا كثيرة ليس من السهل على العالم أن يعالجها، ولا يمكنه تركها، ولذا كتب الإمام علي عليه السلام إلى قضاته: «اقضوا كما كنتم تقضون، فإني أكره الاختلاف، حتى تكون للناس جماعة أو أموت كما مات أصحابي»[1].

فهناك أشياء تحتاج لزمن طويل لمعالجتها. وهذه القضايا التي توجد عند العوام إنما لا يستطيع العالم تصحيحها، لأنه مفتقر إليهم من ناحية، ومن ناحية أخرى إن هذه الأمور قد تعطي ردود فعل معكوسة وإلا فإنّ هناك مسؤولية على العالم هي أن ينير الطريق للجاهل مهما كلف الأمر.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ فهؤلاء لم يكونوا جهالاً لما كذبوا بذلك. أما الذي عنده علم فلا يكذّب بالرسالات هناك فرق بين منطق الجاهل ومنطق العالم حتى لو كان ملحداً، فمثلاً عندما تكلّم شخصاً في أوروبا بأن الدليل على وجود الله كذا وكذا، فإنه يقول: هذا صحيح، ولكني إلى الآن لم أقتنع بهذه النظرية، وسأبقى هكذا إلى أن تثبت عندي. أما إذا أتيت إلى شخص في الشرق وتقول له ذلك الكلام، فإنه يقول: اذهب، وإلاّ فأرني الله حتى أصدّقك، وهذا هو الفرق بين المنطقين وهو فرق شاسع وكبير.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ فهؤلاء لو ذهبوا للنبي صلى الله عليه وآله أو للعلماء وسألوا لخفّت المشكلة، ونحن الآن نريد أن يدق علينا العالم أبواب بيوتنا ليعلمنا، فلماذا نأف من حضور جلسة العلم. لقد كان الأولون يقطعون آلاف الأميال ليسمعوا حديثاً عن الرسول صلى الله عليه وآله، أما الآن فعندنا مكتبات ومجالس للذكر ووسائل للإعلام ومع ذلك هي متروكة.

---

(١) تهذيب الأحكام: ٩/ ٢٥٩ـ٩٧٠.

فالإنسان أهل لحمل العلم والمعرفة، وعنده طاقات فكيف يضيعها؟ فالواجب عليه أن يحضر مجالس العلم والأخلاق، لأنه ليس جسماً وغريزة فقط بل هو عقل وروح، وكلاهما يحتاج لغذاء، والعظماء يقصدون دار الذكر ويجلسون في طرف المجلس إلى جانب (الأحذية) من أجل التزود بالعلم:

كن عالماً وارضَ بصفّ النعال ... ولا تكن صدراً بغير الكمال

فإن تصدّرت بلا آلةٍ ... صيّرت ذاك الصدر صفّ النعالِ[١]

فعلى الإنسان ألاّ يأنف من حضور مجالس العلم أينما كانت.

المبحث الرابع ـ علم النبي ﷺ وسعة صدره:

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ فالآية الكريمة تسلّي النبي ﷺ حيث تقول له: إن الذين قبلك من الأنبياء عليهم السلام قد تعرضوا لهذا المصير نفسه، فلا تذهب نفسك على هذا الأمر حسرات، حيث إن النبي ﷺ كان في بعض الأحيان يتألّم، لأنه يرى في هؤلاء جفوة وغلظة، فهو ﷺ يحاول أن يرشدهم في الكعبة، وبدلاً من أن يصغوا إليه كانوا يبعثون جواريهم بالفرث والدم والكرش ليقذفنه على ظهره ﷺ وهو ساجد، وكان رسول الله ﷺ يمسح ذلك عن جسده ويقول: «اللهم اغفر لقومي، إنهم لا يعلمون»[٢].

وبهذا الصبر والعطاء استطاع رسول الله ﷺ أن يحوّل هذا الجو إلى ألق وعطاء وعلم، وذلك بفضل خلقه الكريم العظيم.

فالآية تقول له: لا تتألم فإن الأنبياء من قبلك تعرضوا للمصير نفسه،

---

(١) المستطرف من كل فن مستظرف: ١/ ٥٤.

(٢) بحار الأنوار: ٩٥/ ١٦٧.

فالنبي نوح عليه السلام كان يشتغل بالسفينة نهاراً، فإذا جاء الليل راح قومه المكذبون به يحدثون بالسفينة فيملؤونها قذارة ومع ذلك فإنّه عليه السلام صبر إلى أن أكمل مهمّته وقد تعرض إلى الاستهزاء والحجارة والاعتداء. فالآية تقول للنبي: إن طريق الإصلاح لا بدّ أن تدمي فيه رجلك بالحجارة، وأن تُشتم بما لا ترضاه وتسمع ما لا ترضيه. وفعلاً فقد قابلوه بعبارات نابية، بحيث إنه لما أراد إرشادهم جاءه عبد الله بن أبي فقال له: لقد آذيتنا بنتن حمارك يا محمد. أي رائحة حمارك (اليعفور) والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يسمع ويسكت، فهذا طريق الأنبياء.

فمن عنده رسالة لا بدّ أن يتحمل جميع ما يمكن أن يمر به من متاعب: لأن له هدفاً يحاول أن يصل إليه.

المبحث الخامس ـ في حسن العاقبة وسوئها:

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ فالذين قابلوك بالأذى ووقفوا بوجه رسالتك وحجبوها عن الناس هم ظالمون، وعاقبتهم الهلاك، أما رسالتك فعاقبتها الخلود، فأين الذين وقفوا بوجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم أين قريش وكبرياؤها وغطرستها؟ أليس الذي خُلّد الآن هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته حيث تسمع الشهادة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم على المآذن عند أوقات الصلاة؟

فالذي يقود المجتمع عقيدته وإلا ما الذي يدفعني لأعطي أموالي إلى غيري، سوى أن الله تعالى أمرني بذلك؟ كما أنه تعالى أمرني بأن أقيم الصلاة وآتي الزكاة.

فديني يحكمني من الداخل، فأقدّم ما عندي زكاة لوجه الله، وديني يأمرني بالامتناع عن اللذائذ.

فهذه آثار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أما الذين وقفوا بوجه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبوجه دعوته فقد تحولوا إلى رمل وتراب وتحولوا إلى مذمّة في فم التاريخ. دخل رجل كانت

عنده قضية على سليمان بن عبد الملك فطرحها أمامه، فوقع جدال بينه وبين الآخرين فالتفت إلى سليمان وقال له: اذكر يوم الأذان. فسأل سليمان شخصاً بجانبه عن ذلك فقال له: إنه يقول: اذكر الآية: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١] أي يقول لك: إن ظلمك هنا في الدنيا، أما يوم القيامة فلا نفوذ لك، حيث ستعرض بين يدي الله. فقال سليمان: نِعم ما قلت[٢].

فالآية الكريمة تقول: انظر كيف كان عاقبة الظالمين الذين حالوا بينك وبين أداء رسالتك. ثم إن ثمرة الحياة بهذا أصبحت ناشئة، ولذلك فإن منزلة العالم لا تضاهيها منزلة.

ونحن الليلة نذكر قمر بني هاشم العباس عليه السلام فهو ذو منزلة رفيعة، حيث إنه كان عالماً، وقد ذكر جملة من المحققين أنه عليه السلام كان من علماء أهل البيت عليهم السلام وذلك لأدلة كثيرة حيث يذكر أحد العلماء أنه قد أخذ من أبيه عليه السلام وأمّه علماً كثيراً. فنحن نعرف أن فضة من جواري الإمام علي عليه السلام، وكان عندها إلمام بالقرآن الكريم، وكانت تجيب بآيات قرآنية، ولها منزلة كبيرة في أماكن العلم[٣] ومثلها أناس عاشوا في بيوت العلم خدماً لأصحابها، وحملوا علماً كثيراً، وهو ما نجده عند بعض بوابي وخدم الأئمة عليهم السلام فقد كانوا على علم. وهذا علي بن أبي طالب عليه السلام الذي ربي في بيت النبوة والعطاء يقول: «علمني رسول الله صلى الله عليه وآله ألف باب من العلم ينفتح لي من كل باب ألف باب»[٤].

والعباس عليه السلام هو ابن مدينة علم الرسول صلى الله عليه وآله، لذلك فهو صاحب علم

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٤.
(٢) المستطرف من كل فن مستظرف: ١/ ٢٣٥.
(٣) مجمع النورين: ٣١.
(٤) الخصال: ٥٧٢/ ١.

وفضيلة، ولهذا تخاطبه الزيارة: «لعن الله أمّة استحلّت منك المحارم، وانتهكت في قتلك حرمة الإسلام»[1].

فحرمة الإسلام لا تهتك بقتل إنسان عادي وإنما بقتل حملة الإسلام. فهذا المقطع من الزيارة ينم عن أنه عليه السلام كان على علم جمّ ومن العلماء، وهذا ما يتّضح جلياً في كل مواقفه التي تنم عن علم وعقيدة. وهو عليه السلام كيان مشرف حيث يدعو إخوته من أمّ البنين رضي الله عنه. وهم أربعة أولاد خرجوا للطف مع الحسين عليه السلام ـ ويقول لهم: تقدموا حتى أرزأ بكم.

وحينما ينقل بعض المؤرخين الحاقدين هذا المقطع يروي أنه قال لهم: «تقدموا حتى أرثكم»[2].

فلك أن تتصوّر هذا الحقد، فهل إن العباس عليه السلام كان يأمل أن يبقى بعدهم حتى يرثهم؟ وهل هذا له صلة بنفسية العباس عليه السلام الذي جاء ليضحي بها في سبيل الله؟ وهكذا نرى مبلغ النفوس الخسيسة التي تحاول النيل من العباس.

على أية حال فقد قال عليه السلام لإخوته: «تقدموا حتى أرزأ بكم»، أي أقدمكم قرابين لله، فإني أريد أن أراكم مصرّعين حتى ينالني الأجر، ثم أضحّي بنفسي.

وفعلاً قدم إخوته قرابين بين يدي أبي عبد الله عليه السلام، فهو يواسي الحسين عليه السلام مواساة لا حدود لها، يقول الشيخ المفيد: «أقبل العباس عليه السلام إلى أخيه الإمام الحسين عليه السلام وقال له: يا أبا عبد الله، هل سمعت أصوات النساء والأطفال؟ اسمح لي أن أجلب لهم قليلاً من الماء»[3].

---

(١) بحار الأنوار: ٩٨/ ٢١٨.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/ ٣٤٢.

(٣) بحار الأنوار: ٤٥/ ٤١.

وبعد أن قتل إخوته رجع إلى المخيّم، فنادته إحدى جواري أخته زينب، وكانت واقفة على باب الخباء وقالت له: أبا الفضل، لي إليك حاجة. فرجع إليها فقالت: إن أختك زينب داخل الخباء، وهي تريد محادثتك.

كانت هذه المحاورة قد وقعت إثر محاورة أخرى بين عبد الله بن أبي المحلّ - ابن عمّة أم البنين، وكان صديقاً لابن زياد - وبين العباس عليه السلام، حاول فيها أن يميل العباس عليه السلام عن أخيه أبي عبد الله عليه السلام، وكان عبد الله بن أبي المحل قد قال لابن زياد: عندنا أولاد أختنا مع الحسين، فهل تمانع أن تمنّيهم - أي ترغّبهم بمال أو بمركز - حتى نستطيع أن نجلبهم ونفردهم عن الحسين؟ فقال ابن زياد: لا مانع لديّ، اكتب الكتاب وأنا أوقعه. فأخذ صحيفة كتب بها ما يريد فوقّعها ابن زياد وأرسلها للعباس، فتبسّم العباس وقال: «لا حاجة لنا في أمانكم أمان الله خير من أمان ابن سمية»، ثم أرسل إخوتهم لخالهم مع الرسول: «لعنك الله ولعن أمانك، لئن كنت خالنا أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له؟»[1].

والذي يبدو أن زينب عليها السلام سمعت هذه المحاورة فقالت له: أبا الفضل: إن أبانا علي عليه السلام قد تزوّج أمك من أجل هدف هو أن تلد له أولاداً ليكونوا أنصاراً لأخيهم الحسين عليه السلام في طفّ كربلاء، فلا تبعد عنا. فقال: أخيّة قرّي عيناً، أنا وإخوتي فداء للحسين عليه السلام ولأهل بيته.

هذا والحسين عليه السلام لم يكلفه بقتال، وإنما طلب منه الماء للعيال:

يومَ أبو الفضل تدعو الظامئات به	والماء تحت شبا الهندية الخذم
والخيلُ تصطّك والزغب الدلاص على	فرسانها قد غدت ناراً على علم[2]

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ١٠٣.

(٢) الدلاص: الدرع اللينة البرّاقة، العين: ٧/ ٩٩.

فأقبل الليث لا يلهيه خوفُ ردى بادي البشاشة كالمدعو للنعم[1]

فامتطى جواده ونزل إلى الفرات إلى أن انتهى إلى المشرعة يقول الإمام الصادق عليه السلام: «كان قلب عمّي العباس كصالية الجمر من الظمأ»[2]. فمد يده إلى الفرات وأخذ غرفة وأدناها إلى فمه لكنه سرعان ما قال: لا والله لا أشرب بارد الماء وأبو عبد الله عطشان. وهكذا كان كل همه أن يوصل الماء إلى الأكباد العطشة، وملأ قربته وحملها وأقبل بها إلى معسكر أخيه عليه السلام، وكان الجيش في انتظاره، فقطعوا عليه الطريق وضُرب على يمينه وقطعت، وضرب على شماله فقطعت فاحتضن اللواء بين زنديه وضمه إلى صدره، وأقبل بالماء، وبينما هو كذلك إذ ضرب على رأسه بعمد من الحديد فخر إلى الأرض منادياً. السلام عليك يا أبا عبد الله، فوصل صوته إلى الحسين فأقبل مهرولاً على مصرعه، ووقف عنده، ولم يكن العباس عليه السلام يرى، لأن إحدى عينيه جمد عليها الدم والأخرى نبت فيها السهم فأحسّ بحركة رجل فظن أنه من جيش ابن زياد جاء ليحتزّ عنقه، فقال: يا هذا، أقسم عليك بمن تعبد، إلاّ أمهلتني فواق ناقة. قال: «ما تصنع بها؟» قال: حتى يأتي أخي وابن والدي فأودِّعه ويودّعني، وأشمّه ويشمني. قال: «أنا أخوك وابن والدك» قال: ضع فمك أبا عبد الله على فمي. فوضع فمه على فمه إلى أن فاضت روحه الطاهرة، وأخذ الحسين عليه السلام يكفكف دموعه[3].

خوية العلم گلي وين اوديه ينور العين دربي بيش أجد بيه.

أراد الحسين عليه السلام حمله إلى الخيمة، فقال له العباس عليه السلام: يا أخي تحملني. قال: «الماذا؟» فأجابه بأنه قد وعد سكينة بالماء وهو مستحٍ منها.

يكله أيست سكنه من الماي تجي يمّي ذليلة وتوگف احذاي

---

(١) ديوان الشيخ هاشم الكعبي: ٨٠.
(٢) بحار الأنوار: ٤٥/ ٤٠.
(٣) ينابيع المودة ٣/ ٦٨.

اليوم السابع

الإخاء ودوره في بناء الأُسرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

قد يُتصور أن الإخاء النسَبي محصور بثلاثة أقسام: الأخوّة لأب وأمّ، والأخوّة لأم فقط، والأخوّة لأب فقط. وهذه الآية تبحث في مجموعة من المضامين لا بدّ من تغطيتها، حيث سنتناول كلّ مضمون في مبحث مستقل:

المبحث الأول ـ أقسام العلاقات بين الإخوة:

أول ما يمكن ملاحظته في المجتمع أن العلاقات بين الإخوة من أب وأم، هي غير تلك التي تكون ما بين الإخوة من أب فقط. وقد سُئل أحد العلماء

(١) سورة يوسف، الآية: ٧٧.

يوماً: لماذا نرى أن الصحابة كأنهم أبناء لأم واحدة، وعلي بينهم كأنه ابن علة؟ قال: ولم لا يكون كذلك وقد سبقهم سلماً، وتقدّمهم علماً، وفاقهم حلماً، وبزّهم شجاعة؟ والجنس لجنسه أميل[١].

ومن هذا نفهم أن الإنسان يميل عادة إلى أبناء مستوياته القريبة منه، أما علي عليه السلام فإن ما عنده أوجب أن يُحسد عليه.

وموضع الشاهد هنا أن ابن العلّة يختلف عن غيره من الإخوة، مما يدل على أن هذه الظاهرة كانت معروفة من بدء التاريخ. فما السبب في وجودها؟ نحن نلاحظ أن الأواصر التي تكون بين الإخوة من أبوين، أقوى منها بين الإخوة الذين يكونون من أب فقط. فهل هذا آتٍ من كون رحم الأمّ أكثر تأثيراً من صلب الأب؟

هل تدخل طاعة الوالدين في باب التزاحم؟:

ويعالج الفقهاء هذه المسألة في باب التزاحم، فالله أمرنا بإطاعة الوالدين، بشرط ألاّ تسبّب معصية لله، فلو فرضنا أن طاعة الأبوين لا يمكن اجتماعها كأن يقول لي أبي: ادرس في هذه المدرسة، وتقول أمي: لا: فهنا لا يمكن أن أجمع بين الأمرين، ويحصل التكاذب في أصل الجعل على حدّ تعبير الفقهاء ـ أي أن الدليل الذي يأمرني بطاعة الأبوين يحصل فيه التكاذب ـ فكيف يقول لي الله: أطعهما، ثم لا يمكن أن تجتمع طاعتهما؟.

في مثل هذه الحالة يقول الفقهاء: إن كان مرجِّح قدّمناه، فتصبح المسألة من باب التزاحم، وللتزاحم شروط لا مجال لذكرها الآن، ومن الأمثلة على التزاحم والترجيح أنني مثلاً أكون مأموراً بصلاة واجبة وأخرى استحبابية في

---

(١) الأمالي (الطوسي): ٦٠٨ـ٦٠٩/ ١٢٥٦.

وقت واحد، وكان وقت الواجبة مضيّقاً، ووقت الاستحبابيّة موسّعاً، واجتمعت الصلاتان في وقت لا يمكنني فيه أن أجمع بينهما، فعندئذ أقدّم الصلاة الواجبة، لأهميّتها. وهنا يتضح عندنا معنى المرجّح.

وفي مسألة الأم والأب يقول الفقهاء: عند عدم وجود المرجّح فرأي الأمّ أهمّ، وأمرها مقدّم على أمر الأب. وهذا عين الحقيقة، لأنك تلمس بصمات الأمّ واضحة على أي جيل من الأجيال. ويقسم علماء الاجتماع المجتمع إلى قسمين: مجتمع ينسب إلى الأم ومجتمع ينسب إلى الأب، ففي بعض المجتمعات يطغى الأب على الأسرة وفي بعضها تطغى الأم، وفي بعضها يحصل توازن بين الطرفين. فالمشرّع الإسلامي يعطي الأهمية للأمّ حسب القاعدة التي تقول: الغنم بالغُرم[1]. فمن يخسر أكثر يأخذ مقابل خسارته، والأم هي التي تخسر أكثر. فالأب يحمل ابنه خفيفاً ولا يشعر به، والأم تحمله ثقيلاً وكأنها تحمل جبلاً[2] خصوصاً من تصل منهن إلى عشرة أشهر. وناهيك عن ساعة الوضع والولادة.

يقول الإمام مالك في رأي يتفرد به عن المذاهب الإسلامية الأخرى كلها: إذا بلغت الأم ستة أشهر في الحمل لا تنفذ تصرفاتها المالية. والسبب في ذلك أنها أشبه بالمريض مرض الموت الذي لا يُعطى الحق في التصرف بأمواله، لأن ملكيته أصبحت متزلزلة فتنتقل لأولاده. وعندما تصل الأم إلى هذا الشهر من الحمل تصبح معرّضة للموت: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[3].

وليس الحمل فحسب، وإنما تأتي الولادة والحضانة والرعاية. فيأخذ الولد

---

(١) المعجم القانوني: ٢/ ٥٧٦.
(٢) معجم البلدان: ٥/ ٤٤٢.
(٣) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

من أبعاد الأم النفسية والجسدية، فيكون بهذا ألصق بأمّه، فلذا يقدم قولها في حالة التزاحم، فالإخوة لأمّ يكون بينهم التصاق أكبر عادةً.

منشأ المعرفة عند الإنسان بين العلم والدين:

وهنا يرد هذا السؤال: لماذا هذا الالتصاق؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال نستعرض رأي علماء الاجتماع في الطفل المولود حديثاً، فهم فيه قسمان:

قسم يقول: إنه يخرج من بطن أمه وليس عنده أيّة مسبقات ذهنية مختزنة، وكل ما يحصل عنده بعد ذلك فإنما يتعلّمه من التجربة أو من محيطه. وقسم يقول: إنه ليس كذلك، وإنما تكون عنده مسبقات ذهنيّة مختزنة أخذها بالوراثة.

ونظرية الإسلام في الموضوع واضحة، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١].

فالمولود يولد وهو خالي الذهن من أيّة معلومات، ويأخذ كلّ شيء من المجتمع بواسطة المتلقّيات، وهي السمع والبصر والفؤاد وغيرها. ولكن هذا في الأمور العلميّة، أمّا الغرائزيّات فهي مولودة مع الإنسان.

يقول المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾[٢]: إن النجدين هما الثديان[٣]، والنجد هو المرتفع[٤]. والطفل أوّل ولادته يلتقم الثدي، وكأنه

---

(١) سورة النحل، الآية: ٧٨.

(٢) سورة البلد، الآية: ١٠.

(٣) مجمع البيان: ١٠/ ٣٦٣.

(٤) خصائص الوحي: ٥١.

مدرّب سابقاً على الرضاعة، فتراه يحرّك فمه حركة رحوية ويمتصّ اللبن، فمن أين أخذ هذه الدربة والمهارة؟ إنها غريزة توجد وتولد معه. وهناك جملة من الأشياء تولد مع الإنسان، ولها ارتباط بالغرائز والوراثة، ولا علاقة لها بالبيئة.

والأمر المتعلّق بسؤالنا الذي أثرناه حول العلاقة بين الإخوة الأشقّاء وغير الأشقاء هو أننا نريد أن نسلّط الضوء على إخوة الإمام الحسين عليه السلام الذين خرجوا معه إلى الطفّ، فلم يخرج معه أخ شقيق، إنما كانوا كلهم إخوة لأب، وبالنتيجة فنحن لا نريد أن نقول: إن هذه الظاهرة من العلاقات المتوتّرة بين الإخوة من أب، أو العلاقات الوطيدة بين الأشقّاء، وهي قاعدة حتمية لا يمكن أن تنخرم، بل الذي نريد قوله: إن الغالب فيها كذلك.

علاقات الأشقّاء من وجهة نظر علم الاجتماع:

فهل هذه العلاقة آتية من الرحم لأنه مصدر الرحمة باعتبار الدفء العاطفي الذي يسكبه على الأولاد؟ إنها ظاهرة موجودة في المجتمع على كلّ حال، ولعلماء الاجتماع فيها رأيان:

فبعضهم يقول: إنه أمر متأثر إلى حدٍّ ما بالوراثة.

والبعض الآخر يقول: إن علاقة ذلك بالبيئة لا بالوراثة، لأن الطفل أوّل ما يولد في الأسرة تقوم الأسرة بغلغلة هذا الشعور عنده.

ويأتي هذا الشعور من تزاحم النساء على رجل واحد، وهذا يخلق لوناً من التوتّر العاطفي الذي ينعكس بعد ذلك على الأبناء. ولذا نرى أن المشرّع الإسلامي لما أباح تعدّد الزوجات إلى أربع[1] ترك لنا نحن تقدير الموقف.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣ ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾.

المبحث الثاني ـ آراء المفسّرين في سرقة يوسف عليه السلام:

تقول الآية: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾. فما هي السرقة المزعومة التي ارتكبها يوسف عليه السلام؟ إن القرآن الكريم عندما يشرح لنا قصّة النبي يوسف عليه السلام يريد منا أن نأخذ العظة والعبرة، ونتأدب بها ونتربّى عليها، لا أن نتسلّى بالقصّة فقط.

إن إخوة النبي يوسف عليه السلام قالوا في بنيامين أخيه عليه السلام: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾. وذلك لما أراد يوسف عليه السلام أن يأخذ أخاه بنيامين إلى جانبه، فافتعل هذه المسألة بأن وضع الصاع في رحل أخيه.

أما عن سرقة يوسف المنسوبة له من إخوته فإن للمفسرين آراء متشعّبة فيها، وعادة ما تظهر مذاهب المفسّرين في الأمور غير المحدّدة. ففي القرآن الكريم أشياء محدّدة معيّنة لا يستطيع المفسّر أن يتلاعب بها أو يُخضعها لرأيه، أما مثل هذه الأمور القابلة للاجتهاد فإن المفسّر يغدق عليها من آرائه وألوانه:

الرأي الأول ـ أنه عليه السلام سرق لجائع بيضة من بيت أهله يقول أحد المفسّرين: إن يوسف عليه السلام في صغره رأى جائعاً يبكي، فسرق له بيضة من بيت أهله وأطعمه إيّاها.

الرأي الثاني ـ أنه عليه السلام سرق له دجاجة من بيت أهله:

ويقول مفسّر آخر: إن المسروق لم يكن بيضة، وإنما كان دجاجة سرقها لذلك الجائع وأطعمه إيّاها.

الرأي الثالث ـ أنه عليه السلام سرق منطقة جدّه لأمّه:

وهناك مفسّر ثالث يقول: إن يوسف عليه السلام في صغره سرق منطقة جدّه لأمّه والمنطقة هي الحزام.

وهذه الروايات الثلاث كلّها لا تشكل عنوان سرقة.

الرأي الرابع ـ أنه عليه السلام سرق المودّة من قلب أبيه عليه السلام:

وقد رأيت من المفسّرين من يحمل عليه مع أنه رأي وجيه قريب. وهذا من تفسير الإشارة عند الصوفيين، وهذه المدرسة الصوفية في التفسير فيها جذبات روحية.

وهنا قد يسأل سائل: لم سرق يوسف عليه السلام المودّة من قلب أبيه؟ وما السبب الذي جعل يعقوب يميل إلى يوسف عليه السلام أكثر من باقي إخوته مما سبب أنهم حقدوا عليه؟ وهذا الحقد واضح من تعبير الآية الكريمة، والحاقد يلجأ إلى الاتّهام والافتراء والادّعاءات غير الموضوعية، لأنه ينطلق من عاطفة لا يمكن له أن يتكلّم بها.

والسبب في ذلك أن يوسف عليه السلام وأخاه بنيامين كانا يتيمين، وقد توفّيت أمهما «راحيل» وهي في شبابها، ومن المعروف أن اليتيم يستدرّ العطف أكثر من غيره، لأنه بحاجة إلى تعويض اليتم الذي يعانيه. وهذا ما حدث ليعقوب عليه السلام الذي كان يرى يوسف عليه السلام وأخاه بلا أمّ، فأراد أن يعوّضهما فقدَ أمهما. وإلا فإنه عليه السلام كان يعرف خطورة تمييز أحد الأولاد على الباقين، فذلك يخلق الهزّة في المجتمع.

قال النعمان بن بشير: سألت أمي أبي بعض الموهبة لي من ماله، ثم بدا له فوهبها لي، فقالت: لا أرضى حتى تشهد النبي صلى الله عليه وآله، فأخذ بيدي وأنا غلام فأتى بي النبي صلى الله عليه وآله، فقال: إن أمّه بنت رواحة سألتني بعض الموهبة لهذا. قال صلى الله عليه وآله: «ألك ولد سواه؟»، قال: نعم، قال «لا تشهدني على جور». وفي رواية «ألك بنون سواه؟» قال: نعم، قال صلى الله عليه وآله «فكلهم أعطيت مثل هذا؟» قال: لا، قال: «فلا أشهد على جور»[١].

---

(١) جامع المقاصد: ٩/ ١٧١.

ولو كان هناك مبرّر لهذا التمييز لما اعترض النبي ﷺ لكنه لمّا لم يرَ مبرّراً لذلك اعترض. ثم إنه لو كان عنده مبرّر شرعي لما احتاج إلى شهادة النبي ﷺ. والمبرر الصحيح كأن يكون أحد الأولاد أكثر حزماً من إخوته بأن يدير العمل والبيت والأسرة، أو أن يكون متّزناً شاطراً ذكياً ذا جوانب علميّة، ومستقيماً صائماً مصلّياً، وصادقاً في معاملته مع الناس، مسالماً، فيفضّله الأب في حياته لهذه الصفات الحميدة. وهذا مبرّر معقول، أمّا المبرّر غير المعقول فكأن تكون أمّه جميلة مثلاً أو شابّة. فهذا التمييز يسبب الحقد، وسوف ينسف بناء الأسرة.

وهذه من النظريات التي جاءت قبل (١٤٠٠) سنة، ولم يتوصّل إليها علم النفس والاجتماع إلا في زمن قريب في القرن العشرين، فمن أين جاء النبي ﷺ بهذه المعلومات قبل (١٤٠٠) عاماً وهو يعيش في تلك الصحراء؟ لا شك أن ذلك تسديد السماء وتوجيهها.

فالسبب الذي جعل يعقوب عليه السلام يحنو على يوسف عليه السلام وأخيه أنهما يتيمان، ولذا قال إخوة يوسف: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

الرأي الخامس ـ أنه عليه السلام سرق صنماً لجدّه لأمّه عليه السلام:

ومن الآراء التي يوردها المفسّرون في سرقة يوسف عليه السلام المزعومة أنه سرق صنماً لجدّه لأمّه، وكان وثنيّاً.

وكل همّ المفسّرين أن يحقّقوا معنى السرقة الواردة في الآية. وكل هذه المعاني ليست متّسقة وصائبة.

الرأي السادس ـ أن عمته ادّعت أنه سرق منطقة جده لتحتفظ به:

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨.

والرأي الأكثر صواباً أن عمّته التي كانت تحضنه وأخاه بعد وفاة أمّهما، اعتزّت به أكثر من أخيه، ولم تعد تستطيع مفارقته، فكان لها بمثابة الابن، فهي لم يكن لها ولد، فلما أراد يعقوب عليه السلام أخذه منها، ابتدعت طريقة لبقائه عندها، فادّعت أنه سرق منطقة جدّه. وكانت عقوبة السرقة ذلك الزمان نوعين:

العقوبة المدنية عند الفراعنة، وهي السجن لسنوات محدّدة.

والعقوبة الشرعية في شريعة يعقوب عليه السلام، وهي أن من يسرق يُستعبد:

﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾(١)، وإذا ثبت ذلك ليوسف فعقوبته أن يبقى مستعبداً عند عمّته.

المبحث الثالث ـ ثوابت الشريعة ومتغيّراتها:

وأُلفِتُ النظر هنا إلى أن الفقه الجنائي وكذلك الاقتصادي والاجتماعي يتطوّر بتطور المجتمع، فهناك في الشريعة ما ندعوه بالثوابت وهناك ما ندعوه بالمتطورات أو المتغيرات التي تتغيّر بتطوّر الزمن.

وقد يقال: لماذا تشدّوننا إلى شريعة مضى عليها أكثر من (١٤٠٠) سنة، وقد تغيّر في الدنيا كل شيء حتى تصميم الدور ووسائل النقل والأفكار وكل شيء؟.

فيجاب: بأن باب الاجتهاد مفتوح في الشريعة، فلا يمكن أن تعتبر عمر الشريعة (١٤٠٠) سنة، ذلك أنها متطورة متحركة مع الزمن. وذلك التطور يكون بآراء الفقهاء، لأن الفقيه يأخذ النص القابل للتطوير فيطوّره، فمثلاً يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾(٢) فيرى الفقيه أرضاً عند شعب من الشعوب تعدل قارة كاملة، فلا يرى مانعاً من أن يعطيها لمن يستثمرها.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٧٥.

(٢) سورة النحل، الآية: ٨٨.

لكنه إذا رأى أن هناك كثافة سكانية ضخمة، والناس يحتاجون للسكن، فلا يمكنه أن يعطي آلاف الأفدنة للزرع، مع أنه في الحالين ينشد العدل.

فالعدل إذاً عنوان متطور تختلف تطبيقاته باختلاف الموضوعات.

وهكذا كل مبدأ في القرآن الكريم يمكن أن ينطبق على الحياة المتطورة، حيث يطوّره الفقيه وفق المطلوب. فهناك أمور أصوليّة عقليّة وشرعية نرجع إليها في كل ذلك، كالبراءة العقلية والبراءة الشرعية وغيرهما.

أنواع الإكراه:

ومن هنا نرى أن الشرائع السابقة تختلف في كثير من أحكامها عن الشريعة الإسلامية، ففي السرقة تدرس الشريعة ظروف الجريمة ودوافعها، فهل أن السارق مكرَه، أو غير مكره؟ والإكراه نوعان: مباشر، وغير مباشر. فغير المباشر أن يكون السارق ضحية تربية سيئة، كأن يولد ولا يجد في الشوارع إلا العصابات التي تلتقطه فتحتضنه وتدرّبه على الجريمة. أما الإكراه المباشر فكالجوع مثلاً، وذلك بأن يصل الإنسان إلى مرحلة لا يجد قوت نفسه أو عياله، أو أن تحدث مجاعة في البلد، ولذلك لم يقطع عمر بن الخطاب الأيدي في عام المجاعة[١].

مقدار القطع في يد السارق:

فإذا دُرست ظروف الجريمة وتقرّر القطع، تقطع اليد، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾[٢]، وهنا يختلف الفقهاء في

(١) الخلاف: ٥/ ٤٣٢ ـ المسألة: ٢٧٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٨.

القطع: فمنهم من يقول: إنه من الكتف، لأن لفظ اليد ينطبق على ذلك ومنهم من يقول: من أصل الكف. ومنهم من يقول: أطراف الأصابع، لأنها تسمى يداً، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾[١].

المبحث الرابع ـ إشكالية اتّهام يوسف عليه السلام إخوته بالسرقة:

وبالعودة إلى الآية نستعرض قصة النبي يوسف عليه السلام مع أخيه، حيث دعا إخوته إلى وليمة، وجعل كل اثنين منهم في حجرة، ليبقى أخوه بنيامين وحده، كي يضمّه فيما بعد إليه. وهذا عين ما صنعه النبي صلى الله عليه وآله مع علي بن أبي طالب عليه السلام، حيث آخى بين الصحابة وتركه، يقول أمير المؤمنين عليه السلام «فأقبلت إليه وعيناي تفيضان، قلت: يا رسول الله، أراك آخيت بين أصحابك وتركتني؟ فقال: إنما ادّخرتك لنفسي، أنت أخي في الدنيا والآخرة»[٢].

ودخل بنيامين على أخيه وهو في حجرته، فقال له: «هل تحب أن أكون أخاك؟» قال: وأين أجد أخاً مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل.

فاعتنقه عليه السلام وقال: «أنا أخوك يوسف»[٣] فاحتضنه بنيامين.

ولما أراد يوسف أن يبقيه عنده، بعث أحد الخدم ليضع الصواع (المكيال) في رحل بنيامين ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾[٤].

وهنا يرد هذا السؤال: ما المبرر لهذا العمل؟ وهل هو عمل مشروع؟

إن وضع المكيال في أوعيتهم لا يحرّم حلالاً، ولا يحلّل حراماً، وليس

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٩.

(٢) الغدير: ٦/ ٣٣٨.

(٣) بحار الأنوار: ١٢/ ٢٩٠ ـ ٧١.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٧٠.

فيه مشكلة، لكن المشكلة في النداء: ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾[1]، فكيف ساغ له عليه السلام أن يتّهمهم بالسرقة؟

بناء على الرأي القائل في سرقة يوسف عليه السلام أنه سرق ودّ أبيه عليه السلام منهم، فإن هذه السرقة اتهمهم بها هي سرقة السعادة من قلب يعقوب عليه السلام وقد سرقوها فعلاً، فكان يعقوب عليه السلام ينوح من الصباح إلى المساء، ويمرّ به ملك الموت فيسأله: «هل مرّت بك روح يوسف؟». ويسأل عنه الركبان، حتى وصفه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾[2]، أي أصابه العمى. فكان الاتّهام صادقاً، وليس ادعاءً باطلاً، لأنهم سرقوا السعادة فعلاً من قلب يعقوب عليه السلام.

المبحث الخامس ـ أسباب زجّ الحسين عليه السلام إخوته في المعركة:

دعونا الآن نعيش شيئاً من أجواء واقعة الطف، فقد أخرج الحسين عليه السلام إخوته، ولم يكن فيهم شقيق له أبداً، وكانوا تسعة كلّهم لأبيهم، وقتلوا كلهم معه. والسؤال هنا: ما هذا الإصرار من الحسين عليه السلام على إخراج هذه المجاميع من أهله مع علمه بأنهم سوف يقتلون، وقد أخبره النبي صلى الله عليه وآله بذلك؟ وهل أن هذا انتحار جماعي؟ إنه عليه السلام يعلم أن هؤلاء لن يغيّروا في المعادلة شيئاً، لأن عدد الجيش في الطف كان ثلاثين ألفاً على أقل الروايات، وإلاّ فهناك روايات تقول: إنه كان سبعين ألفاً أو مئة ألف أو أكثر. فما هي دوافع الحسين عليه السلام لهذا الإصرار على أن يقتل أهل بيته عن بكرة أبيهم؟ هناك عدة أسباب منها:

السبب الأوّل ـ أنه عليه السلام أراد لجذوة التضحية الهاشمية ألا تنطفىء:

فالمعروف أن أكثر الأسر تضحية لهذه الرسالة هم الهاشميون، وقد حمل

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٧٠.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٤.

التيّار الهاشمي عبء الدعوة، وقدّم لها القرابين والتضحيات، وقد أراد الحسين عليه السلام أن يبقى رافد التضحية فيهم مستمراً: «والحمل الثقيل أهله أحقّ بحمله». كما أنه عليه السلام أراد لهذه الجذوة التي أشعلها النبي صلى الله عليه وآله ألاّ تنطفىء.

وقد لمّحت لهذا المعنى في قصيدتي التي قلتها في رثاء ضحايا مدينة قانا التي حدثت فيها مجزرة على يد اليهود. ونحن نعرف أن في مدينة قانا أولاد أبي ذر الغفاري، وهو يشكّل رافداً من تيّار علي بن أبي طالب عليه السلام حيث قلت:

يا بنتَ جندبَ يا أعناقُ ما برحت	مع المدى منذ ألف وهي تنتصبُ
تنشأت في وعاء داف تربته	أبو ترابٍ الذي للصاعدات أبُ
توشحت بالإباء المرّ واعتجرت	بالحق واعتقدت هذا هو الغلبُ
كم سامها الضغط والإغراء لوّح بالمنعمى	فما لان يوماً عودها الصلبُ
سجيّة من فرات الطفّ يحملها الثوّار	فهي على أخلافهم لقبُ

إنه تيار التضحية والعطاء الذي تركه رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وأراد الحسين عليه السلام أن يقول لغيره: لا تقولوا إنّ الحسين نحّى أولاده وأهل بيته عن الخطر والقتل وقدّم غيرهم، إنني سوف أقدّم أهلي قبل غيرهم.

وهذا عين ما لاحظناه في المباهلة، حيث أخرج النبي صلى الله عليه وآله أغلى ما عنده من أهل بيته وهم علي وفاطمة والحسنان عليهم السلام فإن وقع مكروه وقع على هؤلاء.

السبب الثاني ـ تضميخ هذه الجذوة بخصائص أهل البيت عليهم السلام:

فالحسين عليه السلام أراد أن يقدّم في التضحية نماذج فيها خصائص أهل البيت عليهم السلام ونحن نعرف أن هناك من يقاتل بدافع الحميّة. كأن يكون في موقف

يستحي فيه أن يتراجع ـ فيموت، وهناك من يقاتل بظروف خارجية مفروضة عليه، أما أهل بيت النبي ﷺ فهم مندفعون بذاتهم، يقول العباس:

والله إن قطعتُمُ يميني إني أحامي أبداً عن ديني

وعن إمام صادق اليقينِ نجل الإمام الطاهر الأمينِ[1]

إنه عليه السلام يدافع عن دينه وعقيدته وفكرة الإمامية المتجسدة في هذا الشخص الشريف. فأراد الحسين عليه السلام أن يقدم نموذجاً واضحاً يمثل خصائص الرسالة التي بُعث بها النبي ﷺ في دفع الظلم ومقاومة العدوان.

السبب الثالث ـ البرهنة على أن الإيمان يقهر الطبع والتطبّع:

فالحال السائد في مجتمعاتنا أن الأبناء غير الأشقاء يكونون عادة غير منسجمين بشكل كامل مع بعضهم، أما الحسين عليه السلام فأراد بذلك أن يضرب هذه القاعدة التي اعتدنا عليها، ويوضّح لنا أن هؤلاء إن تربّوا على الإيمان واشتركوا في حمل الرسالة، وانخرطوا في تيّار موحّد، فإن كل العقبات ستتلاشى.

وقد بلغت المودة والتلاحم بين أهل البيت عليهم السلام في الطفّ أشدها، وهذا دليل على أن الإيمان يمكن أن يسيطر على التربية والغرائز والأساسيات كلها.

لقد أخرج الحسين عليه السلام يوم الطف تسعة من إخوته كلّهم لعلي:

أربعة لأم البنين رضي الله عنها، وهم العباس وجعفر وعبد الله وأبو بكر. وعمر الأطراف وأمه الصهباء التغلبية، الذي تقول جملة من الروايات عنه أنه قتل يوم الطف.

ومحمد الأصغر وأخوه، وأمهما ليلى بنت مسعود الدارمية النهشلية التميمية.

---

(١) ينابيع المودة: ٣/ ٦٨.

والثامن عون، وأمّه أسماء بنت عميس الخثعمية.

والتاسع محمد الأوسط، وأمه أمامة بنت أبي العاص بن الربيع التي تزوجها أمير المؤمنين بعد وفاة الزهراء عليها السلام مباشرة بوصيّة منها عليها السلام، فقد قالت له: «يا علي، لا بدّ للرجال من النساء، فإن أردت أن تتزوّج بعدي فعليك بابنة أختي أمامة، فإنها تكون لولدي مثلي، ومع ذلك اجعل لها يوماً وليلة وللحسنين يوماً وليلة، ولا تصِح في وجهيهما، ولا تنهرهما فإنهما يصبحان يتيمين منكسرين، بالأمس فقدا جدهما واليوم يفقدان أمهما»[١]. وتزوّجها فعلاً فولدت له محمداً الأوسط الذي قتل مع الحسين عليه السلام: فهؤلاء تسعة من ولد علي عليه السلام قتلوا مع الحسين عليه السلام يوم الطف.

لكن هؤلاء لم يأخذ مصرعهم أثراً منه يوم الطفّ كما أخذ العباس عليه السلام ذلك الأثر منه في مصرعه، يقول المؤرخون: لما سقط العبّاس بان الانكسار في وجه الحسين عليه السلام[٢].

ولما سقط صريعاً وقف عليه الحسين عليه السلام ولم يكن العباس يرى، لأن إحدى عينيه جمد عليها الدم، والأخرى نبت بها السهم، ولا يدَ عنده فيمسح بها الدم عن وجهه، فأحسّ بحركة رجل عنده وهو في لحظاته الأخيرة، فقال: من هذا الجالس؟ قال الحسين: «لماذا؟». قال: يا هذا أقسم عليك بمن تعبد أن تمهلني فواق ناقة. قال: «ما تصنع بها؟» قال: حتى يأتي إليّ أخي وابن والدي أودّعه ويودّعني، وأشمّه ويشمّني. قال الحسين عليه السلام: «أنا أخوك» قال: إذاً ادنُ مني أقبّلك وأشمّك. فوضع فمه على فمه وراح يقبّله إلى أن فاضت روحه الطاهرة، ورحم الله السيد جعفراً إذ يقول:

---

(١) معاني الأخبار: ٣٥٦/ ١.

(٢) شجرة طوبى: ٢/ ٢٩٩.

قد رام يلثمه فلم يرَ موضعاً لم يدمِه حرّ السلاح فيلثمُ

أأخي يهنيك النعيمُ ولم أخَل ترضى بأن أشقى وأنت منعَمُ

ولما لفظ أنفاسه الطاهرة، قام عنه وهو يمسح دموعه بمنديله. ولم يتفق مرّة أن عاد إلى الخيمة وليس معه العباس عليه السلام إلاّ هذه المرّة، فاستقبلته الحوراء زينب بباب الخيمة، قالت: أبا عبد الله، أراك رجعت وحدك؟ فاختنق بعبرته وقال: «أخيّة، عظم الله لك الأجر بأبي الفضل العباس، لقد خلّفته على المشرعة دامي الوريدين».

فوضعت يدها على صدرها وصاحت واأخاه.. واعبّاساه.

وأرادت أن تخرج من الخيمة، فأرجعها الحسين عليه السلام إليها وقال: «أخيّة، تعزّي بعزاء الله، لا يذهبن بحلمك الشيطان ولا تُشمتي بنا الأعداء»[1].

وبقيت في نفسها لوعة، فخرجت إليه بعد حتى وصلت إلى نهر العلقمي:

إلي مناشدة ويّاك واعتاب يمنوح الهودج على الباب

اسبعطش يبرون له احساب اشوف الرجا وذاك الأمل خاب

أحمى الضائعات بعدك ضعنا[2]

---

(١) الإرشاد: ٢/ ٩١، ٩٢.

(٢) وفيات الأئمة عليهم السلام: ١٦٢.

الليلة الثامنة

حوار حول العقيدة (الولد والصاحبة)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول ـ سبب نزول الآية الكريمة:

نزلت هذه الآية للرد على المسيحيين، حيث كان هناك حوار يدور بينهم وبين المسلمين حول العقائد، والحوار قد تجده أحياناً حواراً موضوعياً هدفه البحث عن الحقيقة والواقع، ويتصف المحاور فيه بمعرفته بأصول الحوار وبكونه ذا خلفيّة علمية، أما البعض الآخر فتجده يحاورك وهو ليس أهلاً للحوار، ولا يتمتع بأي خلفية علمية، وكل ما يعرفه أنه يرى رواية فيتمسّك بها

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠١.

ولا يلتفت إلى راويها ومؤهلاته من جهة كونه موثوقاً أو غير موثوق به، وهل إن له غرضاً في الرواية أم لا، وغير ذلك من المؤهلات مع أن المفترض به أن يتروى في عملية البحث والاستقصاء وعدم الاستعجال في إصدار الأحكام.

وهناك نوع من الحوارات لا طائل منها البتة، كأن تجد أحداً يحاور في قضايا بديهية، فمثل هذا الحوار في حقيقة الأمر مضيعة للوقت. ومن هؤلاء من يقول: إن يزيد لم يقتل الإمام الحسين عليه السلام[1]، والقائل بهذا هو ابن تيمية. ومع احترامنا لابن تيمية إلا أني أوصي بأن يُطّلع على مواقفه من أهل البيت عليهم السلام بقراءة كتاباته عنهم، وأترك الحكم للقارىء.

فينبغي أن يقوم الحوار على أسس علمية وموضوعية، فعندما يجادل أحد في الأمور الطبية فإنه يجب أن يكون دارساً للطب.

المبحث الثاني ـ الإبداع في الخلق:

نرجع للآية الكريمة، فقد دخل جماعة على النبي صلى الله عليه وآله، فقالوا له: أنتم تقولون: إن عيسى له أم وليس له أب، فأبوه إذاً هو الله؟

فأجابهم النبي صلى الله عليه وآله بجواب بعيد عن التشنج مؤدّاه أن الله كثيراً ما يجري الأمور على غير العادة، أي بما يمكن أن يسمى بالـ(إبداع)، ومعنى (بديع): الذي لم يحتذِ على مثال، فالإنسان تارة يجد تصميماً من التصاميم فينسج على منواله، وتارة يبتكر تصميماً من مخيّلته وبنات أفكاره، وهذا الابتكار هو الإبداع. وخلق الله كله إبداع، تقول سيدة نساء العالمين: «ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها»[2]. أي لم يجد تصميماً مسبقاً وعمل مثله.

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير: ١/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(٢) دلائل الإمامة: ١١١.

فالله تعالى أبدع الأشياء وخلقها على غير مثال، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. ولو تأمل الإنسان في خلق السماوات والأرض فسيرى الإبداع واضحاً جلياً، فقبل فترة مثلاً اكتشفوا مجرّة مثل المجرة التي فيها مجموعتنا الشمسية، وتبعد عنا (١٢) ملياراً وثلاثمائة مليون سنة ضوئية، والسنة الضوئية مقياس ضخم، فسرعة الضوء هي (٣٠٠) ألف كيلومتر في الثانية، فكم هي المسافة التي بيننا وبين هذه المجرةّ وكم بيننا وبينها من عوالم عظيمة لا يعلمها إلا الله هذا ليعرف الإنسان قيمته وقدره الحقيقيين. وإذا قرأنا بعض الحقائق الكونية فإنها حتماً ستجرّنا إلى الإذعان بوجود الله وبعظمته كخالق مبدع عظيم.

فالآية الكريمة تقول لهم: أنتم تستكثرون على الله أن يخلق ولداً من دون أب، وهو الذي أبدع خلق السماوات والأرض، فإنه قد خلقها على غير العادة، فأبدعهن على غير مثال.

المبحث الثالث ـ أسباب فساد ادّعاء أبوّته تعالى لعيسى عليه السلام:

ثم انتقلت الآية لتبيِّن فساد العقيدة التي تقول بأنه ليس خالق النبي عيسى عليه السلام فقط، بل إنه والده أيضاً، فقالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، وهنا مسائل:

الأولى ـ أن هذا خرق للواقع والطبيعة:

فالولد إنما يتكون عن طريق القوانين الطبيعية، أي يجتمع الأبوان في الفراش فيحصل الحمل عند الأم، ثم يبقى تسعة أشهر حسب النظرية العلمية للحمل الطبيعي. والبارىء جل وعلا لا يحتاج إلى كل هذه الفترة ليتم نمو الطفل ويولد: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[1]، فهو تعالى لا يحتاج إلى أن ينتظر الطرق الطبيعية للحمل والولادة.

---

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.

الثانية ـ إن وجود الابن منافٍ للغنى عن الغير:

فالأب إنما يريد الولد لعجزه، فهو يطلبه لغرض هو حاجته إليه من ناحية العاطفة، أو للاستعانة به، فالولد يسد عجز أبيه ويرعاه ويكفيه حاجاته وما يهمه. وهذا هو النظام التكويني والطبيعي، أما واقعنا الآن فقد اختلفت كل القيم التي يجب توافرها فيه، حيث يلاحظ فيه أن بصمات الأسرة قد أخذت تتلاشى شيئاً فشيئاً، أما نظام الأسرة الإسلامية الملتزمة فهو خلاف ذلك، إذ نلاحظ فيه عاملاً مهماً يعدّ من أبرز مظاهرها، وهو أن عملية تبادل الأدوار بين الأب والابن هي عملية طبيعية جداً، فالأب له دور التربية، والابن له دور الطاعة، فيطيع أباه ويخدمه ويقضي كل حاجاته.

فالولد خلق لهذا، أما الآن فإن الأسرة الإسلامية بدأت تتفكك أيضاً حيث إن الأب بدأ يتخلى عن دور الموجّه والمربي، والابن كذلك تخلّى عن دور الطاعة. ومن هنا جاءت المؤثرات المروّعة.

إن معالم الأسرة الإسلامية بدأت تتلاشى، وهذا طبعاً بفعل وسائل التكنولوجيا الحديثة التي أخذت أنفسنا وأولادنا. أعرف شخصاً يسكن في لندن قد جمع كل متعلقاته وأشيائه، وهيأ نفسه لأن يترك بيته هناك، وكان يقول: عندي خمس بنات، ولوسائل الإعلام هنا تأثير عليهن، وكذلك هذه البيئة الفاسدة، ففكرت بالسفر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ﴾[1].

فعلى المسلم أن يستغل وسائل الوقاية وأن يبتعد عن المؤثرات، كما أن المفروض أن تتم معالجة هذه المشاكل بكل جدية واهتمام، وعدم تركها والانشغال بقضايا أخرى. إننا بأمسّ الحاجة إلى الأخلاق الإسلامية والآداب

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

الإلهية، وهذه العصرية بشكلها الحالي ما هي إلا رجوع إلى البدائية وإلى الوحشية والإباحية.

فالقرآن الكريم يقول: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، أي أن الباري جل وعلا غير عاجز حتى يحتاج إلى الولد، فكيف يكون له ولد.

الثالثة ـ أن الولد قد يكون نقمة على أبيه:

فالولد ربما يشكل حالة لا تسرّ أباه، فهو كما يمكن أن يكون نعمة لأبيه، فكذلك يمكن أن يكون نقمة عليه ووبالاً، أو أن تبعاته ربما تلحق أباه وإن كان هذا الجانب ربما يؤخذ في الخير وربما يؤخذ في الشر، فمن يكره علي بن أبي طالب عليه السلام فإنه يحمّل أباه (أبا طالب رضي الله عنه) ما كان يكرهه منه عليه السلام، فيحمل على أبي طالب رضي الله عنه ويرميه بالشرك، مع أن الحق أن تكون هذه الأمور خاضعة لقرائن معينة، وأن تحددها المواقف، وعلى ضوئها يحدد الشخص.

فهذا الرجل رضي الله عنه كان ليلاً ونهاراً حاملاً سلاحه يدافع عن النبي صلى الله عليه وآله، وعن المسلمين، وعندما حوصر المسلمون في الشعب الذي عرف فيما بعد باسمه وقف معهم ثلاث سنين كان فيها واحداً منهم يصيبه ما يصيبهم ويناله ما ينالهم. وكان ليل نهار يلازم رسول الله صلى الله عليه وآله هو وأولاده ويحرسونه[1].

وهو الذي وقف معه صلى الله عليه وآله حينما اجتمع شيوخ قريش على مقارعة الحق المتمثل بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وذلك حينما رأوا منه تلك المواقف الصلبة إزاءهم ورأوا موقف الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، فمشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي ـ وكان أجمل فتيان قريش ـ فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أبهى فتى في قريش وأجملهم، فخذه إليك فاتخذه ولداً فهو

---

(١) المقتضى من سيرة المصطفى: ١/ ٦٦ ـ ٦٧.

لك، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك، لنقتله، فإنما هو رجل برجل.

فقال أبو طالب: والله ما أنصفتموني، تعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبداً. فقال له المطعم بن عدي بن نوفل ـ وكان له صديقاً مصافياً ـ: والله يا أبا طالب ما أراك تريد أن تقبل من قومك شيئاً، لعمري قد جهدوا في التخلص مما تكره وأراك لا تنصفهم. فقال له أبو طالب رضي الله عنه: والله ما أنصفوني ولا أنصفتني، ولكنك قد أجمعت على خذلاني ومظاهرة القوم علي، فاصنع ما بدا لك[١].

وجاؤوه أخرى فقالوا له: إذاً ما يريد منا ابن أخيك محمد؟ فإن أراد حكماً علينا ملّكناه. وإن أراد مالاً منا أعطيناه من صفوة أموالنا، وإن أراد الزواج زوجناه ممن يريد. فالتفت أبو طالب إلى الرسول ﷺ وقال له: أتسمع ما يقول قومك؟ فقال ﷺ: «والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما فعلت».

فلما سمعوه نفضوا ثيابهم وقاموا وهم يقولون: لا سبيل إلى هذا[٢].

وهو المعلن على كل الملأ مخاطباً به رسول الله ﷺ:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم   حتى أوسد في التراب دفينا[٣]

أدلة واهية على كفر أبي طالب رضي الله عنه:

فكان رضي الله عنه يدافع عن المسلمين وعن رسول الله ﷺ بكل ما يستطيع، وقدم

---

(١) الطبقات الكبرى: ١/ ٢٠٢.

(٢) بحار الأنوار: ٨/ ١٨٢.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ١/ ٨٩.

أولاده للتضحية في سبيل دين الله ورسوله ﷺ، وكان يحمي الإسلام بنفسه، ومع هذا يقال عنه: إنه مشرك. ويستدلون عليه بأدلة واهية، منها مثلاً الآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾[١] حيث يدّعى أنها نزلت في أبي طالب رضي الله عنه، وذلك أن النبي ﷺ دخل عليه وهو في نزعه، وكان معه جماعة من قريش، فقال له: «قل لا إله إلا الله، حتى أشهد لك بهذا»، وكانت الجماعة تقول له: لا تترك دين آبائك، ومنهم أبو جهل، فامتنع، فلما رفض أن يقولها، قال له النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنهَ عن ذلك». فنزلت الآية لهذا السبب[٢].

الرد على هذه الحجة الواهية:

وهذه الحجة غير صحيحة البتّة، وذلك لأسباب منها:

أولاً: أن أبا طالب رضي الله عنه توفي في مكة، والآية نزلت في المدينة[٣]، فلماذا هذا الكذب على الرسول الأكرم ﷺ؟.

ثانياً: أن النبي ﷺ قد استغفر لأبي طالب رضي الله عنه، ولو أنه كان مشركاً لما استغفر له الرسول الأكرم ﷺ، ومن أراد التحقق فليرجع إلى تفسير القرطبي حيث إنه قد ذكر ذلك.

ثالثاً: أن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٤] والخصم يقر بأنه إذا كانت المرأة مسلمة وكان زوجها غير مسلم فإنهما يفرّق بينهما، وفاطمة بنت أسد

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٣.
(٢) صحيح البخاري: ٥/ ٢٠٨، ٦/ ١٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٢٧٣.
(٤) سورة الممتحنة، الآية: ١٠.

بإجماع الجميع مسلمة ومن سيدات المسلمات، فلو كان أبو طالب ﷺ مشركاً كما يُدّعى فلِمَ لم يفرّق الرسول ﷺ بينهما؟.

ثم إن ما ذكرنا له من هذه المواقف الطويلة والعريضة مع الإسلام ألا ينهض حجة كافية على إثبات إسلامه (رضوان الله عليه)؟ وهذا كله لأنه أبو طالب، أي أبو أمير المؤمنين علي ﷺ، أما الذي يرفع عقيرته صباح مساء ويقول: يا بني أمية، تلقفوها تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، ما من عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة[1]. والقائل لعثمان: بأبي أنت، أنفق ولا تكن كأبي حجر، وتداولوها يا بني أمية تداول الولدان الكرة، فوالله ما من جنة ولا نار[2]، فهو مسلم، بل ومن سادات المسلمين.

ونحن ندعو الشباب المسلم إلى أن يقرأ التاريخ بتمعن، لأن فيه الكثير من الأكاذيب، وليتتبع المصادر، حيث إن تاريخنا اختلطت فيه أنماط من المؤثرات، يقول أحد الشعراء:

أيا موسع التاريخ نقداً وخبرة ... ومبتدعاً في نهجه ليس يجترُ

تجلّى له التاريخ بحراً فخاضه ... وغاص إلى الأعماق فانكشف القعرُ

فأبصر زيفاً يستطيل وواقعاً ... يذادُ ومقياساً إلى الخلطِ ينجرُّ

وأنباءَ يرويها الهوى ونوازعاً ... تحكّم فيها الحب والبغض والتبرُ

ومرّت به الأقلام منهن قانعٌ ... بفضل فُتات الظالمين ومعترُّ

فهناك ألوان من الأقلام قد كتبت التاريخ بمختلف المؤثرات، فإذا أراد

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٤٥.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٥٣ ـ ٥٤.

المنصف أن يقرأ رواية ما فعليه أن يعرف ما وراءها وما هي أهدافها ومدى صحتها، فلا يحكم على الأشياء بمجرد قراءة رواية ما، خصوصاً ما يتعلق منها بالحب والبغض، ثم إن علي بن أبي طالب عليه السلام قد وُضع في موضع لا يُحسد عليه، فقد قاتل دفاعاً عن الإسلام، لكنهم حمّلوه تبعة دماء قريش، وقريش هم الذين كتبوا التاريخ، وعبّروا عنه بتعابير عجيبة، ولذلك يخاطبه أحد الأدباء:

أسرف الدهر في عدائك حتى ... ليس بين الاثنين من إصلاحِ

وتصدّى لأن يساويك بالأد ... نى ويدني سنم الذر للبطاحِ

إنها نكبة المقاييس فينا ... أن يقاس الخرنوبُ بالتفاحِ

عوداً على بدء:

نرجع للآية الكريمة، فهي تقول: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، أي لا يكون له ولد، ولا يحتاج لأن ينتظر فترة طويلة كي يأتيه ولد.

المبحث الرابع ـ في معنى الصاحبة وبعض حقوقها وواجباتها:

ثم قالت: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾، الصاحبة هنا: الزوجة، والصاحب يأتي بمعنيين:

الأول: المعاشر، أي من العشرة الزوجية.

الثاني: المجير، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾[1] أي لا يجارون منا.

والذي نفهمه من الآية الكريمة أن المرأة مجارة، وأن الرجل يجير المرأة،

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤٣.

وعندما يعبّر القرآن الكريم عن الزوجة بأنها صاحبة، والزوج بأنه صاحب، فإنه إنما يريد أن يحقق معنى (أن تجار)، أي أن تكون هذه المرأة في جيرة الرجل، وللجيرة هنا عدة معانٍ منها :

الأول ـ أن تجار من الإكراه والتعسّف :

ومعنى يجيرها من الإكراه أن يعطيها الأب أو الأخ الأكبر حق اختيار الزوج المناسب لها ، حيث يُعرض عليها الزوج ، ولها الحق في أن تراه ، كما أن له الحق في أن يراها ، لأن الخطأ إذا وقع بعد ذلك فإن الثمن سيكون فادحاً .

حالة اجتماعية مخطوءة:

هناك معنى مخطوء ومنحل يعتمده بعض الشباب ويمارسونه هذه الأيام، وهو أن يخطب أحدهم الفتاة، ويلبسها حلقة الخطوبة ثم يأخذ حريته معها في الدخول والخروج والتسوق وغيرها . وهذا لا يقبل به الإسلام البتة، ولا تقبله الغيرة، وتأباه أخلاقنا وحضارتنا وتاريخنا .

فالحد المعقول هو أن يراها وتراه، حتى لا تحصل كارثة اجتماعية بعد ذلك، ويكون ضحيتها الأم، وهذا الطفل الذي سيتحول في أغلب الأحوال إلى كيان محطم في المجتمع .

نرجع إلى مسألتنا وهي الاختيار، فالمرأة تُستأمر في زواجها ، فإذا أطرقت وسكتت وكانت بكراً فهو دليل رضاها ، فإن رضاها صمتها[1] .

---

(١) لم ترد هذه العبارة في شيء من رواياتنا أو كتبنا الحديثيّة . قال السيد الخوئي في كتاب النكاح : «وأما النصوص فأما ما دل على أن سكوت البكر إقرارها ، فالاستدلال به غير واضح، إذ لم يرد في شيء منها أن سكوتها رضاها ، كي يقال : إنها دالة على كفاية الرضا ، وإنما الوارد أن سكوتها إقرارها أو أن إذنها ضمانها ، ومن الواضح أن التعبير بالإقرار أو =

وبعد الاختيار فإن على الزوج أن يجيرها من الضرر والتعسّف، فبعد إتمام العقد والزواج، يحدد لنا القرآن الكريم مسؤوليتنا ويرسم لنا الطريق في التعامل مع شريكة حياتنا ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[1]. فالطباع متحركة، وربما حصل خلاف بينهما، فلذلك وضع الله تعالى لنا قانون المعروف، فلا تتم المعاملة على أساس القسر والإكراه أو على المضارة، فإن من المفروض أن تقوم علاقات هذه الأسرة على أساس الحب والوئام، لتكون الثمرة ناضجة، وليخرج الولد سوياً مستقيماً.

الثاني ـ أن تجار من العوز والحاجة:

والإجارة من العوز بالنسبة للزوجة على زوجها تأخذ بعداً كبيراً في الإسلام، وطابعاً ذا عمق واضح، فنفقة الأبوين واجبة على ابنهما مثلاً، لكن إذا لم يكن عنده ما ينفقه عليهما سقطت عنه حينها، أما على الزوجة فإنه لا تسقط عنه لها وإن لم يكن يملك النفقة، بل إنها تبقى ديناً بذمّته متى ما وجد مالاً أو وسّع عليه فإنه يطالب شرعاً بسداده.

وهذا كله كيلا تعرض الزوجة للعوز وهي محبوسة لديه في البيت وتدبير شؤونه، وتربية الأولاد، فلا بدَّ إذاً من أن توفر لهن وسائل الحياة التي تكفيهن.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الرجل إذا كان يعرف أن المرأة تعمل قبل أن يتزوج منها وسكت على ذلك ولم يتفق معها على ترك العمل، فليس له

= الإذن دال على اعتبار المبرز والكاشف، وعدم كفاية مجرد الرضا الباطني». كتاب النكاح: ٢/ ٣٢٨. لكن ورد عن أمير المؤمنين ﷺ عن رسول الله ﷺ «إذنها صمتها» بحار الأنوار: ١٠٠/ ٢٧٣.

(١) سورة النساء، الآية: ١٩.

الحق في أن يطالبها بتركه ويأمرها بالبقاء في البيت، لأنه سكت ورضي. وهذا كحالة الاشتراط في صلب العقد. هذا على رأي البعض، أما البعض الآخر فيقول: إنه يملك الحق في أن يبقيها في البيت.

على أية حال فإنها إذا لم يكن عندها عمل تسد به حاجاتها الشخصية فالزوج حينئذٍ يكون مسؤولاً عنها بالنفقة بالمقدار الذي يليق بحاله وحالها. وعلى الأكثر يراعى حاله: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾[1]. أي يقدر حال الزوج، فإن كان ميسور الحال فعليه الإنفاق بقدره فلا يطعم أهله طعاماً رديئاً ولا يلبسهم ملابس رثة، وإن لم يكن ميسور الحال فلينفق بقدره أيضاً ولا يقترض ويبذخ ويسرف، فيسوء حاله.

فالمفروض إذاً أن تجري الأمور مجرى العدل الذي هو وضع الشيء موضعه، فالنفقة بالنسبة للإطعام والكسوة والسكن لا بدَّ أن تكون في حدود استطاعة الزوج. وهذا هو معنى أنه يجيرها من العوز والحاجة، يروي أبو داود في (السنن) بطرق أنه دخل رجل على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ما حق الزوجة عليّ؟ قال ﷺ: «تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت»[2].

والقبح سواء كان بقول أو بفعل، «ولا تهجر إلا في البيت»، فالمرأة لها كرامة، فلا تعرّضها لكلمة نابية خارج البيت، أما داخل البيت فمن الممكن أن تتصالحا.

فكرامة المرأة يجب أن تبقى محفوظة، بل أكثر من هذا، إذ عليك أن

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٧.

(٢) سنن أبي داوود: ١/ ٤٧٥/ ٢١٤٢ ـ ٢١٤٣.

تلطف أجواءك معها، يقول الحديث الشريف: «كل شيء يلهو به المسلم باطل إلا ثلاثاً: رمي الرجل بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبة أهله»[١].

فزوجتك لها حقوق الأجواء المنفتحة التي يتوفر فيها لون من الشفافية والرقة. لكن البعض حتى هذه الساعة يعيش أجواء الجاهلية في كل ممارساته، في حين أن الإسلام يرفض ذلك كل الرفض. فالرجل إذا كان قد استحل من المرأة ما استحل بكلمات الله فليس معناه أنه قد استعبدها، ذلك أنها تعطيه أكثر مما تعطي لأبيها أو أخيها، فقد فُرضت عليها أمور تجاه الزوج أيضاً.

فالإجارة إذاً هي من التعدي والمضارّة والانحراف، فيجب على الزوج ألا يكون عاملاً مساعداً لانحراف أهله، فالعربي هو من يقول:

أعمى إذا ما جارتي برزت ... حتى يواري جارتي الخدرُ

ويصم عما كان بينهما ... سمعي وما بي غيره وقرُ[٢]

فنحن نعيش في محيط المفترض بنا أن تغض فيه أبصارنا عما حرّم الله تعالى، لكن البعض في مجتمعاتنا هذه تراه يمشي مع زوجته وهي مسفرة، وترتدي ملابس شبه خليعة، واضعاً يده في يدها ويريد أن يصطحبها إلى المرقص ليعلمها الرقص، وهذا في حقيقة أمره إنما يغالط أعماقه وكيانه وحضارته وتاريخه، فهو يظن أن هذا مظهراً من مظاهر الحداثة والتطور.

فالذي ينبغي على الزوج أن يوفره لزوجته هو أجواء الستر والعفاف، وأن يحمي أهله من الانحراف، فالقرآن الكريم يعبر عنهن بقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[٣]. فكما أن اللباس يستر الإنسان، فكذلك الزوجة تستره من

---

(١) سنن الدارمي: ٢/ ٢٠٥.

(٢) البيتان لمسكين الدارمي أمالي السيد المرتضى: ٢/ ١٢٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

الانحراف، ففي الفقه الجنائي أنه إذا زنى شخص، فإن كان غير محصن (غير متزوج) فإنه يؤدّب بالجلد، وإن كان محصناً فإنه يرجم لأنه بفعله هذا إنما يريد هدم الأسرة ونشر العدوى.

فهذا المحصن لديه امرأة تغدو وتروح عليه ويغدو ويروح عليها، والله قد كفاه بهذا الزواج مسألة إشباع الرغبة الجنسية عنده، فلماذا إذاً يسطو على أعراض الناس؟ ولذا فإنه يرجم بأن يدفن إلى النصف من بدنه ويُرمى بالحجارة إلى أن يموت. فعلى الإنسان ألاّ ينحرف، فإن الزوجة لباس للزوج وستر له.

الزوجان سكن لبعضهما:

وكذلك فإن الله تعالى وضع بينهما رباطاً مقدّساً عبّر عنه في كتابه الكريم بـ(السكن)، فإن الإنسان له همومه ومشاكله مهما كان، فعندما يرجع من العمل مثلاً فإنه حتماً يرجع منهكاً متعباً مثقلاً بهموم الحياة، فيكون محتاجاً إلى أهله (زوجته) وأطفاله، ومشاهدة أسرته، ليغدقوا عليه جوّ الراحة والحب، وليخفف بهم من حدة مشاكله، ويمسح عنه آلامه، يقول القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[1]. فالمرأة سكن، وهي سكن للرجل لأنه ستر وغطاء لها. وهذا الرباط (السكن) هو رباط المحبّة والمودّة، والذي يهيّىء البيئة الصالحة التي تنشّىء الطفل تنشئة صحيحة، وتجعله يعيش مع المجتمع بشكل طبيعي من خلال الأبوين.

الزواج والأحكام التكليفية:

فالصاحبة إذاً مأخوذة من الإجارة، بمعنى أن الرجل مجير للمرأة، وكذلك المرأة إذ إن هناك تبادلاً بالأدوار.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الزواج يختلف من شخص لآخر وجوباً واستحباباً، فهو لمن يقدر عليه ومن يخشى على نفسه الوقوع في الحرام يصبح من الواجبات، أمّا إذا كان لا يخشى الوقوع في الحرام، فإنه يصبح بالنسبة إليه من المستحبّات. لكن الزواج لا يمكن أن يخرج عن كونه نظاماً طبيعياً للأسرة وللمجتمع، فلا بدَّ من إقدام كلّ فرد عليه. ولا تهمنا الدعوات التي تعمل على نقض الزواج وهدم الأسرة، فالماركسية مثلاً تعتبر أن الزواج ركيزة من ركائز الرأسمالية. بحجّة أنه يربّي في المجتمع لوناً من ألوان الأنانية، ويربي فيه الشعور بالطبقيّة، في حين أن الإسلام يرى أن الزواج عبارة عن الأسرة.. الخليّة التي يتكوّن المجتمع من مجموعها. وقد فشلت هذه النظرية واندحرت، وكذلك كان مصير كل النظريات التي عارضت هذا التركيب الطبيعي للمجتمعات.

إن الزواج يقوم على أساس واحد هو خلق الأسرة الطبيعية، فكل شيء مفتعل يوضع في هذا الطريق يجب إزالته، وإن الإنسان يجب أن يبقى في هذه الدنيا ليعمرها، ولا يكون بقاؤه إلاّ عن طريق الأولاد، فهم الذين يمثلونه من بعده، وإذا رحل ولم يكن له ولد فالعرب يعيّرونه ويعبّرون عنه بالأبتر، أي المنقطع الذكر.

المبحث الخامس ـ حقيقة زواج القاسم ابن الإمام الحسن عليه السلام:

فالأب والأم يفرحان لزواج ابنهما أو ابنتهما، أمّا بخصوص الزواج يوم الطفّ فإنه لم يحصل بالمعنى المعروف، لكن ربما قد حصل عقد وإن كانت الرواية التي وردت بهذا الشأن ضعيفة لا تنهض في إثبات ذلك، حيث إنها رواية مرسلة.

وربما تكون هذه المسألة قد جاءت (بناء على القول بصحة هذه الرواية) من

رغبة في نفس أمّه أو في نفس الإمام الحسين عليه السلام بأن يعقد له على إحدى بناته، حيث إن الإمام الحسن عليه السلام كان قد دفع القاسم قبل وفاته للإمام الحسين عليه السلام وأوصاه بأن يكفله وأن يجعله وديعة عنده.

وكان آخر نبلة في كنانة الإمام الحسين عليه السلام، ولما قتل لم يبق معه أحد في الخيمة، حيث كان عليه السلام قد وقف منادياً أمام الأشلاء المتناثرة من أهل بيته قبل أن يبرز القاسم إلى المعركة: «أما من مغيث يغيثنا؟ أما من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله؟»[1].

فخرج هذا الصبي، تقول الروايات: كان عمره بين التاسعة والحادية عشرة، فتعلّق بأذيال عمه عليه السلام وقال له: يا عم لا أقدر أن أسمعك تنادي: «أما من مغيث يغيثنا؟ أما من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله؟»، وأنا قابع في أعماق المخيّم، فائذن لي حتى أقاتل بين يديك.

فاستدناه الإمام الحسين عليه السلام، وتأمّل في وجهه وقال «يا آل محمد بعداً لقوم يكون جدّكم خصمهم يومَ القيامة، فيعرّضونكم للقتل وأنتم ريحانة رسول الله».

فلمّا ألحّ على عمّه قال: «ابرز بنيّ». فبرز وهو يرتجز:

إن تنكروني فأنا نجل الحسن ... سبط النبي المصطفى والمؤتمن

هذا حسين كالأسير المرتهن ... بين أناس لا سُقوا صوب المزن[2]

فقاتل قتال الأبطال، يقول حميد بن مسلم: مرّ بي وهو يفرس الناس بسيفه، فانقطع شراك نعله فانحنى ليصلحه فأقبل إليه الأزدي من ورائه، مستلاً

(١) كشف الغمّة: ٢/ ٢٦١، اللهوف في قتلى الطفوف: ٦١، بحار الأنوار: ٤٥/ ١٢.
(٢) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٢٥٥، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (الخوارزمي): ٢/ ٢٩.

سيفه وضربه على رأسه فسقط إلى الأرض يخور بدمه، وهو ينادي: أدركني يا عمّاه. فخفّ إليه الإمام الحسين عليه السلام على فرسه: وزاد الخيل عنه، وأقبل إليه ونزل إلى مصرعه، وأخذ يعانقه ويمسح الدم والتراب عن وجهه، وعاد به إلى المخيّم فاستقبلته أمّه.

فـجـعـنـي الـدهـر بـولـيـدي | وخـيّـب صـنـوة اسـنـيـنـي

اليوم الثامن

فضائل الحسنين عليهما السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

مقدمة حول إطعام الطعام:

إطعام الطعام ظاهرة من ظواهر الفخر في مجتمعاتنا المتحضرة كما كان في الجزيرة العربية كذلك. ولما جاء الإسلام أيّد هذا، بل وحبّذه. وهذا الأمر من الممكن أن يكون للعامل البيئي تأثير فيه. فكلنا يعرف أن الحياة في الجزيرة العربية حياة تتسم بأنها جافة غير لينة أو منعّمة أو مترفة، بل إنها تخضع لظروف قاسية غير معطاءة، فالرغيف فيها حتماً له قيمة كبيرة، ولذا كان الإطعام ظاهرة

(١) سورة الدهر، الآيتان: ٨ ـ ٩.

مفخرة عندهم. والبيت الذي يتصف بهذا ينعت بأنه بيت كرم. وأنا لا أقصد التأثير هنا على العامل البيئي فقط، بل ولا أدّعيه، لأن الإنسان الكريم كريم بطبعه، وهو يفخر بأنه كذلك، قال الشاعر:

سلي الطارق المعتر يا أم عامر إذا ما أتاني بين ناري مجزرة

أأبسط وجهي إنه أول القِرى وأبذل معروفي له دون منكري[1]

الخصال الثلاث:

وقد أمضى الإسلام هذا وأيده كما قلنا، فكان أن اعتبر أن من المفاخر ثلاث خلال، هي: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، والتهجد بالليل والناس نيام[2].

ومعنى إفشاء السلام: أن يكون الإنسان على خلق، فإذا مرّ بجماعة بدأهم بالتحية وهو بادي البشر، أي بعبارة أخرى: أنه يحقق الغاية من وجود الإنسان فهو إنما سمي إنساناً، لأنه يأنس بالناس والناس يأنسون به، وهو الذي يمكن أن يقال عنه: إنه يتحلى بالبشر والإنسانية.

والتهجد بالليل هو عين ما عبّر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾[3] فناشئة الليل: قيام الليل وإحياؤه بالصلاة والعبادة، أما وقته من الليل فعن ابن عباس[4] والسجاد عليه السلام[5] أنها ما بين المغرب

(١) تاريخ مدينة دمشق: ٢٧/ ٢٩٣ وفي بعض المصادر: سلي البائس المقرور يا أم مالك.

(٢) الكافي: ٤/ ٥١/ ٥.

(٣) سورة المزمل، الآية: ٦.

(٤) الدر المنثور: ٦/ ٢٧٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: ١٩/ ٤٠.

والعشاء، والأكثر أنها آخر الليل، وهو المناسب لقوله: ﴿أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ لأن الإنسان في آخر الليل يكون أشد إنهاكاً وتعباً وحاجة للنوم، وجسمه في غاية الخمول، فإذا قهر طبيعته وقام إلى الوقوف بين يدي الله فقطعاً يكون هذا أشد وطئاً. كما أن هذا الوقت أيضاً أصفى للذهن وأبعد عن الرياء، فيقضي ساعتين من وقته في الانقطاع إلى الله ومعه، وقيام الليل يرى أثره على الوجه.

فهذه الثلاثة يعتبرها الإسلام من المفاخر المقرّبة من الله، وإطعام الطعام منقبة في حد ذاته، وينبغي أن يكون لمن تحب ولمن تكره، وخلاف هذا ليس من الخلق في شيء. وكلنا يعرف أن ليلة وفاة أمير المؤمنين عليه السلام أدخل عليه ابن ملجم(لع)، فقال لهم: «ما فعل ضاربي؟ أطعموه من طعامي واسقوه من شرابي، فإن عشت فأنا أولى به»[1].

والواقع أن مثل هذا الأمر لا بدَّ له من إنسان يتسم بقابلية كبيرة ونبل سامٍ كي يتمكن من التعامل معه بالصورة التي تعامل بها أمير المؤمنين عليه السلام مع قاتله.

وبعد هذه المقدمة نعود إلى جو الآية فنقول: الآية المباركة فيها ثلاثة مباحث:

المبحث الأول ـ في المراد من الطعام:

قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾، فالطعام مشتق من الطعم وهو ما يستطعم مذاقه، حلواً كان أو مراً أو غير ذلك.

حكم طعام أهل الكتاب وذبائحهم:

وبهذا التصوير نجد أنفسنا أمام مشكلة ينبغي التنبه عليها وإيجاد حل لها، فالعالم أصبح بلداً واحداً، والمسافات تقاربت، وقد ورد في الروايات أنه

---

(١) كشف الغمة: ٢/ ٦٠.

«يرى من في المشرق من في المغرب»[١]، و«تكلم الرجل عذبة سوطه»[٢]، وهذا قد وقع فعلاً، فإن كان كذلك فنحن لا نعيش وحدنا في هذا العالم بل إننا نعيش مع أجناس متنوعة، مختلفة وأقلها أننا نعايش أهل الكتاب، فكيف نتعامل مع طعامهم والاستطعام منهم أمام التزامنا الديني؟ فرجل الأعمال المسلم الذي يجوب العالم بحثاً وراء عمله ورزقه نجده كل يوم في بلد، وهو يتعسّر عليه بل ربما يتعذر أن يجد مسلماً يأكل عنده، فكيف يواجه هذه المشكلة؟

القرآن الكريم يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾[٣]، فما هو طعام أهل الكتاب المقصود هنا؟ وما هو رأي المذاهب الإسلامية في المسألة؟ ولنبدأ ببيان رأي مذهبنا ثم آراء بقية المذاهب ثم نعود إلى جو الآية إن شاء الله.

آراء علمائنا:

لعلمائنا ـ رحمهم الله ـ في هذه المسألة قولان:

الأول: هو أن الطعام المقصود في هذه الآية هو الحبوب الجافة، وهو لغة أهل الحجاز وأهل العراق، فحينما يقول العراقي أو الحجازي: اشتريت طعاماً، فإنما يعني ما ذكرنا، وهذا هو المقصود بالآية، أي مما يزرعون[٤].

الثاني: وهو الذي عليه أغلب المحققين ـ: أن المقصود به مطلق الطعام المباح شرعاً[٥] بما فيه ذبائحهم، فبعض علمائنا يذهب إلى حلية ذبائحهم

---

(١) مستدرك سفينة البحار: ١/ ٣٦٠.

(٢) مسند أحمد: ٣/ ٨٤.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥.

(٤) تفسير القمي: ١/ ١٦٣.

(٥) مجمع البيان: ٣/ ٢٧٩.

وجواز أكلها إن أحرزت شروط التذكية التي هي استقبال القبلة والتسمية وقطع الأوداج واستقرار الحياة قبل الذبح، فبتوفر هذه الشروط يحل أكل ذبائحهم، وعلى هذا القول ـ جواز أكل ذبائحهم ـ فريق من علمائنا: منهم الصدوق[١] وابن الجنيد[٢] وابن أبي عقيل[٣] والشهيد الثاني[٤] وغيرهم، وبتعبير الشيخ الطبرسي «جماعة ممن يعتد به أصحابنا»[٥]، أي آراؤهم محترمة. وقد رأيت عند أحد علمائنا وهو المقداد الصيوري رأياً غريباً، وهو أن هؤلاء ذبائحهم محرّمة، لأنهم لا يسمّون على الذبيحة، وإن سموا وقالوا: «باسم الله» فهم لا يقصدون بلفظ الجلالة ما نقصده: لأنهم إنما يقولون: هو ثالث ثلاثة، فيعتبر النصارى الله والداً للمسيح ويعتبر اليهود الله والداً لعزير، وأن الله أبّد شريعة موسى. وهو إنكار للضرورة التي تقول: إن الأديان ختمت بالإسلام.

لكن على رأي السيوري تواجهنا مشكلة جديدة هي أن الأمر إن تم توجيهه كذلك فهذا يعني أننا لا نأكل من ذبائح بعض المسلمين، لأن هذا البعض يرى الله بغير ما نراه نحن عليه فهو يراه ذا يدٍ ولحيةٍ وساق[٦]. وهؤلاء لا نقول: إنهم يتكلمون بلا دليل، بل قد استندوا إلى ظواهر القرآن، فمن قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[٧] استفادوا أن لله يداً، ومن قوله ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾[٨] استفادوا أن له تعالى وجهاً.

---

(١) الفقيه: ٣/ ٣٣١ ـ ٣٣٢.
(٢) عنه في مختلف الشيعة: ٨/ ٣٩٦.
(٣) عنه في المصدر نفسه.
(٤) مسالك الأفهام: ١١/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥.
(٥) مجمع البيان: ٣/ ٢٧٩.
(٦) السيف الصقيل: ١٥٤.
(٧) سورة الفتح، الآية: ١٠.
(٨) سورة الرحمن، الآية: ٢٧.

فالتجسيم إنما جاء من الوقوف على ظواهر القرآن والأحاديث كما في الحديث الذي يروونه: «إن الله ضحك حتى بدت نواجذه»[١] أي أسنانه، وأنه يركب على ظهر حمار وينزل إلى سماء الدنيا[٢]. فإن كان الله كذلك ـ أي أنه جسم ـ فكيف يكون محيطاً بكل شيء، مع أن الجسم محدود ولا إحاطة له؟.

والغريب أن من يروي هذه الأحاديث، ويرى هذا المعتقد يتهم الشيعة بأنهم مجسّمة، والواقع أننا لا قائل منا بذلك البتة، بل وأحاديث أئمتنا[٣] وآراء علمائنا تصرّح بخلافه، وإن كان فليس إلا من هشام بن الحكم قبل أن ينصهر في مدرسة الإمام الصادق عليه السلام، فقد كان ينقل عنه القول بالتجسيم[٤]، فأخذوها ورموا الشيعة بها. فالحقيقة أن الشيعة لا تقول بهذا أبداً، بل التجسيم عند غيرنا، ونحن حتى الروايات النبوية الموجودة في كتبنا ليس فيها شيء من هذا القبيل.

إذاً هذا الشرط أو الرأي الذي يذهب إليه السيوري لا يمكن الأخذ به على ضوء ما قررنا، فما دام يقول «بإسم الله» فإن ذلك يكفي في المقام ولا حاجة إلى معرفة قصده.

ومن هنا اتضح الفرق بين ذبيحة المسلم وغيره، فالمسلم لا يسأل عن شرائط التذكية معه، بل إن فعله محمول على الصحة إلا من عُرف عنه أنه غير ملتزم بتعاليم الإسلام، فإنه يتوقف عن ذبائحه. أما الكتابي فيُسأل عن تحقق هذه الشرائط معه، وهذا هو سرّ التوقف في أكل اللحم المبتاع منهم.

---

(١) نور البراهين: ١/ ٢٥٠.

(٢) مؤتمر علماء بغداد: ٢٣.

(٣) الكافي: ١/ ٩١ ـ ١٠٦.

(٤) شرح أصول الكافي (المازندراني) ٣/ ٢٣٣.

آراء أهل السنة:

أما آراء أهل السنة فقال محيي الدين النووي: «قال أصحابنا: يستحب أن يتوجه الذابح إلى القبلة ويوجه الذبيحة إليها، وهذا مستحب في كل ذبيحة وهو في الأضحية والهدي أشد استحباباً؟ لأن الاستقبال مستحب في القربات. وفي كيفية توجيهها ثلاثة أوجه سبقت في باب الأضحية[1].

أصحها: أن يوجه مذبحها إلى القبلة ولا يوجه وجهها، ليمكنه هو أيضاً الاستقبال.

والثاني: يوجهها بجميع بدنها.

والثالث: يوجه قوائمها».

ثم قال: «يستحب أن يسمّي الله تعالى عند الذبح، وعند إرسال الكلب أو السهم إلى الصيد، فلو ترك التسمية عمداً أو سهواً حلّت الذبيحة والصيد، لكن في تركها عمداً ثلاثة أوجه:

الصحيح: أنه مكروه.

والثاني: لا يكره.

والثالث: يأثم به»[2].

وقال محمد بن الشربيني: «ويسنّ أن يوجه الذابح للقبلة ذبيحته، للاتباع ولأنها أفضل الجهات، والأصح أنه يوجه مذبحها لا وجهها ليمكنه أيضاً هو الاستقبال، فإنه يندب الاستقبال للذابح أيضاً. فإن قيل: هلا كرّه كالبول إلى

---

(١) المجموع: ٨/ ٤٠٨.

(٢) المجموع (محيي الدين النووي): ٩/ ٨٦.

القبلة؟ أجيب بأن هذا عبادة، ولهذا شرع فيها التسمية. وأن يقول عند ذبحها: «باسم الله»، لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾[١]، ولا تجب. فلو تركها عمداً أو سهواً حلّ.

وقال أبو حنيفة: إن تعمّد لم تحلّ، وأجاب أئمتنا بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾[٢]، فأباح المذكى ولم يذكر التسمية. وبأن الله تعالى أباح ذبائح أهل الكتاب بقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾[٣]، وهم لا يسمون غالباً، فدلّ على أنها غير واجبة. وبقول عائشة: إن قوماً قالوا: يا رسول الله، إن قومنا حديثو عهد بالجاهلية يأتونا بلحام لا ندري أذكروا اسم الله عليها أم لم يذكروا، أنأكل منها؟ فقال ﷺ: «اذكروا اسم الله وكلوا». رواه البخاري. ولو كان واجباً لما أجاز الأكل مع الشك. وروي أنه ﷺ قال: «المسلم يذبح على اسم الله سمّى أو لم يسمّ».

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمي الله تعالى؟ فقال ﷺ: «اسم الله في قلب كل مسلم».

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾[٤]، فالذي تقتضيه البلاغة أن قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ ليس معطوفاً، للتباين التام بين الجملتين، إذ الأولى فعلية إنشائية، والثانية اسمية خبرية، ولا يجوز أن تكون جواباً، لمكان الواو، فتعين أن تكون حالية، فتقيّد النهي بحال كون الذبح فسقاً، والفسق في الذبيحة مفسّر في كتاب الله بما أهل لغير الله به»[٥].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢٠.

(٥) مغني المحتاج: ٤/ ٢٧٢.

وفي المدونة الكبرى: «قلت: أرأيت إن نسي التسمية عند الإرسال، أيأكل؟ قال: قال مالك: يسمِّي الله إذا أكله. قلت: إن ترك التسمية عمداً؟ قال: هذا بمنزلة الذبيحة، إذا نسي التسمية فهو كمن نسي التسمية على الذبيحة، وإذا ترك التسمية عامداً عند الإرسال فهو كمن ترك التسمية على الذبيحة، فلا يأكله»[1].

وقال ابن حزم: «مسألة: وتذكية المرأة الحائض وغير الحائض والزنجي والأقلف والأخرس والفاسق والجنب والآبق، وما ذبح أو نحر لغير القبلة عمداً أو غير عمد جائز أكلها إذا ذكّوا وسمّوا على حسب طاقتهم بالإشارة من الأخرس، ويسمّي الأعجمي بلغته لقول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾، فخاطب كل مسلم ومسلمة. وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فلم يكلفوا منهم التسمية إلا ما قدروا عليه، وهو قول أبي حنيفة ومالك والشافعي وأبي سليمان. وفي كل ما ذكرنا خلاف، وقد ذكرنا منع طاووس من أكل ذبيحة الزنجي». ثم نقل عن ابن عباس قوله: «الأقلف لا تؤكل له ذبيحة ولا تقبل له صلاة ولا تجوز له شهادة». ثم قال: «وأجاز ذبيحته الحسن وحمّاد بن أبي سليمان. . . عن ابن عمر أنه كرّه أكلها ـ يعني ذبيحة الآبق ـ وأجازها سعيد بن المسيب. . . عن ابن عمر أنه كان يكره أن يأكل ذبيحة لغير القبلة. وصحّ عن ابن سيرين وجابر بن زيد مثل هذا. وصحت إباحة ذلك عن النخعي والشعبي والقاسم بن محمد والحسن البصري. قال أبو محمد: لا يعرف لابن عباس في ذبيحة الأقلف مخالف من الصحابة، ولا لابن عمر في ذبيحة الآبق، وما ذبح لغير القبلة مخالف من الصحابة. . . قال أبو محمد: «لو كان استقبال القبلة من شروط التذكية لما أغفل الله تعالى بيانه». وكذلك سائر ما ذكرنا.

---

(١) المدونة الكبرى: ٢/ ٥٤.

مسألة: وكل ما ذبحه أو نحره يهودي أو نصراني أو مجوسي نساؤهم أو رجالهم فهو حلال لنا، وشحومها حلال لنا إذا ذكروا اسم الله تعالى عليه، ولو نحر اليهودي بعيراً أو أرنباً حلّ أكله ولا نبالي ما حرّم عليهم في التوراة وما لم يحرّم. وقال مالك: «لا يحلّ أكل شحوم ما ذبحه اليهودي ولا ما ذبحوه مما لا يستحلونه»...»[١].

الإمام السجاد عليه السلام وتصدقه بالعنب:

واللام في قوله تعالى: ﴿ٱلطَّعَامِ﴾ هي لام الجنس، ولتوضيح المعنى هذا أضرب لك مثالاً فعن هشام بن سالم قال: كان علي بن الحسين عليه السلام يعجبه العنب، وكان ذات يوم صائماً، فلما أفطر كان أول ما جيء له بالعنب، أتته أم ولد له بعنقود فوضعته بين يديه، فجاء سائل فدفعه إليه، فدسّت إلى السائل فاشترته منه، ثم أتت به فوضعته بين يديه عليه السلام، فجاء سائل آخر فأعطاه، ففعلت أم الولد مثل ذلك، حتى فعل ثلاث مرات، فلما كان في الرابعة أكله[٢].

وكان عليه السلام يتصدق بالسكر واللوز، فسئل عن ذلك، فقرأ قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٣]، وكان يحبه[٤] فكانوا عليهم السلام يتصدقون بأجود ما لديهم من الطعام وينفقونه فيما يقرّبهم إلى الله. فاللام هنا تشمل كل الأنواع، أي كل ما يقع تحت مسمّى الطعام وجنسه، حسنه ورديئه، لكن أهل البيت (صلوات الله عليهم) يتصدقون بأجوده دائماً.

وهذا مشمول به الطعام غير المحرم وإلا فالطعام المحرم يحرم التصدق به

---

(١) المحلي: ٧/ ٤٥٣ ـ ٤٥٤/ ١٥٧ ـ ١٥٨.
(٢) بحار الأنوار: ٦٤/ ٧٢/ ٥٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.
(٤) بحار الأنوار: ٤٦/ ٨٩.

إلا عند من قام الدليل على حليته وفق مذهبه، كمن يحلل الأرنب متذرعاً بأن رسول الله ﷺ قد أكله[١]، أو أكله جماعة أمامه ولم ينههم[٢]، مع أننا لا نقول بها، ونذهب إلى ضعف هذه الروايات، بل إن عندنا روايات تنص على حرمة الأرنب[٣]. لكن يلاحظ أن البعض معتدّ برأيه وتأخذه به العزة بالإثم دون دليل. وهذا خارج عن محل الكلام وما هو إلا معاند يجعل الدليل تابعاً له دون أن يكون هو تابعاً للدليل.

ثم إن الإطعام له مقارنات لا بدَّ من اتصاف المطعم بها، ومنها البشاشة والبشر لحظة إعطاء الفقير أو الضيف طعامه:

أداعب ضيفي قبل إنزال رحله ... ويخصب عندي والمحل جديب

وما الخِصب للأضياف أن يكثر القرى ... ولكنما وجه الكريم خصيب[٤]

المبحث الثاني ـ في مرجع الهاء في (حُبِّهِ):

في الهاء هنا وجهان:

الأول: أن الضمير يعود على رب العزة، أي ويطعمون الطعام على حب الله ومن أجل وجهه. وهذا الرأي يفيد التأكيد لا التأسيس، ومعلوم أن التأسيس أفضل من التأكيد.

وقولنا: إنها للتأكيد، لأن الآية بعد ذلك تقول: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ فتكراره تأكيد لا جديد فيه.

---

(١) السنن الكبرى: ٣/ ١٥٥/ ٤٨٢٣.

(٢) السنن الكبرى: ٣/ ١٥٥/ ٤٨٢٢.

(٣) وسائل الشيعة: ٢٤/ ١٠٦/ ٣٠٠٩٥، ١٠٩/ ٣٠٠٩٩، ١١٠/ ٣٠١٠٢.

(٤) أمالي السيد المرتضى: ٢/ ١٢٣.

الثاني: أنه يعود على الطعام، أي يطعم الطعام على حب الطعام لجوعه وحاجته إليه، يقول الحديث: «أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عري كساه الله من خضر الجنة، وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم»[١].

فمن يقدم غيره على نفسه في الطعام مع حاجته إليه كان طعامه من أكل الجنة ومن يقدّمه على نفسه في الكسوة كان كساؤه من سندس الجنة، ومن يقدمه في الشراب كان شرابه رحيقاً مختوماً: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[٢] أي حاجة، وهذا ما يمكن أن يعبّر عنه بفناء الذات الخاصة في الذات العامة. وبهذا يكون أقرب إلى الله، فلا يترك أنانيته تجعله يعيش في قوقعة، لا يهتم بغيره وإن أصابه الطوفان: «من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»[٣].

وهذه هي الروح التي يريد الإسلام أن يغرسها في نفوس المسلمين ويحمله على أن يندمج في الأسرة الإسلامية، وأن يعتبر المسلمين أسرة واحدة. والإمام علي عليه السلام هذا النموذج الرائع للاقتداء والاحتذاء به يضرب لنا مثلاً سامياً في هذا المجال يقول: «أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش، فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة، همها علفها، أو المرسلة شغلها تقمّمها، تكترش من أعلافها، وتلهو عما يراد بها؟»[٤].

---

(١) سنن أبي داود: ١/ ٣٧٩/ ١٦٨٢.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٣) الكافي: ٢/ ١٦٣/ ١، ١٦٤/ ٤.

(٤) نهج البلاغة/ الكتاب: ٤٥.

فهذا هو النموذج الأعلى الذي يتحسس آلام الآخرين وهمومهم ومآسيهم، والذي يجب أن يحتذى.

المبحث الثالث ـ الأصناف الثلاثة في الآية الكريمة:

قوله تعالى: ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[1]، ثقل البحث يقع هنا، فلنتناول هذه الأصناف الثلاثة:

المسكين:

وهو الطوّاف الذي يسألك على فقر، وهذه مشكلة عويصة، لأن السائل يأتي المسؤول بلباس المسكنة، ولكن هل هو فقير فعلاً؟ هذا ما لا يمكن التحقق منه، ولذا ورد: «لو صدق السائل ما أفلح من رده»[2]. والمطلوب هنا أنك إن عرفت أنه صاحب حاجة فعلاً فيجب عليك إعطاؤه وألا تشيح بوجهك عنه، أما إن كان قد اتخذ هذه المسألة مهنة له مع قدرته على العمل فإن الحال ينقلب حينئذٍ، لأنه سيؤثم حينئذٍ بأخذ ما لا يستحق، وقد ورد في الحديث: «من سأل الناس من غير فاقة نزلت به، أو عيال لا يطيقهم، يأتي يوم القيامة بوجه ليس عليه لحم»[3]. وقد وقعت لأبي ذر ﷺ حادثة تعرض فيها للإغراء، فقد كان ينكر على معاوية أشياء يفعلها، فبعث إليه معاوية يوماً ثلاثمائة دينار، فقال أبو ذر لرسوله: «إن كانت من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا قبلتها، وإن كانت صلة فلا حاجة لي فيها. وردّها عليه»[4].

وكان ﷺ يقول: «جزى الله الدنيا عني مذمة بعد رغيفين من الشعير أتغدى

(١) سورة الدهر، الآية: ٨.
(٢) كشف الخفاء: ١/ ١٤٤، ٢/ ١٥٥.
(٣) العهود المحمدية: ٧٠٦.
(٤) بحار الأنوار: ٢٢/ ٤١٥.

بأحدهما وأتعشى بالآخر، وبعد شملتي الصوف أتزر بإحداهما وأتردى بالأخرى»[١].

وكان ﷺ في مرتبة عظيمة من الزهد والإيمان والتقوى، وقد بعث عثمان إليه بصرّة على يد عبد له وقال له: إن قبلها فأنت حر، فلم يقبلها منه، فقال له العبد: اقبلها فإن فيها عتقي. فقال: «إن كان فيها عتقك فإن فيها رقّي، وأنا قد قطعت علائق الدنيا لئلا أكون عبداً لغير الله»[٢].

وموضع الشاهد فيه أنه يقول بأنه ليس فقيراً بل عنده رغيفان لغدائه وعشائه فهذا يكفيه، فهو غني في نظره. والحقيقة أن الغنى والفقر في النفس، لأن فقراء النفوس لو أعطيتهم الدنيا كلها لقالوا: إننا فقراء، وتظل تلاحقهم عقدة الشعور بالفقر، وغنيّ النفس لو لم يجد إلا ما يسدّ به رمقه لاعتبر نفسه غنياً»[٣].

كما أنك تتحمل مسؤولية إضاعة أموالك وعدم وضعها في مواضعها فيما لو لم يكن هذا السائل محتاجاً فعلاً، لأنك تكون حينئذٍ قد وضعت الشيء في غير موضعه، والله قد أمر بالعدل وبوضع الأشياء مواضعها[٤].

اليتيم:

وهو من لا أب له من الناس، وبعض الفقهاء ومنهم القرطبي[٥] يذهب إلى أن المقصود باليتيم هو يتيم المسلمين. وربّ سائل يسأل فيقول: هل هذا الرأي يلتقي مع مزاج الإسلام؟ والجواب: «لا» لأن الإسلام أرحم من هذا، فاليتيم

---

(١) الكافي: ٢/ ١٣٤.
(٢) شجرة طوبى: ١/ ٧٥.
(٣) تاريخ مدينة دمشق: ٤٣/ ١١.
(٤) كشف الخفاء: ١/ ٥٨/ ١٤٦.
(٥) الجامع لأحكام القرآن: ١٩/ ١٢٩.

هو من لم يبلغ التكليف، ومن لم يكلّف بعد لا مسؤولية عليه ولا مواخذة، فلا معنى لحرمانه من العطاء لكون أبويه غير مسلمين.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن الله جلّ وعلا شدّد على رعاية اليتيم والعناية به وعدم قهره، حتى ورد: «إذا بكى اليتيم اهتزّ له العرش»[١].

فالله لا يرحم أمة لا ترعى أيتامها، خصوصاً في أوقات معينة، كزكاة الفطرة التي يحرص الإسلام على إعطائها قبل العيد، لأن بعض العوائل فيها يتامى ومحتاجون لا يستطيعون شراء ما يلزم للعيد، فإعطاؤك الفطرة قبل العيد قد يمكّن هؤلاء من شراء ثوب جديد أو حاجة تناسب فرحة العيد، فتستر عنده شيئاً من الشعور بالنقص والعوَز. وقد ورد أن من المستحبات أن يجلس اليتيم في حجر كافله أو وليه وأن يمسح على رأسه[٢]، وقد قال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة، إذا اتقى الله عز وجل»[٣]، وأشار بسبّابته والوسطى.

وعليه فليس من خلق الإسلام في شيء أن نقول: اليتيم هو الذي لا أب له من المسلمين، بل الواجب أن نقول: الذي لا أب له على الإطلاق في اللفظ. وهذا هو الذي يلتقي مع روح الإسلام، لأن الله قد عوّدنا على عطائه، وأنه لا يفرّق بين عباده في العطاء حتى أولئك الذين يصبحون ويمسون وهم يسبونه ويكفرون به، فلم نجد هؤلاء قد ماتوا جوعاً، بل إن الله يعطيهم ويرزقهم كغيرهم. «ويا من أعطى من سأله ويا من أعطى من لم يسأله ولم يعرفه تحنناً منه ورحمة»[٤].

---

(١) الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا ﷺ: ١٧٢.

(٢) ثواب الأعمال: ٢٣٧/ ١.

(٣) مسند أحمد بن حنبل: ٣/ ١٢٠.

(٤) الصحيفة السجادية: ٥٧٥.

هذا هو خلق الإسلام وخلق الله، أما أخلاقنا نحن فقد عوّدنا أنفسنا على أن نكفر كل من اختلف معنا في الرأي ونمنع عنه عطاءه ورزقه كما مرّ في قصة أبي ذر رضي الله عنه مع عثمان ومعاوية: وإن هذا إلا لؤم ومخالفة للحديث: «تخلّقوا بأخلاق الله»[1].

فلا ينبغي أن نصير سوط عذاب على من خالفنا، فالناس أحرار فيما يعتقدون، فلا نمنع عنهم رفدهم لهذا. خرج أمير المؤمنين عليه السلام ذات مرة من مسجد الكوفة فالتقاه أحدهم وقال له: أنا لا أبايعك ولا أخرج معك لقتال ولا أجتمع معك في جمعة أو جماعة. فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «وأنا لا أكرهك، ولا أمنع عنك عطاءك ما دام المسلمون منك في أمان»[2].

بمعنى أنك إن كنت مواطناً صالحاً لا تؤذي غيرك فلا شيء لي عندك، وأما البيعة فلا أكرهك عليها ولن أقطع عنك عطاء بسببها.

وهناك واقعة أخرى وهي أنه خرج الإمام الحسن عليه السلام على بغلة له ـ وكانت البغال الجيدة آنذاك كالسيارات عندنا حالياً جيّدها وقويّها يشد أنظار الناس ـ ما إن خرج حتى التقاه مروان واعترضه، فقال له عليه السلام: «ما شأنك؟». قال: أريد هذه البغلة التي أنت عليها، فنزل له الإمام عنها وأعطاه إياها[3]. مع أن مروان معروف بعدائه لأهل البيت عليهم السلام، وهو الذي خرج بعد ذلك مردداً:

يا رب هيجا هي خيرٌ من دعه[4]

لا تدعوا الحسن يدفن عند جده:

---

(١) بحار الأنوار: ٥٨/ ١٢٩.

(٢) الإصابة: ٣/ ١١٦/ ٣٣٦٤.

(٣) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ١٨٤.

(٤) مقاتل الطالبيين: ١٤٩.

وكل إناء بالذي فيه ينضح[١].

فالإنسان يجب أن يندكّ بأخيه الإنسان.

الأسير وآراء المفسرين فيه:

وليعلم بأن المفسرين اختلفوا في المراد من الأسير، وتنوعت كلماتهم فيه. فهم يذهبون فيه إلى ثلاثة آراء:

الرأي الأول ـ أنه أسير الكفار:

فالإسلام يلزمنا بإطعامه وعدم إجاعته، وكان الرسول ﷺ إذا أُتي بأسير سلّمه إلى أحد المسلمين وأمره بإطعامه والحنو عليه حتى يبتّ في أمره. فكان المسلمون يأخذونهم إلى بيوتهم ويعتنون بهم ويدفع له ذلك من بيت المال إن كان فقيراً. وهنا تتجلى الروح الكبيرة حيث إن هذا الأسير يؤتى به خائفاً مروعاً، وإذا به يلقى هذه المعاملة الكريمة، فحتماً كان دخول الكثير منهم الإسلام بسبب هذه المعاملة.

الرأي الثاني ـ أنه المحبوس:

لكن كيف ذلك؟ من المعلوم أن الفقه الجنائي الإسلامي فيه عقوبتان: الحبس وغيره من العقوبات التي تأتي في مقابل السجن، كالجلد والرجم والقتل وغيرها. وقد سبق أن بيَّنت هذا المعنى وأشبعته في كتاب (أحكام السجون). وهذا يعتمد على نوعية نظرية العقوبة في الإسلام التي تقوم على عنصرين: التربية والتأديب، والردع. ولتوضيح هذا لنستعرض ذلك عند فقهاء القانون الذين يعللون السجن للأشخاص، فبعضهم يقول بأنه انتقام لمن أجرم المدّعى عليه بحقهم واعتدى عليهم. وآخر يقول بأننا نريد أن نحقق العدل في المجتمع

---

(١) ذخائر العقبى: ١٤٢.

لأنه أجرم بحقه فلا بدَّ من أن تناله العقوبة. ويقول بعض: إنّا نريد أن نحمي المجتمع منه، لأنه يشكل خطراً على المجتمع، فهو أشبه ما يكون بفيروس أو ميكروب تجب مقارعته وإبادته واختراع المضادات والمصول الواقية منه.

لكن هناك رأي هو الأهم، وعليه أغلب فقهاء القانون في أوروبا والعالمين العربي والإسلامي، يقول هذا الرأي بأن السجن هو تأهيل للمدّعى عليه لإعادته فرداً صالحاً للمجتمع، لأن المجرم لم يولد كذلك بل صار كذلك نتيجة علاقته بالمجتمع، وكمثال على ذلك عدم تزويج الفتيات بحجة أن المتقدم لهن فقير أو أنه أسود، ومن باب الشيء بالشيء يذكر أن بعض السادة يرفضون تزويج بناتهم من غير السادة، مبررين ذلك بعدم تكافؤ الزوجين، فغير السيد لا يكافىء السيد، وهو دونه. والحقيقة أن هذا خلاف العدل والدين، لأن رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام زوّجا بناتهم من غير السادة، ثم إن المسلم كفء المسلم[1] والقرآن يقول: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾[2].

وعلى أية حال إن رفض الأب هذا قد يؤدي بابنته إلى الوقوع في الجريمة سيما إن كان قد فسح لها المجال. فمن الذي دفعها إلى هذه الجريمة إن وقعت بها؟ أليس هو الأب؟ ثم بعد ذلك يلجأ إلى القضاء عليها، يالله من مجتمع ينشىء الضحية بالمقدمات التي تؤدي إلى الفساد، ثم يعاقبها!

على أية حال هذا السجين ليس مجرماً بطبعه، وعليه يجب تأمين الطعام والشراب له حتى تنتهي رحلة التأديب والتأهيل هذه سيما إن كان قد دخل السجن بسبب فيه نوع إنسانية، كمن يسرق لأنه جوعان ثم أُخذ وأُدخل السجن، مع أن البعض قد يسرق ويدخل السجن لسوء تربية.

---

(١) المحلي: ١/ ٢٤.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

الدكتور يُسأل عن جواز بيع المخدرات على الكفرة:

وأود أن أذكر هنا مسألة حدثت لي مع أحد المسلمين في بريطانيا حيث جاءني سائلاً، قال: أنا أعيش في هذا البلد وأنت تعلم بأن أهله كفرة، فهل يجوز لي أن أبيعهم المخدرات؟ في الحقيقة أنا ذهلت لسؤاله واندهشت، ثم قلت له: أريد أن أسألك سؤالاً. قال: تفضل! قلت له: أنت آتٍ من بلد مسلم؟ قال: نعم، قلت: هل وفّر لك بلدك الأمان والخدمات الاجتماعية والحريات؟ قال: لا قلت: وهنا، هل توفرت لك؟ قال: نعم، قلت: كل شيء؟ قال كل شيء. قلت: فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ هل هذا جزاء من آواك ووفّر لك الأمن والطعام والهوية والحرية والخدمات الاجتماعية؟ أي تربية هذه؟ وأي نشأة هذه التي نحن عليها؟ وأي تفكير هذا الذي نحن عليه؟ ألا يعلم هذا الشخص أن قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ۝٦٠﴾[1] تجري مع المسلم والكافر كما قال الصادق عليه السلام: «جرت في الكافر والمؤمن والبر والفاجر»[2].

ثم إن شكر المنعم واجب عقلاً ونقلاً[3]، سواء كان المنعم كافراً أو مسلماً، وهذا قد أنعم عليه بما لم ينعم به عليه المسلم، أفلا يستحق الشكر؟ فالحقيقة نحن الذين نصوغ الإنسان مجرماً ثم نبدأ بالبحث عن الحلول.

فالمحبوس إن كان مجرماً فهو من فعل تربيتنا وإلا فإن «كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجسانه»[4].

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٦٠.

(٢) تفسير نور الثقلين: ٥/ ١٩٩/ ٥٨ عن العياشي.

(٣) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: ٤٣٥.

(٤) الاحتجاج: ٢/ ١٧٦.

فإن كانت النظرية الإسلامية في السجون ترى أن الغرض من السجن هو إعادة تأهيل السجين وإرجاعه عضواً صالحاً للمجتمع فلا بدّ من وجوب إطعامه، فإن كان ذا مال أطعم من ماله على رأي بعض الفقهاء، وإلا أطعم من بيت مال المسلمين.

الرأي الثالث ـ إنه المرأة:

وتوضيح ذلك أن نقول: إن الزوج لما كان القيّم على المرأة[١]، ولما كان الطلاق بيده: «الطلاق لمن أخذ بالساق»[٢] كانت المرأة عنده أشبه بالأسير، لأنها أصبحت مشدودة بالعقد للزوج.

تقول الرواية: «ابنتك كريمتك، فانظر لمن تُرقّها»، لأنك سوف تجعلها كالرق لزوجها، فانظر هذا الذي سوف تزوجه منها إن كان على خلق ودين وورع وتقوى، ولا تنظر إلى ماله وجاهه، فربما ـ لعدم التزامه ـ طلّقها بعد مدة وتركها وأطفالها. فعليك أن تزوجها ممن يشعر بالمسؤولية وممن ينظر إلى المرأة على أنها رفيقة دربه في الحياة، وليست مجرد وسيلة لهو وقضاء شهوة، فهي نصف المجتمع: «استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوانٍ»[٣] والعاني: الأسير[٤].

والمراد: اعتنوا بهن فإنهن أشبه بالأسيرات عندكم، لأنهن مُلكن بالعقد. وهناك بعض الرجال ممن يتصف باللؤم يستغل هذه الناحية من العقد ويستفيد منها، فلا يطلقها ولا يحسن معاملتها فيما لو لم يحصل اتفاق بينهما مع أن هذه

---

(١) قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٤].
(٢) عوالي اللآلي: ٢٣٤/ ١٣٧.
(٣) عوالي اللآلي: ١/ ٢٥٥/ ١٦.
(٤) لسان العرب: ١٠/ ٤٧٦ ـ الرق.

المرأة قد نثرت[١] له بطنها، والبيت الذي يعيش فيه لا قيمة له ولا حياة من دونها، فهو أشبه ما يكون بالمقبرة، والمرأة فقط هي التي تعيد له الحياة بلمساتها الدافئة وأخلاقها ورعايتها لأطفالها، فتتحول بذلك بيوتنا إلى خلايا متحركة. فهل بعد هذا يمكن أن نتصور أن الله تعالى يتركنا إن لم نحسن معاملة المرأة وكم نكرمها ونتعمد الإساءة إليها؟ لا، إن من ورائنا حساباً شديداً. وكذلك المرأة تقع عليها المسؤولية نفسها ويترتب عليها الواجب عينه.

لماذا توصف المرأة بأنها أسيرة؟:

وقد يقول أحد: لماذا توصف المرأة بأنها أسيرة، والإسلام أعطاها حق فسخ العقد في موارد، وحق طلب الطلاق في أخرى إن استطاعت أن تثبت أن زوجها يضارّها؟ والواقع أن هذا ليس من الشعور بالمسؤولية في شيء والقائل به لا يقدّر الأمور حق قدرها، ولا يشعر بتلك المسؤولية: لأن الزوجة إن كان لها أبناء من زوجها فهل تتصور أن من السهل عليها طلب الطلاق؟ بل وحتى على المجتمع؟ ما هو مصير الأولاد؟ وما هو المردود النفسي والأثر السلوكي عليهم بعد وقوعه؟ أليس كلنا يعرف أن الطفل إن رأى أبويه منسجمين فإنه يرى الحياة جنة وينشأ نشأة سليمة، وبخلافه من يرى أبويه غير منسجمين، فإن سلوكيته تتغير نحو الفساد، وربما نشأ مجرماً يصبّ غضبه على المجتمع بعد أن يكبر؟ ولذا فإن المشرّع الإسلامي حينما يضع أسس العلاقة يصفها شريفة نزيهة مثبتة قائمة على المودة والرحمة: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[٢].

وهذا النظام من العلاقة يبنى على طبيعة تربية الفرد عليه وعدمها، ولا دخل

---

(١) امرأة نثور، كثيرة الولد العين ٨/ ٢٢ نثر.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢١.

للتعليم فيه، بل لو تفحصت لوجدت أن بيوت المتعلمين هي الأكثر مشاكل بين غيرها من بيوت الأميين.

فالإنسان الذي يربى على أن هذه المرأة هي شريكة حياة ورفيقة درب فإنه حتماً سيعاملها معاملة قائمة على تلك الأسس التي يريدها الله، قال رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[١]، فقد كان ﷺ على صدر رحب.

فالنساء شقائق الرجال[٢]، والرجل لا تستقر حياته إلا بالزواج، ولذلك فإن أهم يوم في حياة الأم أن ترى زواج أبنائها. وهو معنى يريح الأبوين كليهما، لأن الأم ترى أن في زواج ابنتها ستراً لها وكفاية، والرجل يرى في زواج ابنه أول خطوة له في طريق بناء حياته الصحيحة، وكذلك أنه سيوجد الامتداد الطبيعي له وهو الذرية.

ومن هنا عبّر القرآن الكريم عنها بالأسير حتى يستدرّ عطف الرجال عليها، فإنك إن كنت متفرداً بفرص الحياة بحكم ذكورتك فينبغي عليك ألا تعتدي على فرص أخرى في الحياة لأهلك. فكل ما يريده الله هو أن يكون هناك مباءة[٣] رحمة بين الزوجين حتى يصبح زواجهما مما تقرّ به عين الأب والأم.

لكن ما نقول في أم ترى ابنها وهو يافع وبرعم من براعم الحياة الواعدة مذبوحاً من الوريد إلى الوريد؟ وما الذي يجري لها؟ الواقع أن القلم مهما بلغ لا يستطيع أن يصف شعورها حينئذٍ. الحسين عليه السلام يوم الطف لما وقع القاسم عليه السلام ـ والظاهر أنه كان آخر نبلة في كنانة الحسين عليه السلام ـ نزل إليه وذاد عنه

---

(١) الفقيه: ٣/ ٥٥٥/ ٤٩٠٨.

(٢) مسند أحمد: ٦/ ٢٥٦.

(٣) المباءة: مصدر ميمي من (بوأ)، وهو منزل القوم ومكان سكنهم. الصحاح: ١/ ٣٧ ـ بوأ.

الخيل يميناً وشمالاً وجلس عنده، ونظر إلى محاسنه قد خضّبها الدم والتراب، وإلى عينيه وقد أطبقتا، ثم مسح عنه الدم والتراب وقال: «يا ابن أخي، بُعداً لقوم قتلوك، خصمهم فيك يوم القيامة رسول الله ﷺ»[1]. ثم أخذ رأسه ووضعه في حجره ثم أقبل به يحمله إلى المخيم واضعاً صدره على صدره ورجلاه تخطان الأرض[2] وبعد أن وضعه مع القتلى خرج من الخيمة ليفسح المجال لأمه وعمته وباقي النساء، فدخلت إليه أمه ووضعت رأسه في حجرها:

فجعني الدهر بولدي وخيب ضنوة اسنيني

---

(١) شرح الأخبار: ٣/ ١٨٠.

(٢) حول هذه العبارة علّق بعضهم قائلاً: فيها دلالة على انحناء ظهر الحسين ﷺ حينها من شدة فاجعته بمقتل سلالة الإمام الحسن ﷺ.

الليلة التاسعة

بر الوالدين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول ـ رعاية الأسرة في القرآن:

إن المساحة التي يعطيها القرآن الكريم لرعاية الأسرة مساحة كبيرة، حيث إن الأسرة هي العشّ الذي تنشأ فيه الأخلاق، وهي الخليّة في بناء المجتمع، فإذا فسدت فسد المجتمع، وإذا صلحت صلح.

فالشريعة تهتمّ اهتماماً واسعاً وكبيراً بالأسرة خصوصاً فيما يتعلّق بتنظيم أمورها والعلاقات بين أفرادها، كعلاقة الزوج بالزوجة، والأب بأولاده،

(١) سورة لقمان، الآية: ١٤.

والأولاد بأبويهما. ومن جملة الآيات التي عنيت بهذا الجانب هي هذه الآية.

ومجتمعاتنا الإسلامية بحاجة ماسّة إلى تربية الأسرة، فهي مجتمعات قائمة على أساس عدم الثقة فيما بينها، والتوثّب للانقضاض على بعضها:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا[١]

فهذا يا للأسف أصبح شعار الكثير من المسلمين، وهكذا فإنهم ينشغلون بأمور جانبية، فإن أقيمت شعائر لآل محمدﷺ انقلبت الدنيا. ولست أدري لِمَ يثير هذا حساسية كثير من الناس، مع أن الحسين عليه السلام مصباح الهدى، والفعاليّات التي تقام لأجله ينبغي أن تكون بمستواه وبما يناسب منزلته.

المبحث الثاني ـ دور الوالدين وأثرهما في الابن:

تقول الآية الكريمة: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ الوصية هنا بمعنى الأمر، مثل ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾[٢]، فالله تعالى يأمر الإنسان ببرّ والديه والإحسان إليهما. والمتعلق[٣] لم يذكر هنا، ولذا فإنه يفيد العموم، فتكون الوصيّة بما يحقّق معنى الأبوّة والبنوّة.

قد يسأل سائل: إن الولادة إنما نتعقّلها من طرف الأم، فهي التي تلد، فلماذا نسمي الأب والداً؟ فإنه لم يلد وإنما تخرج منه النطفة في أحسن لذاته.

فالولادة الحقيقية تقع على الأم، فلماذا يعبّر القرآن الكريم عنها وعن الأب بقوله: ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾؟

---

(١) شرح المعلقات السبع: ١١١ ـ ١٢٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠.

(٣) أي الشيء الذي تكون فيه الوصية وتكون هي مورده، أي أنه يريد التوصية بهما بكل موارد البرّ والإحسان التي يقرّها الشرع والعقل.

والجواب: إن هذا في الحقيقة من باب التغليب أو المقابلة. مثل (القمران) للشمس والقمر، وإلا فإن التي تلد هي الأم دون الأب، فهي التي تتحمل الأعباء من حمل وطلق وولادة وتعب، أما الأب فعليه أعباء من نوع آخر، حيث إنه يتحمل هموم التربية ومسؤوليتها، إذ يقع عليه عبء إخراجه إلى المجتمع، وعليه حينها أن يراقبه بحذر أن يضل ويتيه في دهاليزه المظلمة، وأن يحميه من الخرافات والوسائل المتطرفة، ومن الانحدار الخلقي. كما عليه أن يحاول تغذية تطلعاته وتوفير جو من الرعاية والتعليم والتربية الكافية له، وألا يحمله على العقوق.

وهذه مسؤولية الأب الواعي، حيث إن الأب هو سبب وجوده، فهو الذي أخرجه إلى الدنيا وإلى الوجود، فلا بدَّ من أن يحميه ويهيىء له الأجواء الصحيحة والصحية المناسبة لتربيته.

وقد منح القرآن الكريم الأم المزيد من العناية، حيث قال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾، فالحمل حينما يأخذ بالتقدم في النمو فإنه يصبح على ظهر الأم أثقل من حمل البعير، والحمل هو الذي في البطن. فـ ﴿حَمَلَتْهُ﴾ هنا يعني في البطن ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي أدوار الحمل التي تمر بها المرأة. وتبدأ معاناتها من مرحلة العلوق، حيث تمر عليها أيام الوحام وهي في غاية الشدة، ثم ثقل الحمل والتعرض إلى مضاعفاته، بحيث إنه يمنعها من الراحة والنوم والطعام. لكن هذا يقابله لذة الشعور بامتداد الذات، حيث ستؤدي وظيفتها بالأمومة، وهي تشعر بأنها ستكون أماً، وسيكون لها غبطة، لكن مع هذا الإحساس العالي تبقى أعراض الحمل ومتاعبه، حيث تزداد ضعفاً ومشقة.

فالقرآن الكريم يريد أن يصور للولد معاناة الأم في حملها به، ويعمقها في نفسه، فكم تتعب وتعاني! فلا تنسَ كل شيء. ثم إن البعض من الأبناء بمجرد

أن يتعرضوا إلى مشكلة، أو أن يصطدموا بأية عقبة في الحياة، فإنهم سرعان ما يجزعون ويفقدون الصبر، ويرفعون أصواتهم: لماذا وُلدنا؟ ولماذا جاء بنا آباؤنا إلى هذه الدنيا حيث البلايا والمصائب والمتاعب؟ فيبدؤون بالتذمّر وتحميل آبائهم مسؤولية ذلك.

ما خيروني يوم جئت الوجود ولم أُخيّر بعدها إذ أعود

وسوف أمضي وأنا جاهل نهايتي فيم وممّ الورود

مع أن هذا من غير الصحيح قوله، فنحن لسنا جاهلين بالواقع، فقد خلقنا الله تعالى لعلة ولحكمة، فإن «الدنيا مزرعة الآخرة».

المبحث الثالث ـ الفصال والآثار الوضعية للرضاعة:

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَفِصَالُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ الفصال: الفطام من الرضاع، أي أن الطفل يُرضع سنتين، وأما ما زاد عليهما فهو يخضع لأحكام سنذكرها بعد قليل إن شاء الله. غير أنه لا يجب على الأم أن ترضع طفلها أكثر من سنتين لو أراد الزوج ذلك، ويجوز لها ذلك إن هي أرادته. والقرآن الكريم يؤكد هنا على رضاعة الأم ابنها، لكن الذي نراه الآن والذي يحصل غالباً أن الأمهات إما أن يدفعن أطفالهن إلى المربيات ليرضعنه، أو أنهن يعوّدنه على اللبن الصناعي، بدعوى أنهن يرمين من وراء ذلك إلى المحافظة على رشاقتهن.

آثار الرضاعة الوضعية على الوليد:

إن لبن الأم ضروري جداً للأطفال، حيث إنه يتوفر على كل المواد الأساسية (الدهنية والنشوية والأملاح والمعادن والبروتينات والزلاليات) الضرورية لصحة الأطفال، خصوصاً في الأيام الأولى من حياتهم، حيث إن

المادة التي يفرزها الثدي تعتبر عاملاً مطهراً لمعدته، وتعطيه مناعة ضد مجموعة من الأمراض.

ومن حكمة الله تعالى أن لبن الأم يتناسب وحاجة الطفل، فالطفل الذي عمره شهر يمتاز لبنه بأن له كثافة معينة تختلف عن كثافة ذلك الذي عمره شهران، ثم إن الثدي يعطي الطفل حسب اشتهائه، ولا يعطيه أكثر من حاجته، كما أن لبن الأم يعطي الطفل الأمان من النزلات المعوية والأمراض والمشاكل. فلبن الأم مصنّع ومنظّم في غاية الدقة والإتقان.

وهي إلى ذلك تغذو وليدها مع اللبن العطف والحنان والرحمة والحب.

آثار الرضاعة الوضعية على الأم:

أما بالنسبة للأم فإن عملية الرضاعة الطبيعية تؤدي فيها إلى امتصاص مضاعفات الحمل منها وإلى إعادة الرحم لحجمه الطبيعي، ومنع حدوث سرطان الرحم وسرطان الثدي، وهذا يحصل كله بعملية الرضاعة الطبيعية.

ثم إن عملية الرضاعة هذه هي التي تنشر الحرمة التي يقول فقهاء الإمامية بأنها تنشأ من اللبن الذي يتناوله الطفل عبر التقام الثدي وامتصاصه ولذا فإن الشريعة المقدسة تؤكد على الأم ألا تهمل هذا الواجب.

أهداف تحديد الرضاعة بالعامين:

وهنا أمر ينبغي الإلماح إليه، وهو أن قول الآية الكريمة: ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ لا يعني أنها لا يجوز لها أن ترضعه أكثر من سنتين فلو أرادت ذلك جاز، إذ لا مانع منه، لكن القرآن نص على العامين لأهداف، منها:

الأول ـ عدم استحقاق الأجرة بعدهما:

فالمرأة لا تستحق أجراً على الرضاعة لو طالبت به إذا كانت الرضاعة

واقعة بعد تجاوز الرضيع العامين، بل لها أن تأخذ الأجر على الرضاعة خلال السنتين فقط.

الثاني ـ درء النزاع فيما لو طالب الزوج بالرضاعة أكثر:

أي لو اختلف الأب والأم وتنازعا حول الفترة التي يجب أن ترضع الأم فيها وليدها. فقال الأب: أرضعيه حتى بعد السنتين. وقالت الأم: لا أرضعه بعدهما. فهنا يُرجع إلى الآية الكريمة: ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ أي أن المدة هنا محددة ولا داعي معها إلى النزاع.

الثالث ـ بيان أجل نشر الحرمة:

فإن الطفل الذي يرتضع لمدة سنتين من ثدي أمه، ثم يُنقل إلى مرضعة لجفاف ثديها، وكان عند المرضعة بنت، فإن اللبن لا ينشر الحرمة هنا، لأن الرضاعة وقعت بعد السنتين، وعليه فإن البنت التي رضعت معه لا تصبح أختاً، وبالتالي يجوز له أن يتزوج منها.

هذا على رأينا نحن الإمامية، أما عند غيرنا فإن أبا حنيفة يقول: إن نشر الحرمة يستمر إلى الشهر الثلاثين، أي في مدة ستين ونصف[1].

أما البعض فيقول: إنه ينشر الحرمة من المرأة ولو كان عمر المرتضع (٢٠) سنة، وهذا رأي عائشة وعطاء والليث، مع أن أم سلمة وسائر نساء النبي ﷺ قد خالفنهم في الرأي، وأبين أن يدخل عليهن أحد بتلك الرضاعة حتى يكون قد رضع في المهد، وكذلك خالف عائشة جملة من الصحابة. ومستندهم في ذلك ما روي من أن سهلة بنت سهيل قالت: يا رسول الله، إنا كنا نرى سالماً ولداً

(١) الدر المختار: ٣/ ٢٢٩.

فكان يأوي معي ومع أبي حذيفة في بيت واحد ويراني، وقد أنزل الله فيهم ما قد علمت، فكيف ترى فيه؟

فقال لها النبيﷺ: «أرضعيه». فأرضعته خمس رضعات، فكان بمنزلة ولدها، فبذلك كانت عائشة تأخذ بنات أخواتها وبنات إخوانها يرضعن من أحبّت عائشة أن يراها ويدخل عليها(١).

وهذه أحكام غير ناهضة ولا نقبلها بحال، والرواية معارضة بما هو أمتن سنداً وأقوى دلالة.

المبحث الرابع ـ متعلق الشكر في ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾:

ثم قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾، فما هو المقصود بالشكر هنا؟ يقول المفسرون: إن الشكر هنا يتوجه إلى النعمة السببية، فمثلاً يتوجه بالعبادة إلى نعمة الخلق، فهو هنا يتوجه إلى النعمة السببية، حيث إن الإنسان يشكر الله تعالى، لأنه خالق، لكن لماذا نشكر الأبوين؟ وما هو شكرهما؟ وكيف يكون؟ فهنا أمران:

الأول ـ سبب شكر الأبوين:

إن الله تعالى إنما أوجب علينا شكر الأبوين لأنهما السبب في وجودنا وحياتنا وبقائنا في هذه الحياة، حيث إنهما تحملا آلام الحمل والوضع والتربية والرعاية والإعالة كلاً من وظيفته، فيتعين إذاً على الولد شكرهما.

الثاني ـ كيفية شكرهما وماهيّته:

إن الشكر له مراحل، فهناك الشكر القولي، أي أن يقول الولد لأبويه مثلاً:

---

(١) المغني: ٩/ ٢٠١.

جزاكما الله خيراً، فقد تعبتما وصبرتما وتحملتما الآلام من أجلي، وهناك مرحلة عملية من الشكر، وهي التأدب بحضورهما. وألا يحد الابن النظر إليهما، أو يفعل ما يسيئهما، وألا ينظر إليهما بعين الغضب، وألاّ تبدر منه كلمة نابية إزاءهما، ولذلك أصبح عقوق الوالدين من الكبائر التي يؤخذ بها صاحبها، لأنه خلاف ما أمر به القرآن الكريم، حيث إنه أمر بشكرهما: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾.

وهكذا فقد جعل الله شكرهما بعد شكره، أي أنه يتوجه الشكر للوالدين مع شكره تعالى. فصحيح أن الله هو الذي خلق، لكن الوالدان هما السبب الطبيعي للخلق.

ولذا فإنه تعالى أعقب ذلك بقوله: ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾، وهو تعقيب بكلام فيه جو من التهذيب، أي أنك أيها الإنسان راجع إلى الله الذي يعرف كيف كنت تعامل أبويك فيما إذا كانت معاملة حسنة أو معاملة سيئة، وسوف يجازيك ويكافئك على ذلك. فإذا لم تراعِ الوالدين ولم ترعَ أمرهما فمصيرك بيده، وهو الذي يتولى أمرك وحسابك.

المبحث الخامس ـ الإطلاق في الوصية بالوالدين:

هذا هو الجو العام للآية، لكن نود أن نسأل سؤالاً آخر هو: لماذا يطلق القرآن في وصيته الولد بوالديه؟ أي أن القرآن الكريم عندما نص على توصية الولد بوالديه فإنما نص على الوالدين مطلقاً، مع أن هناك آباء وأمهات ليسوا على المستوى المطلوب أحياناً، أي أن وظيفتهما حينئذٍ لم تكن أكثر من إخراج الولد الدنيا، ثم يكلونه إليها دون أن يكون لهما دور إيجابي في تربيته. ثم لماذا لم يوصِ في المقابل الوالدين اللذين يتصفان بما ذكرنا بولدهما؟

ونقول: إن القرآن الكريم لا يحتاج لأن يوصي الوالدين بالولد، لأن

الشفقة على الولد تجري من الوالدين مجرى الدم من العروق، فإذا مرّت نائبة على الولد فإنها تصيب الأب والأم قبل أن تصيب ولدهما، وهذا المعنى مجبول عليه حتى الحيوان، وليس الإنسان فقط.

وفي تشريعنا الإسلامي في آداب الذباحة ـ حيث أبيحت لنا لحوم الحيوانات ـ أن هذه الحيوانات يكره أن تذبح أمام أبويها، ويروي المؤرخون أكثر من حادثة في هذا الخصوص لحيوان يذبح ولده أمامه فيؤثر ذلك فيه، حيث يروى أن ناقة ذبح طفلها أمامها ثم ذبحوها فوجدوا صدعاً في كبدها من الأثر الذي أحدثه حزنها وألمها عليه، فالحيوان ـ كما الإنسان ـ يحسّ ويشعر، ولذا فإنه يستشعر الألم الذي يعتصره، كما أن عنده شفقة على طفله، ويمكن مراجعة الكتب التي تعنى بالسلوك الحيواني لكل الحيوانات على اختلاف مستويات إدراكاتها.

وهناك مسألة يثيرها الفسيولوجيون، وهي: هل إن إحساس الحيوان ناتج من الغريزة، أم لكمية محدودة من العقل؟ فنحن نرى حيواناً يقفز حفرة، فهل هذا التصرف ينبع من غريزته أم أن عنده نسبة من الإدراك؟ يميل العلم إلى أن له نسبة من الإدراك، وهذا ما أثبته العلماء، وهذه النسبة من الإدراك هي التي تجعله يتألم ويشعر بطفله، لذلك فإن القرآن الكريم لا يحتاج لأن يوصي الوالدين بالولد، فالأبوان يعتزان بالولد غاية الاعتزاز، فهو روحهما التي بين جنبيهما، وهو الرباط الذي يربط بين القلبين المتنافرين.

وهذا الأمر يتضح أكثر من خلال الرجوع إلى المحاكم لمعرفة نسبة الطلاق التي تقع بين من لم ينجبوا أطفالاً بعد، حيث نجدها النسبة الأعلى بين المطلقين، لأن الأبوين إذا رزقا بطفل انخفضت نسبة الطلاق بينهما، لأنهما سيفكران ـ إن كانا واعيين ـ في أن الطفل سيضيع إن وقع الطلاق بينهما.

والولد ثمرة الفؤاد والريحانة، وخصوصاً الأب، فإنه إذا كان عنده أولاد فإنه سيعتز بهم ويفاخر، يروى أنه كان عمرو بن المنذر بن ماء السماء يسمى من شدة بأسه محرّقاً، وقد اجتمعت الوفود عنده مرة، فأخرج من لباسه بردين وقال: ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذهما. فقام عامر بن أحيمر فأخذهما فائتزر بواحدة وارتدى الأخرى، فقال له عمرو بن المنذر: أنت أعز العربي قبيلة؟ قال: نعم، لأن العز كله في معد، والعدد في معدّ ثم في نزار ثم في مضر ثم في تميم ثم في سعد ثم في كعب. فمن أنكر ذلك فليناظرني.

فسكت الناس، فقال عمرو بن المنذر: هذه عشيرتك كما تزعم، فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك؟ فقال: أنا أبو عشرة، وأخو عشرة، وعم عشرة، وخال عشرة، وها أنا في نفسي وشاهد العز شاهدي، ثم وضع قدمه على الأرض وقال: من أزالها من مكانها فله مئة من الإبل. فلم يقم إليه أحد، فخرج بالبردين، وضُرب المثل بعزه وببرديه[1].

فعامر بن أحيمر هذا يعتز بأولاده ويفتخر بهم أمام الملوك، بل ويفاخرهم بهم، وهذا ليس عند العرب فقط، بل هو موجود حتى عند أبناء الحضارات الأخرى كالحضارة الأوروبية، حيث كان الأوروبيون يفتخرون بذلك.

مشروع الأسرة بين الإسلام والغرب:

هذا مع أنه ربما يفترض أحد بأن هناك تحديداً للنسل فرضه العامل الاقتصادي، وفي أوروبا نجد أن هناك عوامل أخرى غير العامل الاقتصادي أوجبت عليهم أن يقتصروا في الإنجاب على ولد واحد. ومن جملة هذه الأمور الحماية، حيث إن النظام الحاكم فيها يوفر الحماية لكل أفراد الشعب، فلا

---

(١) خزانة الأدب: ١/ ٤١٢.

يحتاج الإنسان حينئذٍ لعشيرة تحميه، أو لأولاد يدافعون عنه. فالنظام يوفّر لمواطنيه كل أسباب الحماية، في حين أننا نجد أن مسألة الحماية في بلادنا العربية وفي حضارتنا العربية الممتدة إلى الآن قد تكون غير موجودة، حيث إن الحكام يريدون المواطنين حماية لهم دون العكس.

فمسألة الاعتزاز بالأولاد كانت موجودة عند العرب منذ القدم، وموضع الشاهد في قصة عامر بن أحيمر أن الآباء يعتزون بأولادهم ويفاخرون بهم. وهذا الأمر يجري حتى مع الأم أيضاً، فهناك مثلاً قصة تروى عن امرأة تعيش في مكان دُعي بعدُ باسم وادي السباع، وهو موضع بين البصرة والكويت قتل فيه الزبير، وقد سمي وادي السباع، لأن هذه المرأة كانت ضاربة خباءها فيها، فجاءها رجل يروم الاعتداء عليها، فكان أن نادت: يا ذئب يا فهد يا كلب يا نمر، وكان هؤلاء أبناءها، وكان عددهم سبعة أسمتهم كلهم على أسماء السباع، فجاؤوها يتراكضون، فهرب ذلك الرجل منهم، فسمي الوادي بوادي السباع من حينها لذلك.

فالأبناء إذاً موضع اعتزاز من الأبوين وإن اعتزاز الأب بهم أكثر، وهذا ما تعكسه حضارتنا، حيث إن الولد يُدعى باسم أبيه، فيقال: (فلان بن فلان)، أما إذا أرادوا احتقار أحد فإنهم ينسبونه لأمه، كقولهم: (يا بن الزرقاء)، والغريب أن أحد المفسرين حينما يفسر الآية الكريمة: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾[1] يقول: إن الله تعالى يأمرنا أن ندعو الأبناء لآباءهم لكن نبي الله عيسى عليه السلام ليس له أب، ولذلك فإن الناس يدعون يوم القيامة لأمهاتهم لأجل النبي عيسى عليه السلام، ويدعى الحسن والحسين باسم أمهما فاطمة تشريفاً لهما.

والذي يذكره هذا المفسر غير مقبول، بل الصحيح خلافه وأنه ليس كذلك،

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥.

فإن فاطمة عليها السلام وإن كانت ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله لكن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أشرف الناس وأفضلهم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وذلك بنص رسول الله صلى الله عليه وآله عليه حيث قال لفاطمة عليها السلام: «زوجتك خير الناس من بعدي». والإمام الحسين عليه السلام نفسه يرتجز ويفتخر بكونه ابن الإمام علي عليه السلام[1].

لماذا أوصى الله الأبناء بالآباء وليس العكس؟:

ونرجع للموضوع فإن الآباء يعتزون بالأولاد، إذ إن هناك ترابطاً قهرياً بينهم وبين أبنائهم، ونسأل سؤالاً ثالثاً هو: لماذا يوصي الله تعالى الأبناء بآبائهم ويشدّد في ذلك دون العكس؟

ونقول: إن الأم والأب يحنوان على الولد لرعايته وتربيته، أما الولد فليس عنده ذلك الحس، ولذلك فإن الله تعالى يوصيه بأبويه ويذكّره بأنه إذا عقّهما فإنه سيقع في فعل الكبيرة، وسيكون جزاؤه غضب الله.

ثم إن الهدف من التوصية هو حماية الأسرة وخلق نوع من الترابط والمودة والرحمة فيها. ولذلك تجد أن الولد الذي ينشأ في أسرة متوازنة ومنظمة يكون قرة عين لأهله ويصبح ريحانة لهم.

ونحن الليلة إذ نمرّ بذكرى برعم من براعم الهاشميين وهو علي الأكبر ابن الإمام الحسين عليه السلام، فلنتعرف على مزاياه، إن هذا الشاب نشأ ورُبي في أجواء النبوة، وقد تأثر الإمام الحسين عليه السلام عليه تأثراً بالغاً حينما برز للقتال، ولذا فإنه عليه السلام قال «اللهم اشهد على هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخُلقاً ومنطقاً برسولك، وكنا إذا اشتقنا إلى نبيك نظرنا إلى وجهه. اللهم امنعهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً،

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٢٥٨.

ولا ترضِ الولاة عنهم أبداً، فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدوا علينا يقتلوننا»[١].

ودعاؤه عليه السلام هذا في حقيقته تعامل مع الله وليس مع قضية عاطفية، فهو بدافع موضوعي بحت، فلقد كان كرسول الله صلى الله عليه وآله فإنه (صلوات الله تعالى عليه وعلى آله) كان دمث الأخلاق، ولا وصف فوق وصفه تعالى له[٢]، وكان علي الأكبر عليه السلام كذلك فقد تميز بمزايا كانت على جانب كبير من حيث الآداب والحياء والكرم والشجاعة.. كان عليه السلام يحمل هذه الخواص وذلك الوجه المشرق الطافح بالرحمة والدعة والمودة، فإذا تكلم فكأنما يفرغ عن منطق رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو يتفجّر بذلك الإيمان بالله.. رسول الله صلى الله عليه وآله الذي يقول لعمّه أبي طالب رضي الله عنه: «والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما فعلت»[٣].

وقف الإمام الحسين عليه السلام وهو في طريقه من المدينة إلى كربلاء في أحد الأماكن، فهوّمت عيناه، ثم انتبه وهو يقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون». فجاءه الأكبر وهو يقول: فداك نفسي، لماذا استرجعت؟ قال: «يا بني رأيت في منامي قائلاً يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير بهم. فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا». فقال الأكبر عليه السلام: ألسنا على الحق؟ قال: «بلى والذي إليه مرجع العباد». قال: إذاً لا نبالي أن نموت محقين. فاحتضنه الحسين عليه السلام وقال: «جزاك الله من ولد خيراً». ثم أخذ يقبّله ويلثمه[٤].

وهكذا كان علي الأكبر عليه السلام أنموذجاً سامياً، وعلى جانب رفيع من التربية

---

(١) الإرشاد: ٢/ ١١١.
(٢) قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ سورة القلم، الآية: ٤.
(٣) بحار الأنوار: ١٨/ ١٨٢.
(٤) روضة الواعظين: ١٨٠.

التي أرادها رسول الله ﷺ لأهله وحباهم بها. وكان هذا سبباً في أن يأخذ مصرع علي الأكبر من الإمام الحسين عليه السلام مأخذاً عظيماً لم يأخذه منه مصرع قط، فقد أثر مصرعه عليه تأثيراً بالغاً، حيث إنه عليه السلام كان واقفاً يرقب المعركة، وكان كلما سقط أحد أصحابه حمله وأبّنه ودعا له خيراً، لكن لم يذكر لنا التاريخ أنه عليه السلام في مصرع من المصارع نزل من على فرسه وتمدّد في ساحة الحرب مع الصريع إلا في مصرع ولده علي الأكبر. وهذه مكانة الولد التي لا تعدلها مكانة أو حالة.

وكان الأمر أنه لما أراد الأكبر النزول إلى الساحة أقبل وتعلّق بثوب الحسين عليه السلام وقال: أبا عبد الله، أراك تطلب الناصر، أفتأذن لي يابن رسول الله بأن أنزل إلى القتال؟ فنظر إليه الحسين عليه السلام طويلاً ثم قال: «ادنُ مني نور عيني». فلما دنا منه قال له: «هل أنت مصرّ على النزول». قال: بلى. فشدّ عليه سيفه ورداءه، ومدّ يديه، يقول بعض المؤرخين: «اعتنقه حتى سقطا على الأرض». وهي عبارة تنبيء عن عظيم تأثره عليه السلام، وهو أمر في غاية الإيلام أن يشد الإمام الحسين عليه السلام ابنه إليه من عنقه ويودّعه ثم يقول: «ابرز بني، بارك الله فيك». فبرز وعينا أبيه الإمام الحسين عليه السلام لا تفارقانه، وراح يسمعه وهو يرتجز:

أنا علي بن الحسين بن علي ... نحن وبيت الله أولى بالنبي

من شبث ذاك ومن شمر الدين ... أضربكم بالسيف حتى يرتوي

ضرب غلام هاشمي علوي ... ولا أزال اليومَ أحمي عن أبي

والله لا يحكم فينا ابن الدعي[1]

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٢٢٦.

وكانت ليلى في المخيم (على الرواية التي تشير إلى أنها كانت موجودة في واقعة الطف مع الإمام الحسين عليه السلام)، وتتحسس ما يجري على ولدها من خلال تعابير وجه الإمام الحسين عليه السلام، وفجأة رأت وجهه قد تغير، وكان قد برز إليه بكر، فقالت: أبا عبد الله، إني أرى وجهك قد تغير، هل أصيب ولدي بشيء؟ قال: «لا، ولكن برز إليه من يُخاف منه عليه، ادعي لولدك». فرجعت إلى المخيم وجرّدت خمارها ورفعت إلى السماء رأسها وقالت: إلهي بصبر أبي عبد الله، إلهي بغربة أبي عبد الله، يا رادّ يوسف على يعقوب اردد عليّ ولدي:

طبّت الخيمة الغريبه	تبجي وعلى ابنيها بريبه
وتوسّلت لله بحبيبه	بالحسين وشمابيه مصيبه
يا راد يوسف من مغيبه	ليعگوب ومسجّن نحيبه

أريدك علي سالم تجيبه

ثم رجع إلى أبيه عليه السلام حاملاً رأس بكر، وقد أصابته جراحات كثيرة، فقال: يا أبه العطش قد قتلني، وثقل الحديد أجهدني، فهل إلى شربة ماء من سبيل أتقوى بها على الأعداء؟ فبكى الإمام الحسين عليه السلام وقال: «يا بني يعزّ على محمد صلى الله عليه وآله وعلى علي بن أبي طالب عليه السلام وعليّ أن تدعوهم فلا يجيبوك، وتستغيث بهم فلا يغيثوك. يا بني هات لسانك». فأخذ لسانه ووضعه على لسان أبيه فإذا هو كالخشبة.

ثم أمره عليه السلام بالتعجيل إلى أمه، وكأني به عليه السلام يقول له: يا بني لا سبيل إلى شكوى العطش، فهناك شيء أهم من العطش، بادر إلى الخيمة.. إلى أمك قبل أن تموت. فبادر إلى أمه وأخذ برأسها ووضعه في حجره.. نضحها بدموع عينه، ففتحت عينيها واعتنقته، لكنه خرج مرة أخرى وعينا الإمام الحسين عليه السلام

تلاحقانه، ودعاؤه له يرافقه: «ارجع إلى قتال عدوّك، فإني أرجو أنك لا تمسي حتى يسقيك جدك بكأسه الأوفى شربة لا تظمأ بعدها أبداً». فنزل إلى الساحة وهو يرتجز:

الحرب قد بانت لها الحقائق ... وظهرت من بعدها مصادق

والله رب العرش لا نفارق ... جموعكم أو تغمدَ البوارق

وراح يذود الخيل ويصدّ بصدره كتائب القوم إلى أن سقط على الأرض، ففوجىء الإمام الحسين عليه السلام بالصوت: عليك مني السلام أبا عبد الله. أقبل إليه إلى أن وصل إلى مصرعه.. ألقى بنفسه عليه وأخذ برأسه ووضعه في حجره:

فجثا وأقنع للسماء بشيبة ... مغمورة بمدامعٍ ودماءِ

يا عدلُ قد قتلوا شبيه محمد ... أنزل بساحتهم عظيم بلاءِ

حاول الإمام الحسين عليه السلام أن يحمله ـ وهو أول قتيل من الهاشميين ـ فلم يستطع، فالتفت إلى فتيانه من الهاشميين وأمرهم بحمله قائلاً: «احملوا أخاكم والله لا طاقة لي على حمله». فحملوه إلى المخيم، ورجلاه تخطان الأرض والإمام الحسين عليه السلام وراءهم، حتى وضعوه بين يدي الفسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه، فلما وصل إلى الخيمة جلس عنده، وجاءت أمه فوقعت عليه تحتضنه:

بني اقتطعتك من مهجتي ... علامَ اقتطعت جميلَ الوصالِ

* * *

وما أمُّ خشفٍ أدركته على ظما ... وخوف حبالات نأت بالفلا ذُعرا

بأوجدَ منها حين للسبط عاينت ... ومنه أديم الوجه حزناً قد اصفرا

اليوم التاسع

القضاء والقدر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

الآية الكريمة تخاطب العقل والعقلاء، وتطالبهم بأن يكون لهم نظر فيما وراء الظاهر، واستكناه لما وراء السطور، وهو ما نعبر عنه بالحكمة أو الفلسفة فيما وراء الظاهر. وعند استعراض ملذّات الحياة ونعمها نجد أن أبرزها وأقربها إلى قلب الإنسان المال والبنون، مع أن القرآن يصرّح بأنهما يشكلان مظهراً، وأن ما وراءهما من حقائق أكبر وأهم. وكمقدمة نقول: إن البعض ما إن يرزق الأموال والذرية حتى يدخل في خلده أن الله تعالى يحبه ويفضّله. وأن الذي منحه إياه إنما هو جزاء عمل قام به. والحقيقة أن الأمر ربما كان عكس ذلك.

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٥٥ ـ ٥٦.

ولكي يتضح الأمر أكثر علينا أن نستعرض فصول الآية، فهي تقول: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ وهنا أمران أود أن أشير إليهما، وهما يشكلان المبحث الأول والثاني من موضوعنا:

المبحث الأول ـ الجبر والتفويض:

أول ما يلفت النظر في هذا المقطع من الآية الكريمة أن الإنسان قد يسخّر أمواله وأولاده في غير طاعة الله، وهي تقول: ﴿نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ أي أن المال والبنين من عند الله، فإن كان من عند الله، واستعملا في غير طاعة الله، فعلى من يقع اللوم في هذه العملية التبادلية؟ هل يقع على القضاء والقدر، أم على الإنسان؟

ونحن حينما نقول: القضاء والقدر، فإنما نعني أن الله قد وهب الإنسان ذلك، فهل يمكن أن نقول: إن اللوم يقع على عاتقه تعالى كونه المسبب له أن يقع في الحرام بما أنه وقع فيه، وهو هبة من الله. أم يمكن أن نقول: إن اللوم يقع على عاتق الإنسان، لأنه استعمل هبة الله في غير ما أمر الله؟ وأول شيء يجب أن نتنبه إليه ـ ولعله الأهم في الموضوع ـ هو أن الله جل وعلا حينما يمد العبد بالمال والبنين، فليس معناه أن يكون عرضة للوم، لأنه إنما يعطينا الطاقة والقوة اللتين يستعملهما الإنسان في اختيار الحسن من السيىء من الأمور دون إلجاء للإنسان إلى اختيار الأسوأ.

والإنسان بوسعه أن يقتني بما وهبه الله من مال أشياء مشروعة ومحللاً شراؤها كالطعام والسلاح للدفاع عن النفس، وبوسعه أن يشتري أشياء محرّمة أيضاً كالخمر والسلاح للاعتداء على الآخرين. وفي هاتين الحالتين كلتيهما يبقى اختيار الفرد هو العامل الوحيد نوعاً ما، الذي يلعب دوره في هذه العملية. وبعبارة أخرى إن العيب لم يأتِ من الأموال عينها، ولا من واهبها، بل من توجيه الأموال والتصرف فيها.

وكذلك الأبناء يوجههم آباؤهم إلى سلوك طريق الفضيلة أو الرذيلة، ويبقى العيب في توجيه الأبناء لا في الأبناء أو مَن وهبهم. فالعيب إذاً وليد سوء الاختيار عند الموهوب له، لا من الواهب ولا من الموهوب.

أنواع المدارس الجبرية:

أما القائلون بأن ذلك من الواهب نفسه، فهؤلاء هم أتباع المدرسة الجبرية. وبالمناسبة هناك العديد من المدارس الجبرية في الحياة، فهناك مدرسة الجبر الفسلجية، والاجتماعية، والجسدية، والنفسية، والدينية، والذي يهمنا هنا هو مدرسة الجبر الدينية، أما باقي المدارس فسأعرض لها في الأيام القادمة إن شاء الله. وليعلم أن هناك شريحة من المسلمين ترى أن الإنسان مجبور في أفعاله ومسيّر، وليس مخيراً. وهذا في واقع الأمر لا يصمد أمام النقد، لأن الله بعدله يجلّ عن معاقبة فرد على فعلٍ ما، كان قد أَجبره على القيام به. وهذه النظرية ليست بهذه السهولة كما ربما يتصورها البعض، بل هي نظرية معقدة، وكل ما أردت طرحه هنا هو النتيجة التي خرجت بها هذه النظرية.

المبحث الثاني ـ هل من أثر لسعي الإنسان؟:

إن هنا سؤالاً يطرح نفسه إلى الأذهان، وهو أن سعي الإنسان هل هو ملغًى، أم لا؟ أي هل له قيمة أو أثر، أم لا؟ ولنوضّح السؤال بمثال، الفلاح حينما يخرج إلى أرضه ليحتفرها ويزرعها، وبعد أن تنبت يسقيها ثم ينتظر ثمرها ويقوم بحصاده، فهل لكل هذا العمل الذي قام به الإنسان قيمة ولهذا الإنسان أثر، أم ليس له ذلك؟ البعض يرى أن الأثر كله لله تعالى، والسبب الطبيعي لا أثر له أصلاً هنا، وهذا الرأي يمثل مدرسة عليها أغلب المذاهب الإسلامية. لكن نقول: صحيح أن الله تعالى هو خالق الأثر، لكن ليس كما توهمّوه، بل إن الله جعل الأثر مرتبطاً بالسبب الطبيعي حتى يدير شؤون

الحياة. فالله جل وعلا دون شك هو الذي هيّأ التربة والماء ووفّر هذه الجنود الهائلة الموجودة في التربة من موجودات حية وغير حية كي تخدم النبات حتى يثمر. لكن ليس معنى ذلك أن الفلاح لا قيمة لتعبه ومجهوده من حيث وضع البذر وسقيه بالماء ورعايته وحمايته من الآفات بالمبيدات واستصلاح الأراضي كي تكون مناسبة للزراعة، هذا غير مقبول طبعاً، فلكل هذه الأشياء أثر بما أنها أسباب طبيعية وضع الله فيها القابلية، ولو كان ذلك كذلك لما توجهنا باللوم على من يجلس واضعاً يده على الأخرى ينتظر أن يرزقه الله، وكأنما لسان حاله:

جرى قلم القضاء بما يكون ... فسيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسعى لرزق ... ويرزق في غشاوته الجنين[1]

وهذا النمط موجود فعلاً، فهو ينتظر من السماء أن تمده بالعطاء، وتدفع عنه العدو، وتطور حياته، و... و...، مع أن كل واحد منا لا يرتضي لهذا تفكيره هذا، ذلك أن الله تعالى فسح للإنسان طاقات ذهنية وجسدية وأمره باستثمارها، وأعطاه طاقات أخرى في الأرض وفي الجو وفي الكواكب، وأمره بالاستفادة منها، ووعده بالمساعدة وتذليل الصعاب. وما هو خلاف هذا ناشيء عن عدم فهم بنواميس الله عز وجل في الكون.

وهذان الإشكالان المارّان يردان كلاهما على هذا المقطع من الآية، وكلاهما خطأ، لأن الله جلّ وعلا وكلّ إلينا أمر أفعالنا خيراً أو شراً، وكذلك أمرنا بأن نشغل طاقاتنا المودعة فينا في كل خير رسمه الله كتربية الأبناء وبناء المؤسسات التي ترقى بنا بين الأمم، وما إلى ذلك. فعملنا له أثر، وسعينا له

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٩/ ٣٦٣.

أثر أيضاً: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[١].

المبحث الثالث ـ وجه تسمية المال والبنين بالخيرات:

﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾[٢] عبّر القرآن الكريم عن المال والبنين بأنهما ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ والخيرات هي المنافع العظيمة، فالمال والبنون منافع عظيمة بتعبير القرآن، لكن المال والولد قد يكونان نعمة وقد يكونان نقمة، فالمال إن استعملناه فيما حرّم الله ونهى كان نقمة، وإن استعملناه فيما حلل الله وأمر كان نعمة، والولد إن وجهناه نحو الفضيلة كان نعمة، وإن وجهناه نحو الرذيلة كان نقمة، فمن أدعيتهم عليهم السلام: «اللهم إني أعوذ بك من مال يكون علي فتنة، ومن ولد يكون عليّ كلاً» ومثال الولد الكَلّ الذي يقضي ليله ساهراً في معصية الله، ثم يعود قبيل الفجر يترنح من سكره، ثم لا يسأله أبوه عما فعل وأين كان. وقد يقول أحدنا: إنني لا أحاسبه، لأنه لا يعتد بقولي ولا يسمع كلامي، فما فائدة الكلام معه؟ فنقول له: الواجب عليك أن تحاول بقدر طاقتك فـ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٣] وهذا لا يبرر عدم تدخلك، فلا أقل من أن تراقبه وترى طريقه هل هو طريق خير أم طريق شر، وأنت مسؤول عنه يوم القيامة، فهذا هو الكل الذي لا يعمل ولا يعين أباه على أمور الحياة، بل يقضي نهاره في النوم أو اللعب وليله في السهر.

ثم يتابع الإمام عليه السلام دعاءه بقوله: «ومن حليلة تقرّب إليّ الشيب، ومن جار سوء تراني عيناه وترعاني أذناه، إن رأى شراً طار به، وإن رأى خيراً كتمه»[٤].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٥٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٤) شرح نهج البلاغة: ١٧/ ٨.

فالتي لا تتصف بمعايير الزوجة الصالحة تحرق خلايا جسد زوجها، فيسارع إليه مشيبه.

أنموذجان من الأبناء:

وبعد هذه المقدمة أضرب لك أنموذجين من الأولاد، وكلاهما من البيت الهاشمي، حتى نعرف كيف يكون الولد فتنة وكلاً وعاراً وكيف يكون نعمة؟

المتوكل وأحد أبناء محمد بن الحنفية رحمه الله:

الحادثة الأولى: في كتاب (الاستدراك عن ابن قولويه بإسناده إلى محمد ابن العلا السراج قال: أخبرني البختري قال: كنت بمنبج بحضرة المتوكل إذ دخل عليه رجل من أولاد محمد بن الحنفية حلو العينين، حسن الثياب، فوقف بين يديه والمتوكل مقبل على الفتح يحدثه، فلما طال وقوف الفتى بين يديه وهو لا ينظر إليه قال له: يا أمير المؤمنين، إن كنت أحضرتني لتأديبي فقد أسأت الأدب، وإن كنت قد أحضرتني ليعرف من بحضرتك من أوباش الناس استهانتك بأهلي فقد عرفوا. فقال له المتوكل: والله يا حنفي، لولا ما يثنيني عليك من أوصال الرحم ويعطفني عليك من مواقع الحلم لانتزعت لسانك بيدي، ولفرّقت بين رأسك وجسدك ولو كان بمكانك محمد أبوك. قال: ثم التفت إلى الفتح فقال: أما ترى ما نلقاه من آل أبي طالب؟ إما حسني يجذب إلى نفسه تاج عز نقله الله إلينا قبله، أو حسيني يسعى في نقض ما أنزل الله إلينا قبله، أو حنفي يدل بجهله أسيافنا على سفك دمه. فقال له الفتى: وأي حلم تركته لك، الخمور وإدمانها، أم العيدان وفتيانها؟ ومتى عطفك الرحم على أهلي وقد ابتززتهم فدكاً إرثهم من رسول الله ﷺ، فورثها أبو حرملة؟ وأما ذكرك محمداً أبي فقط طفقت تضع عن عز رفعه الله ورسوله، وتطاول شرفاً تقصر عنه ولا تطوله، فأنت كما قال الشاعر:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

ثم ها أنت تشكو إلى علجك هذا ما تلقاه من الحسني والحسيني والحنفي، فلبئس المولى ولبئس العشير. ثم مدّ رجليه ثم قال: هاتان رجلاي لقيدك، وهذه عنقي لسيفك، فبؤ بإثمي وتحمّل ظلمي، فليس هذا أول مكروه أوقعته أنت وسلفك بهم، يقول الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فوالله ما أجبت رسول الله ﷺ عن مسألته. ولقد عطفت بالمودة على غير قرابته، فعما قليل ترد الحوض، فيذودك أبي ويمنعك جدي، صلوات الله عليهما.

قال: فبكى المتوكل ثم قام فدخل إلى قصر جواريه، فلما كان من الغد أحضره وأحسن جائزته وخلّى سبيله.

فتأمل هذا الموقف، وهذا النوع من الأبناء نعمة، لأنه ذو فكر يقظ حي، له قدرة على أداء دوره في مثل هذه المواقف، ورجولة لا تعرف الخوف. فهذه سمات بني هاشم، وإن كان فيهم من هو على غير هذه الشاكلة فإنما جاءهم من طريق آخر، من الوراثة من أخوال أو غيرهم كما سنرى في النموذج التالي.

قصة محمد بن إسماعيل بن جعفر عليه السلام والرشيد:

الحادثة الثانية: عن محمد بن قولويه القمي قال: حدثني بعض المشايخ ـ ولم يذكر اسمه ـ عن علي بن جعفر بن محمد قال: جاءني محمد بن إسماعيل ابن جعفر يسألني أن أسأل أبا الحسن موسى عليه السلام أن يأذن له في الخروج إلى العراق، وأن يرضى عنه ويوصيه بوصية. قال فتجنب حتى دخل المتوضأ، وخرج وهو وقت كان يتهيأ لي أن أخلو به وأكلمه، فلما خرج قلت له: إن ابن أخيك محمد بن إسماعيل يسألك أن تأذن له في الخروج إلى العراق، وأن توصيه، فأذن له عليه السلام، فلما رجع إلى مجلسه قام محمد بن إسماعيل وقال: يا عم أحب أن توصيني. فقال عليه السلام: «أوصيك أن تتقي الله في دمي». فقال: لعن

الله من يسعى في دمك، ثم قال: يا عم أوصني. فقال: «أوصيك أن تتقي الله في دمي».

قال: ثم ناوله أبو الحسن عليه السلام صرة فيها مائة وخمسون ديناراً فقبضها محمد، ثم ناوله أخرى فيها مئة وخمسون ديناراً فقبضها، ثم أعطاه صرة أخرى فيها مئة وخمسون ديناراً فقبضها، ثم أمر له بألف وخمسمائة درهم كانت عنده، فقلت له في ذلك وقد استكثرته، فقال عليه السلام: «هذا ليكون أوكد لحجتي إذا قطعني ووصلته».

قال: فخرج إلى العراق فلما وردها أتى باب هارون بثياب طريقه قبل أن ينزل، واستأذن عليه وقال للحاجب: قل لأمير المؤمنين: إن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بالباب. فقال الحاجب: انزل أولاً وغيّر ثياب طريقك وعد لأدخلك إليه بغير إذن، فقد نام أمير المؤمنين في هذا الوقت. فقال: أعلم أمير المؤمنين أني حضرت ولم تأذن لي. فدخل الحاجب وأعلم هارون قول محمد بن إسماعيل، فأمر بإدخاله، فدخل وقال: يا أمير المؤمنين خليفتان في الأرض: موسى بن جعفر بالمدينة يجبى له الخراج، وأنت بالعراق يجبى لك الخراج؟ فقال: والله؟ فقال: والله.

قال: فأمر له بمئة ألف درهم، فلما قبضها وحمل إلى منزله أخذته الذبحة في جوف ليلته، فمات وحوّل من الغد المال الذي حمل إليه[1].

انظر كم هو الفرق بين الموقفين، على أن كليهما من الأسرة نفسها، وكليهما وقفا أمام سفاك، فالمتوكل كان مولعاً بالدم، وكذلك المنصور حتى أنه كان له وزير يقال له أبو سلمة، فكان إذا خرج من المنصور يرى وجهه مصفرّاً،

---

(١) رجال الكشي: ٢/ ٥٤٠ ـ ٥٤١.

فيقال له: لم هذا والمنصور يحترمك ويجلك؟ فقال لهم: إنما مثلي ومثلكم مثل الديك والصقر حيث قال الصقر له: ما أقلّ وفاءك لأهلك يعطونك الأكل والشرب ويدخلونك في بيوتهم وأنت تهرب منهم من سطح إلى سطح، وأنا يشدون عينيّ ويتركونني لأصيد لهم ثم أعطيهم الصيد دون أن آكل منه وأبقى جوعان فهناك فرق كبير بيني وبينك.

فقال له الديك: ذهبت عنك الحجة. قال: كيف؟ قال: هل دخلت يوماً ورأيت عشرين صقراً تشوى على النار في سيخ؟ قال: لا لم أرَ. قال: أنا أرى ذلك دائماً، فأنا إنما أهرب منهم خوفاً من الشيّ.

ثم قال الوزير: فأنا أخرج كل يوم من المنصور مخلّفاً ورائي مجزرة في بيته، ومع ذلك افترق الموقفان.

المبحث الرابع ـ كيف نحسن تربية أبنائنا؟:

ولنقف عند نقطة مهمة، وهي: كيف نحسن تربية أبنائنا؟ فنقول: هذا يختلف باختلاف الموقف، فالأب قد يكون بريئاً طيباً لكن تصرّفه غير سليم كمن تزوّج من اثنتين وله منهما أولاد، وهو لا يستطيع أن يحسن التصرف معهم، مع أنه ينبغي عليه ألا يفرّق بينهم بالمعاملة والعطاء اللذين ينبغي أن يكونا على أسس العدل لا تابعين لمعاملة الزوجة مع التسليم بأن الزوج لا يستطيع أن يعدل في المودة بين زوجاته: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡ﴾[1] أي بالمودة لا النفقة، لأن إحداهما قد تكون أجمل أو أرق أو أكثر مرونة من الأخريات، فمن يود إحدى زوجاته أكثر من غيرها عليه ألا يود أبناءها أكثر من أبناء الأخريات، فهذا يمكن أن ينعكس سلباً عليهم وقد لا

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٩.

يأخذون بتوجيهاته، وبالتالي من الممكن أن يشذّوا عن الطريق. فالأبناء أمانة في أعناق الآباء لا يجوز التفريط بها، فالتفريق في المعاملة يؤدي إلى التباغض بينهم والعداوة، وإلى خلق شريحة مجرمة في المجتمع، وسأنقل هنا حادثتين لهما أمسّ علاقة فيما نحن فيه:

التفريق بين الأبناء في العطاء جور:

الحادثة الأولى: أن النعمان بن بشير قال: سألت أمي أبي بعض الموهبة لي من ماله، ثم بدا له فوهبها لي فقالت: لا أرضى حتى تشهد النبيﷺ، فأخذ بيدي وأنا غلام فأتى بي النبيﷺ، فقال: إن أمّه بنت رواحة سألتني بعض الموهبة لهذا. قالﷺ: «ألك ولد سواه؟» قال: نعم. قال: «لاتشهدني على جور». وفي رواية: «ألك بنون سواه؟». قال: نعم. قال ﷺ: «فكلهم أعطيت مثل هذا؟». قال: لا، قال: «فلا أشهد على جور»[1].

فالميزات التي تعطي لأحدهم والموجبة لتفضيله عليهم تجعل من الباقين ـ إن لم يكن لهم دين أو تصرّف واعٍ ـ سلبيين داخل الأسرة على أقل تقدير، فلا يساهمون في بنائها وخدمتها، وقد تحدث مجزرة داخل البيت وهو ما يمكن تلافيه لو عدلنا بينهم.

محمد بن الحنفية الذراع الأيمن لأبيه عليه السلام:

الحادثة الثانية: كان محمد بن الحنفية رضي الله عنه موصوفاً بالشجاعة والبطولة والبسالة، وكان ينزل المعركة أمام أبيه وأخويه، وفي يوم الجمل دفع أمير المؤمنين عليه السلام رايته إليه وقد استوت الصفوف، وقال له: «احمل». فتوقف قليلاً وتلكأ في حمل الدواء. يقول: فأحسست بأنفاس أبي من ورائي وهو يقول لي:

---

(١) جامع المقاصد: ٩/ ١٧١.

«احمل». فقلت: يا أمير المؤمنين، أما ترى السهام كأنها شآبيب المطر؟ فدفع في صدري وقال: «أدركك عرق من أمك؟». ثم أخذ الراية فهزها، ثم قال:

«أطعن بها طعن أبيك تحمدِ لا خير في الحرب إذا لم توقدِ

بالمشرفي والقنا المسدّدِ»

ثم حمل وحمل الناس خلفه، فطحن عسكر البصرة[١].

وقيل لمحمد: لم يغرّر بك أبوك في الحرب ولا يغرّر بالحسن والحسين عليهما السلام؟ فقال: إنهما عيناه وأنا يمينه، فهو يدفع عن عينيه بيمينه[٢].

وكان أمير المؤمنين عليه السلام كلما أراد الحسنان أن ينزلا إلى المعركة يقول: «املكوا عني هذين الغلامين لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله»[٣] إذ إن الإمامة تمر عبرهما.

وهكذا ينبغي أن تكون المعاملة بين الأبناء، فإن تفاوتت فلما فضّل الله، وبما اختار واصطفى. وخلاف ذلك يكون إغراء بالمعصية، لأنك حينئذٍ تحمله على معصيتك ومعصية الله بسوء معاملتك له: «رحم الله والداً أعان ولده على البر»[٤] وبهذا يكون الولد نعمة أو نقمة.

المبحث الخامس ـ وجه استعمال المسارعة هنا:

﴿نُسَارِعُ لَهُمْ﴾ لماذا مفردة ﴿نُسَارِعُ﴾؟ لأن الإنسان كلما دعا ربه قدّم لفظ

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٤٣.
(٢) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٤٣.
(٣) عمدة الطالب (ابن عنبة): ٦٦.
(٤) الأمالي (الصدوق): ٣٦٣.

الاستعجال فيقول: اللهم عجل لي رزقي في المال أو الولد، وهو لا يعرف أين تكمن المصلحة، والواجب عليه أن يقول: اللهم اختر لي، اللهم ما فيه لي مصلحة فأعطنيه. وفي الرواية عن رسول الله ﷺ عن الله جل وعلا: «يحزن عبدي المؤمن إن قتّرت عليه وذلك أقرب له مني، ويفرح عبدي المؤمن إن وسّعت عليه وذلك أبعد له عني»[1]، أي أن التغير هو سبب القرب إلى الله وبسط الدنيا سبب البعد عنه. فمتى ما بُسط له ابتعد عن الله وترك الصلاة والعباد قد خلا منه المسجد، وعمرت به مجالس اللهو والشرب، تلك المجالس التي يبغضها الله أشد البغض[2]. وهذا من الأسباب التي تدعو إلى القول بأن الإنسان لا ينبغي له أن يدعو الله بالتعجيل أو عدمه، وإنما يترك ذلك للسماء تتصرف كيف تشاء. فغاية ما يجب طلبه هو الرزق، أما كيفيته وكميته ومكانه وزمانه فليس هذا من شأن المخلوق.

﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ الشعور: علم بمعلوم دقيق عميق إدراكه، وهؤلاء لا يقرؤون ما وراء السطور والظاهر، فما إن يروا أو يسمعوا بأن فلاناً عنده مال حتى يسارعوا إلى قول: إن الله يحب هذا، وهم يقولون لمن يحرم منه: إن الله لا يحب هذا. فـ ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يقدّرون المصالح والمفاسد في الأشياء.

ومن مجمل الآية نفهم أن المال والبنين زينة الحياة، فالإنسان يجد السعادة في عيني أولاده سيما بعد أن يعود من سفر أو عمل فيراهم، والإسلام يأمر في أمثال هذه الحالات ألا يعود الرجل إلى بيته خالي الوفاض، بل لا بدَّ من أن يأتيهم بشيء ولو بسيطاً ليدخل الفرح إلى نفوسهم.

وإذا كان هذان زينة الحياة فما هي النعمة الأكبر واللذة الأجل منهما؟

---

(١) الكافي: ٣/ ١٤١/ ٥.

(٢) وسائل الشيعة: ٣١/ ٢٥٦/ ١٥٢٨٩.

والجواب: أن نسخرهما فيما هو أعظم للذي هو أعظم، وهو التضحية والفداء، تنقل كتب التاريخ أن حنظلة الأسدي جيء به هو وابنه أسيرين إلى قائد الفرس في معركة القادسية، وقد حاول هذا القائد إغراء حنظلة بالمال والمنصب له ولابنه إن هو دلّهم على عورات المسلمين، فقال له: إني إن دللتك قتلني ولدي، فاقتله أولاً ثم أعطيك ما تريد. فأمر القائد بقتله ثم التفت إليه وهو يرجو أن يفوز منه بما طلب، فضحك حنظلة وقال: هل تظن أنني أدلّك على ذلك؟ إني إنما طلبت قتل ولدي لأني خشيت أن يضعف بعد قتلي أمام إغرائكم وتهديدكم فيدلكم على ما تريدون منه. فأمر به فقتل. وهو موقف يستحق الإعجاب والتقدير، فنجد فيه تضحية بالمال والولد من أجل حفظ بيضة الإسلام.

المبحث السادس ـ الحسين عليه السلام بلغ الغاية في التضحية:

وفي هذه الليلة ونحن في رحاب علي بن الحسين عزيز الحسين عليه السلام الذي قدّم أولاده في طريق التضحية ليضرب لنا المثل الكبير والموقف الكريم في التضحية بالمال والبنين في سبيل الله، أما المال فلسنا بحاجة إلى البرهان كي نثبت ذلك، فقد جلب معه كل أمواله من أجل إمداد الحملة، وما زاد فقد نهب بعد الوقعة، وأما الأولاد فقد ضحى بأبنائه وأبناء إخوانه وعمومته ليرينا كيف تكون التضحية، وكلنا قد قرأنا أو سمعنا بمباهلة الرسول صلى الله عليه وآله والنصارى حيث قالوا: إن خرج إليكم بأصحابه فباهلوه، وإن خرج بأهل بيته فلا تباهلوه[1]. لأن بإخراجه أهل بيته وتضحيته بهم دليلاً على أنه واثق بما عنده. فعظم التضحية تتجلى بتقديم المرء أعزاءه وأهل بيته والحسين عليه السلام من هذا النوع، أراد البرهنة على عظم التضحية فصار يقدم أبناءه واحداً تلو الآخر حتى جاء دور

---

(١) الإرشاد: ١/ ١٦٧.

ولده علي الأكبر (سلام الله عليه)، وهو الولد الذي كان دائماً يملأ مشاعر أبيه، فكان يحتل منزلة كبيرة لدى والده إضافة إلى ما تميز به من صفات وسمات من كرم وشجاعة وفصاحة وصباحة، وأكبر من ذلك إيمانه بقضيته، ففي طريقهم من المدينة إلى كربلاء هوّمت عينا الحسين عليه السلام ثم انتبه وهو يقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون». فجاءه الأكبر وهو يقول: فداك نفسي، لماذا استرجعت؟ قال: «يا بني رأيت في منامي قائلاً يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير بهم، فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا». فقال الأكبر عليه السلام: ألسنا على الحق؟ قال: «بلى والذي إليه مرجع العباد». قال: إذاً لا نبالي أن نموت محقين. فاحتضنه الحسين عليه السلام وقال: «جزاك الله من ولد خيراً» ثم أخذ يقبله ويشمّه.

وكان عليه السلام قد قال يوم برز الأكبر للقتال: «اللهم اشهد على هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخُلُقاً ومنطقاً برسولك، وكنا إذا اشتقنا إلى نبيك نظرنا إلى وجهه، اللهم امنعهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترض الولاة عنهم أبداً، فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدوا علينا يقتلوننا».

فصوته صوت النبي صلى الله عليه وآله وخلقه خلقه. وكذا في باقي صفاته صلى الله عليه وآله، ولذا فقد تألم الحسين عليه السلام أشد الألم لخروجه، فالحسين الذي كان يبكي على أعدائه يوم الطف لأنه يرى أنهم سيدخلون النار بسببه، هو نفسه الذي يدعو عليهم عندما برز إليهم علي الأكبر، ذلك أن الأكبر أخذ منه مأخذاً عظيماً. ثم قال له: «بني ادْنُ إليّ حتى أودّعك». فجمع يديه على عنقه، واستدناه إليه يقبّله ويشمّه إلى أن سقطا إلى الأرض معاً، ثم قال له: «ابرز بني».

فبرز وعينا الحسين عليه السلام تلاحقانه، وليلى تطيل النظر إلى وجه

الحسين عليه السلام، فلما رأت وجهه قد تغيّر هرولت إليه وقالت: أبا عبدالله أرى وجهك قد تغيَّر، فهل أصيب ولدي بشيء؟ وهذا على رواية أن ليلى كانت موجودة في الطف، قال: «لا، ولكن برز إليه من يَخاف منه عليه، ادعي لولدك».

طبت الخيمة الغريبة تبجي وعلى ابنيها بريبه
وتوسلت لله بحبيبه بالحسين وشمابيه مصيبه
يا راد يوسف من مغيبه ليعگوب ومسجّن نحيبه
أريدك علي سالم تجيبه

شالفايدة وياك يبني أنا الوالدة وهيّن تذبني
ردتك عليه البيت تبني
يبني علي يا فتشة العين يبني صواب الضاهدك وني

* * *

عمود الوسط يالشايل البيت آنه بيش اجيت وبيش رديت
يا واحدي عندي شخليت

* * *

ومحا الردى يا قاتل الله الردى منه هلال دجى وعزة فرقدِ
يا نجعة الحيين هاشم والندى وحمى الذمارين العُلا والسؤددِ

الليلة العاشرة

الرياء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول ـ حمل فعل المؤمن على الصحة:

من الأوليات في العقيدة الإسلامية حمل فعل المؤمن على الصحة، فعندما أرى مسلماً يقوم بلون من ألوان التصرفات فإني أحمله على الصحة، لأنه مسلم تربّى ضمن بيئة إسلامية، وعقائد إسلامية، ولذا فإنني أستبعد أن يصدر منه ما ينافي الإسلام، فإذا لم يحمل الفعل على الصحة فإن ذلك يكون إهانة، وهي ضد التكريم الذي حباه الله به. والإنسان مكرم فضلاً عن كونه مسلماً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾[2].

---

(١) سورة الماعون، الآيتان: ٦ ـ ٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

المبحث الثاني ـ آثار الرياء ومضاعفاته:

فالمسلم يفترض فيه النقاء والوضوح والواقعية، فيحمل كل فعل له على الصحة، فإن تحوّل المسلم إلى مُراءٍ فإنه يكون قد أساء من ثلاث جهات:

١ ـ أنه يكون قد قدّم معدناً سيئاً ونموذجاً غير إسلامي.

٢ ـ أنه يكون قد ارتكب ما يخيب ظن الناس به.

٣ ـ أنه بفعله هذا يجعلنا نسيء الظن بالآخرين أيضاً.

ولذلك يقول الإمام العسكري أو الإمام الهادي أو غيرهما من الأئمة عليهم السلام ـ على اختلاف في نسبة القول ـ: «إذا كان زمان العدل فيه أغلب من الجور، فحرام أن تظن بأحد سوءاً حتى تعلم ذلك منه، وإذا كان زمان الجور فيه أغلب من العدل، فليس لأحد أن يظنّن بأحد خيراً حتى يبدو ذلك منه»[1].

فإذا كان في المحيط الاجتماعي وضوح وصفاء وفضيلة وتربية طيبة، فالإنسان لا يمكنه أن يظن بالناس شرّاً، وإذا كان فيه دغل[2] وغلّ وازدواج في الشخصية فهنا يكون من البله أن تظن بالناس خيراً. وهذا المعنى هو الذي جعل بعض الناس يسجّل تجاربه وهي تجارب أليمة، فتجده يقول:

جميع الناس خدّاعُ ... إلى جانب خدّاعِ

يعيشون مع الذئبِ ... ويبكون مع الراعي

وهذا الشاعر لا بدّ أن يكون حتماً قد مرّ بتجربة قاسية وسوء ظن بالناس، لأنه تعامل مع محيط مُراءٍ مليء بالدجل، وبعكسه من يتعامل مع محيط نظيف فإنه يأخذ عنه صورة وانطباعاً طيبين.

---

(١) نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ١٤٢/ ٢٨.

(٢) الدغل: العيب الذي يفسد الأمر. المعجم الوسيط: ٢/ ٢٨٨ ـ دغل.

وبين الرياء والنفاق فرق، إذ الرياء طلب الدنيا بالعبادة، فيتخذ المرائي من العبادة شركاً إلى الدنيا. وهذا أخسّ ما يمكن أن يصل إليه الإنسان، لأنه يتاجر بأقدس شيء في الحياة، وهو عبادة الله جل وعلا.

أنواع الرياء:

وموضوع العبادة ينبغي أن يكون خالصاً لله عز وجل. وللرياء أبعاد، فتارة يظهر على اللسان، وتارة على التصرفات والسلوك، وتارة على المظهر.

فقد تجد من يكون رياؤه بلسانه، فيظهر على لسانه ما ليس عنده من تلك الدرجة من الصلاح، أو أن يلبس اللباس القصير الخشن، ليظهر بمظهر الزهد للناس، وهو خلاف ذلك.

وهناك أقسام وألوان متعددة للرياء يستعملها الإنسان ويريد أن يصل عن طريقها إلى قلوب الناس، لأنه يدرك أن الناس توقّر المتديّن العابد، ومن هنا أصبح خطر الرياء كبيراً: تقول الرواية: «يقول الله عز وجل: ثلاثة أنا بريء منهم يوم القيامة: رجل أعطي بي ثم غدر، ورجل باع حرّاً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فبخسه حقه»[1].

فالرجل الأول أعطي بالله فجعل من الله سلعة يتاجر بها ويصل بها إلى غرض معين، والرجل الثاني إما أن يبيع الإنسان الحرّ قسراً، أو يشتريه من أهله الفقراء فيستعبده في حين أن الإنسان خلقه الله حرّاً[2]. أما الثالث فهو من يشغّل العامل ويسرق منه حقه بأساليب مختلفة للسرقة إما بنظرية من النظريات كالرأسماليين الذين يقولون: إنهم يعطون العامل أجور الكفاف، وهي الأجور

---

(١) المغني: ٤/ ٣٠٢.

(٢) قال الإمام علي ﷺ: «لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً». نهج البلاغة/ الوصية: ٣١.

التي تكفي للأكل والشرب والمسكن، بحجة أن الزائد الذي يعطى له لو كان ضمن ثمن السلعة فإن ثمن السلعة سيرتفع وعند ذاك لا يمكن المنافسة في الأسواق بسلعة مرتفعة الثمن.

ومن ناحية أخرى أنه يمكن أن يترفّه العامل فيما لو أعطي فوق الكفاف، وترفّهه معناه زيادة التوالد عند العاملين، وارتفاع عدد السكان، وبالتالي سوف يزيد عدد العمال ويقل الأجر[1]. إلى غير ذلك من المبررات التي يضعها الرأسماليون لعدم زيادة أجر العامل، وهذا في واقعه سرقة مقنّعة.

أما وفق النظرية الثانية ـ وهي النظرية الشيوعية ـ فيسرق العامل بطريقة أخرى هي أنه يقال له: أنت جزء من المجموع، ونحن نأخذ منك قدر استطاعتك، ونعطيك قدر عملك، ولكن بعد أن نأخذ منك الحق العام، للمستشفيات والمدارس والشوارع وغيرها ويبقى العامل يكدّ ويكدح طول عمره وجهوده ضائعة ضمن جهود الآخرين. ولهذا حُرّم في الشريعة الإسلامية شركة الأبدان، كأن يتفق ثلاثة أن يعملوا سوية في محل، ويكون العائد من الربح بالتساوي، لأن الأعمال تختلف من فرد لآخر، فهناك الأضعف والأقوى والأذكى ومتوسط الذكاء. . . إلى آخره. ومن هذا قبيل المزارع التعاونية، وكل هذا سرقة، لكنها سرقة مقنّعة.

الفرق بين الرياء والنفاق:

فالرياء غير النفاق، لأن النفاق هو أن يقول الإنسان ما لا يعتقد، كمن يظهر الإيمان وهو كافر، أو يتظاهر بالصلاة وهو لا يعتقد بها، أما الرياء فأن يظهر من الخشوع ما ليس عنده، وهذا هو الفرق، فالمرائي بالصلاة يصلي

---

(١) أي أنهم يخدعون العامل بأن يقولوا له: إننا إن أعطيناك أكثر زاد نسلك وكثر عددك وبالتالي يقل أجرك أكثر عما تأخذه الآن.

حقيقة لكنه يُظهر للناس من الخشوع ما ليس عنده، دخل رجل على أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: إني أريد أن أقول فيك شيئاً. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «اللهم إنك أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم»(١).

ودخل ابن ميادة على جعفر بن أبي سليمان ـ من أعمام المنصور ـ فمدحه بأبيات، فأمر له بمئتي ناقة فأخذ يد جعفر فقبّلها وقال: والله ما قبّلت يد قرشي غيرك إلا يد هشام بن عبد الملك، فقال له جعفر: تلك يد ما قبّلتها لله. فقال ابن ميادة: ويدك والله ما قبّلتها لله. فقال له جعفر: والله لا ضرّك الصدق عندي، ادفعوا له مئة ناقة أخرى(٢).

ويختلف العلماء في أي المسارين أفضل في العمل: هل يظهر الإنسان أعمال الخير أو يخفيها؟ فإن إظهارها قد يكون فيه شائبة رياء. وهنا أمور لا بدَّ من توضيحها، فالواجبات بإجماع المسلمين يستحسن إظهارها كالصلاة الواجبة والصيام مثلاً، والسبب أن المكلف في مثل هذه الأحوال يجبُّ الغيبة عن نفسه، ويمنع من الشك فيه أنه بعيد عن الدين. أما المستحبات فتكون عرضة للرياء، ولذا يكون إخفاؤها أفضل، لأنه يكون عرضة للثناء الذي يؤثر تأثيراً شديداً على الإنسان، مر أحد الصلحاء على رجل سجد سجدة شكر فأطالها، فقال له: والله لو كانت في بيتك لكانت أفضل.

حالتان لاستحباب إظهار البر:

فالعمل المستحب يستحسن إخفاؤه إلا في حالات، منها:

---

(١) نهج البلاغة/ الحكمة: ١٠٠.

(٢) المستطرف من كل فن مستظرف: ٢/ ١٥.

الحالة الأولى ـ خلق القدوة:

وذلك فيما إذا عرف أنه إذا أظهر العمل الصالح فسوف يكون ممن يقتدي به الآخرون، فمن الناس من يحمله ذلك على الإحسان، لأنه يحمل روح التنافس في العمل الصالح. وليس في التنافس بأس، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[1].

الحالة الثانية ـ حفظ العرض:

وذلك فيما إذا كان الهدف من الإنفاق حفظ العرض، فخير المال ما وُقي به العرض.

عصر الأجداد:

وكمثال على ذلك، أن الإمام الحسن عليه السلام عاش عصراً يسمى عصر الأجواد. والسبب في انتشار ظاهرة الجود تلك أن العرب قبل الإسلام كانوا غاية في الفقر، فلما جاء الإسلام درّت عليهم الدنيا أموالاً لا حدود لها، فقصدتهم الناس، وكثر العطاء، فنشأ الإمام في مثل هذه الأجواء، وعاصره جماعة من الأجواد، فدخل عليه يوماً شاعر فأمر له بخمسين ألف درهم، فقال له أحد الجالسين: تعطي شاعراً يقول البهتان ويعصي الرحمان خمسين ألف درهم؟ فقال: «إن خير ما بذلت من مالك ما وقيت به عرضك، وإن من ابتغاء الخير اتقاء الشر»[2].

فقد يصبح الإنسان عرضة للشر، ويكون عرضه معرضاً للشتم، فقد تنعت بأنك صاحب أموال لكنك لا تعطي، فلست بالجواد الذي يوصل الخير إلى

---

(١) سورة المطففين، الآية: ٢٦.

(٢) بحار الأنوار: ٤٢/ ٣٥٨/ ٣٥.

الناس. فعليك في مثل ذلك أن تتقي هذا الشر، فخير المال ما وقيت به العرض.

ولا تتصور أن الإمام الحسن عليه السلام يخاف من شتم هذا فليس هو ممن يخاف الشتم وهو الذي تعرض للشتم في وجهه فلم يهتم لهذا، فقد وقف أحدهم في طريقه فقال له: أنت ابن أبي تراب؟ قال: «نعم». قال له: (بك وبأبيك). وراح يشتمه، فلم يرد عليه الإمام وتركه حتى شبع من الشتم، ثم قال له: «أحسبك غريباً؟». قال: نعم، قال: «هلم بنا إلى الدار، فإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت فقيراً أعطيناك، وإن كنت محتاجاً واسيناك». فالتفت إلى الإمام عليه السلام قائلاً: لقد دخلت إلى المدينة وليس على وجه الأرض أحد أبغض إليّ منك ومن أبيك، وسوف أخرج وليس أحد عليها أحب إليّ منك ومن أبيك[1].

فلم يكن الإمام الحسن عليه السلام يخشى الشتم وإنما يخشى قالة السوء: إنه يملك أن يعطي للضعيف فلم يعطه، ويملك أن يكرم الأديب فلم يكرمه.

فالعبادات من حيث الإظهار والإخفاء أقسام، فمنها ما يستحب إخفاؤه ومنها ما يستحب إظهاره. فصدقة السر يستحب إخفاؤها لأنك في ذلك تحفظ ماء الوجه لمن تعطي، قال تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝١٩﴾[2]، فالمحروم هو الذي يمنعه الحياء وتمنعه الكرامة أن يسأل.

المبحث الثالث ـ المراد من ﴿الْمَاعُونَ﴾:

ثم قال تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧﴾، وفي الماعون أكثر من اثني عشر رأياً، أهمها ثلاثة:

---

(١) الأنساب: ٣/ ٤٧.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ١٩.

الرأي الأول ـ أنه الحق الشرعي:

والمراد به الزكاة عند المذاهب الإسلامية[١]، وعند الشيعة الزكاة والخمس[٢]. لكن لمَ أسماه القرآن ماعوناً؟ فالماعون في اصطلاحنا هو الإناء الذي نضع فيه شيئاً من طعام وغيره.

والجواب: أن الحق الشرعي إنما يسمى ماعوناً، لأنه هو الذي يملأ الماعون، فالماعون هو الإناء، وهذا الإناء تارة يكون مادياً وأخرى معنوياً، فالمادي جسد يحتاج إلى ثوب، ومعدة تحتاج إلى طعام، والإناء المعنوي هو ذهن يحتاج إلى علم، ونفس تحتاج إلى أمان واستقرار واطمئنان وتكريم، فالفقير لا يشعر بكرامة، وإنما يشعر بانسحاق وانحطاط، فإن منعت عنه الحق الشرعي جعلت من كل هذه الأواني فارغة، فالحق الشرعي إذاً يعود إلى الطبقة المحتاجة.

موارد صرف الخمس:

وأود هنا أن أبيِّن مورد صرف الخمس، فكثير من الناس يتصور أن الخمس حق للعلوي فقط، ولكن الصحيح أن العلوي المحتاج يعطى من الخمس ما يسد حاجته، والباقي يرجع إلى بيت المال فيصرف في المصالح العامة، كالعلاج والتعليم والخدمات الأخرى.

والخمس من النظريات الضخمة في الاقتصاد، لكن عيبها الوحيد ـ على رأي البعض ـ أنها جاءت من طريق أهل البيت عليهم السلام، ولو أنها جاءت من طريق معاوية لكان لها شأن آخر، وإلا فلا يمكن أن تقوم الدولة على الزكاة فقط.

---

(١) الرسالة (الشافعي): ١٨٧/ ٥١٧ ـ ٥١٨.

(٢) تفسير القمي: ٢/ ٤٤٤.

والحقوق الشرعية تملأ كل ماعون، لأنها تدعم القوة الشرائية للفرد، فتحرّك السوق. والقوة الشرائية تُدعم بتوزيع الثروة بشكلها الصحيح، فالمسلم الضعيف عندما يمتلك النقد يشتري به ما يحتاج من طعام ولباس وغيره فيحرك السوق، وبذا يمتلىء كل ماعون.

الرأي الثاني ـ أنه حاجات البيت:

فمنعه يعني منع حاجات البيت عن المحتاج إليها من الأواني والقدور وغيرها، ويقال: إن منها الملح والماء والنار، فلو طلب منك جارك شيئاً من ذلك فلا تمنعه، فذلك من مكارم الأخلاق. ويستدل الفقهاء من هذا المقطع على تشريع الإعارة[1]. والإعارة: هي الإذن بالانتفاع تبرعاً، أي أنك تسمح لغيرك أن ينتفع بشيء من أدواتك دون عوض. والفقهاء يستدلون على الاستعارة بهذه الآية، وبقوله تعالى[2]: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[3].

فموضوع العارية كل عين يُنتفع بها مع بقائها. وأنا أستغرب من إدخال الملح والماء والنار في هذا الموضوع، فالملح ومثيلاته لا تبقى بعد الانتفاع بها، فهذه مشتركات عامة ولا تدخل في موضوع العارية.

فالمشتركات العامة لا تملك، وهي مؤمّمة تأميماً مطلقاً. فالطاقة بشكل عام ـ ومنها النار ـ لا تُملك. وقد وجدت رأياً لأحد الفقهاء المحدثين مِن غير الإمامية يقول فيه: إن النفط لا يملك إلا للأمة باعتباره طاقة عامة.

يد المستعير يد ضمان أم يد أمانة؟:

---

(١) تذكرة الفقهاء: ٢/ ٢٠٩ (حجري).
(٢) تذكرة الفقهاء: ٢/ ٤٦١ (حجري).
(٣) سورة المائدة، الآية: ٢.

وقد حدث نزاع بين المذاهب الإسلامية في ضمان العارية، فهل إن ما يعار يكون مضموناً أو لا؟ فلو أخذ أحد قِدراً من أحد فتلف هذا القدر، فهل يضمنه أم لا؟ أي هل يد الآخذ يد أمانة أو يد ضمان؟ يقول الشافعي: إن الحاجة تكون مضمونة، ويد الآخذ يد ضمان. أما باقي المذاهب الإسلامية فيقولون: إن يده يد أمانة فلا يضمن إلا إذا اشترط المعطي الضمان[١].

ويستدل الشافعي[٢] على ذلك بأن النبي ﷺ لما خرج للقتال في غزوة حنين أو أوطاس رأى أن بعض أصحابه ليس معه سلاح، والنبي ﷺ يعرف أن الله ربط الأسباب بمسبّباتها الطبيعية، فلا يمكن تحقيق النصر دون سلاح، وكان المسلمون فقراء لا يستطيعون شراء ما يلزم منه، فبعث إلى صفوان بن أمية ـ وكان مشركاً ـ يبيع الأسلحة، فقال له: «أريد مئة بزة كاملة من دروع وسيوف وغيرها». فقال: أقهراً يا محمد؟ قال: «لا، عارية مضمونة».

فأعطاه الأسلحة على هذا الأساس. فقاتل النبي ﷺ وانتصر، وغنم من المشركين غنائم كثيرة. فأتوا إلى النبي ﷺ بسهمه من الغنيمة من بقر وغنم وإبل سدّت ما بين أربع جبال، وكان صفوان واقفاً وقد أعجبته الغنيمة، فرآه النبي ﷺ كذلك، فقال له: «أعجبتك هذه الغنيمة؟». قال: نعم، قال ﷺ: «هي هبة مني إليك». فأطرق صفوان وهو غير مصدق، ثم قال: هذا عطاء من لا يخاف الفقر. مُدّ يدك، إني أشهد ألا إله إلا الله، وأنك رسول الله[٣].

وهكذا هو النبي ﷺ، حيث أدخل بعض الناس إلى الدين من بطونهم لا من عقولهم، كالمؤلفة قلوبهم مثلاً.

---

(١) قواعد الأحكام: ٢/ ٣٦٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٢٥٧.
(٣) تذكرة الفقهاء: ٥/ ٢٥٢.

فلم تكون العارية مضمونة في حالات معينة، كأن تكون ذهباً أو فضة، أو صيداً استعاره محرم، أو إذا اشترط الضمان عند الإعارة. ويذكر الفقهاء ستة موارد تكون فيها العارية مضمونة، ومن جملتها الاستعارة للرهن[١].

الرأي الثالث ـ أنه الماء:

فمنعه يعني منع الماء، والعرب تسمي الماء ماعوناً، يقول شاعرهم:

يمجّ صبيره الماعون مجاً[٢]

فمنع الماعون هنا بأن يكون له بئر فيمنع الناس عن وردها، أو يكون له نهر فيمنعهم عنه، وهذا لا يجوز، يقول المفسرون: إن الله خصّ الماء بذلك، لأنه أرخص موجود وأعز مفقود[٣]. ولذا فإن الاقتصاديين عندما يبحثون نظريات القيمة وما يؤثر عليها، يقولون: إن من العوامل التي تؤثر على القيمة الندرة. فالشيء النادر يكون غالياً، أما المبذول الكثير فيكون رخيصاً.

ومن العوامل الأخرى المنفعة، فالمنفعة تحدد القيمة أيضاً. فبقدر ما يحتاج الإنسان إلى الانتفاع بالسلعة تكون قيمتها أكثر، فالإنسان مستعد لدفع أغلى الأثمان مقابل رغيف الخبز لأنه لا يسعه الاستغناء عنه، وكذلك الثوب وغيره. ولذلك يقول علماء التفسير: إن أهل النار أول ما يطلبون الماء، وأهل الجنة أول ما يسعدون بالماء[٤]. فلو وضعت بين يديك آلاف الأنواع من السوائل فهي لا تغنيك عن الماء، يقول تعالى عن أهل النار: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ

---

(١) حاشية رد المختار (ابن عابدين): ١/ ٧٣.

(٢) صدر بيت لم يسم قائله، وعجزه: إذا نسم من الهيف اعتراه. الصحاح: ٦/ ٢٢٠٥، معنى. والصبير: السحاب الأبيض الذي يصير بعضه فوق بعضه درجاً.

(٣) فقه القرآن: ٢/ ٢٨٤.

(٤) مكارم الأخلاق: ١٥٥.

ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾[(١)]، ويقول عن أهل الجنة: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[(٢)]، ولذلك سلب الله تعالى ملكية الماء وجعلها مشاعة لأهميته.

أجر ساقي الماء وفضله:

وقد ورد في الروايات أن «من سقى الماء في موضع يوجد فيه الماء كان كمن أعتق رقبة، ومن سقى الماء في موضع لا يوجد فيه الماء كان كمن أحيا نفساً، ومن أحيا نفساً فكأنما أحيا الناس جميعاً»[(٣)].

فليس لأحد أن يمنع الماء أبداً. ولو راجعت سير النبلاء في العالم لوجدت أنهم لا يمنعون الماء، فأمير المؤمنين عليه السلام لما ذهب إلى صفين ووجد معاوية قد منع الماء، حاول أن يسترجعه منه بالتي هي أحسن فلم ينفع، وقام شاعر منهم لما تظاهر معاوية أنه يستشيرهم في فك الحصار عن الماء ليستفيد منه أصحاب علي عليه السلام فقال له:

اسمعِ اليوم ما يقول سليل ... إن قولي قول له تأويلُ

امنع الماء من عتاة علي ... لا يذوقوه والذليلُ ذليلُ[(٤)]

فالتفت أمير المؤمنين عليه السلام إلى أصحابه قائلاً: «إن القوم قد استطعموكم القتال». فنزلوا إلى الحرب، ومالك الأشتر يرتجز ويقول:

لأوردن خيليَ الفراتا ... شعثَ النواصي أو يقال ماتا

حتى أخذوا الفرات عنوة وذادوا عنه أصحاب معاوية. فلما أصبح الصباح

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٠.

(٢) سورة الدهر، الآية: ٢١.

(٣) الكافي: ٤/ ٥٧/ ٣.

(٤) وقعة صفين: ١٦٢.

على أصحاب معاوية نفد ما عندهم من ماء، فبعثوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام أن اسمح لنا بالماء، فأرسل الإمام عليه السلام إلى مالك الأشتر أن تخلّ لهم عن صدر الماء. فقال له بعض القادة: هؤلاء بالأمس راموا أن يميتونا عطشاً، فكيف نسمح لهم بوروده؟ فأجابهم عليه السلام: بأن ذلك ليس من شيم النبلاء، ففسحوا لهم عن صدر الفرات[1]:

وحسبكم هذا التفاوت بيننا   وكل إناء بالذي فيه ينضحُ[2]

يقول الشاعر مخمساً البيت الذي قبل هذا البيت:

أخذنا عليكم جبهة الأرض والسما   فلما ملكناكم وسعنا تكرّما

فلما ملكتم لِمَ أبحتم لنا الدما   وحللتم قتل الأسارى وطالما

غدونا عن الأسرى نمنّ ونصفحُ

معدن بني أمية:

فأهل البيت عليهم السلام معدن، وأعداؤهم معدن آخر، ولذا تجلّت خسة أعدائهم يوم الطف في رضيع له من العمر ستة أشهر، جاء به الحسين عليه السلام تحت ردائه يضطرب كما تضطرب السمكة، فقال لهم: «ويحكم إن كان للكبار ذنب فما ذنب هذا الطفل؟ ويحكم لقد جفّ ثدي أمه من اللبن، خذوه بأيديكم فاسقوه قليلاً من الماء».

ولا زال هؤلاء إلى الآن يعدون من المسلمين في نظر الكثير من الناس،

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٣١٧ ـ ٣٢١.

(٢) البيت لابن الصيفي. شرح الأخبار: ٣/ ١٢٩.

فماذا كان الجواب؟ كان الجواب أن رموه بسهم ذبحه من الوريد إلى الوريد، فتبسم الطفل للسهم، يقول أحد الأدباء:

وكل رضيع يغتذي درّ أمه ... ويرضع من ألبانها ثم يفطمُ

سوى أن عبد الله كان رضاعه ... دماه وغذّته عن الدّر أسهم

تبسم لما جاءه سهمُ حتفه ... وكل رضيع للحلويةِ يبسمُ

تخيّلَهُ ماء ليروي غليله ... ففاض عليه الغمر لكنه دمُ

فوضع الحسين عليه السلام يده تحت منحره إلى أن امتلأت دماً عبيطاً، فقذف به إلى السماء، وكرّ راجعاً، ثم صاح: «رباب، خذي ولدك مذبوحاً»:

كم رضيع لك بالطف قضى ... عطشاً يسبق بالراحة راحا

أخذته أمه وقد ذهب عنها رشدها، فوضعته إلى جانب المهد تهزّه وهو خالٍ منه، وهي ذاهلة لا تشعر بما تصنع:

خذت سلوتي وظليت اسالي ... برويحتي والدمع هالي

أدورن على ايميني وشمالي ... أهز بالمهد والمهد خالي

اليوم العاشر

الحسين عليه السلام ضمير أمّة وخلود عقيدة

سكتُّ فلا الأنغام تَقرَعُ مسمعي
ولا جمراتُ العشق تلذعُ أضلعي
وحالَفني همٌّ يلازم يقظتي
ويمنعني طيبَ الرُّقادِ بمضجعي
وما عادَ لي إلاّ حنينٌ لكربلا
يجدِّد في ذكرى الطّفوفِ تولُّعي

خليليَّ هل من وقفةٍ لكما معي — على جدثٍ أسقيه صَيّبَ أدمعي
ليُروى الثّرى منه بفيضِ مدامعي — فإنّ الحيا الهطّال لم يكُ مُقنعي
لأنّ الحيا يَهمي ويُقلعُ تارةً — وإنّي لعُظمِ الخُطب ما جفَّ مَدمَعي
خليليَّ هبّا فالرقاد محرَّمٌ — على كلِّ ذي قلبٍ من الوجد موجَعِ

هلما معي نعقِر هناك قلوبنا إذا الحزن أبقاها ولم تتقطعِ
هلُما نُقِم بالغاضرية مأتماً لخيرِ كريمٍ بالسيوف موزَّعِ
فتًى حلَّقت فيهِ قوادمُ عِزّةٍ لأعلى ذُرا المجدِ العظيمِ وأرفعِ
وآساد حربٍ غابُها أُجُمُ القنا وكلُّ كميٍّ رابطِ الجأشَ أروعِ
إذا ألقحَ الهيجاء حتفاً برمحه فماضي الشبا منه يقول لها ضعي
إلى أن دعاهُم ربُّهم للقائه فكانوا إلى لقياهُ أسرعَ من دُعي
وخَرُّوا لوجه الله تِلقا وجوهِهم فمن سُجَّدٍ فوقَ الصعيد وركَّعِ

* * *

جينه ننشد كربلا وضعينها بيها زينب كالوا ميسرينها
يسّروها ولا لها واحد فزع شال حادي ظعونها بليل وكطع
جينه ننشد وين أبو فاضل وكَع ما تدلونا الشريعة وينه

يقول أحد أدباء الطّف:

خذ في ثنائهم الجميل مقرّضاً فالقومُ قد جَلُّوا عن التأبين

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأوّل ـ أن الحسين عليه السلام انتزع الخلود من الدنيا:

لا نريد في هذه الليلة أن نؤبن الحسين عليه السلام، لأن الذي يؤبَّن هو الذي يموت، أما الحسين عليه السلام فقد منحه الله الخلود، وسنرى كيف انتزع الخلود من الدنيا.

إن الدم الذي أراقه الحسين عليه السلام في كربلاء كان حيًّاً وسيبقى، والسرُّ في

ذلك أنه امتداد لدماء النبوات، وقد بقيت دماء الأنبياء المراقة في سبيل الله حية لم تمت، وإنما أخذت طريقها إلى الخلود في الحياة، لأن دماء الشهداء أصوات تبقى تتردّد في الفضاء. وهي مواقف، والمواقف لا تموت، وإنما الذي يموت الجسد فقط، أما المواقف فيبقى يعيش ويعيش إلى أن تنتهي الدنيا. فالفناء يعتري الدنيا ولا يعتري الموقف، لأن الله تكفّل بحياة الشهداء: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾[1]، فماذا نفهم من حياة الشهداء التي يذكرها القرآن الكريم؟ نفهم منها أن الذي يقاتل في سبيل الله ويقتل لا بدّ أن يكون حياً، لأن الله قال ذلك وهو أصدق القائلين.

صحيح أن مظاهر الموت استولت على الأجساد في كربلاء، وأن هذا الجسد الذي وضع في التراب هدأ عن الحركة، لكن الروح لم تهدأ.

الهدف الذي أراد الحسين عليه السلام إبرازه من خلال نهضته المباركة:

ونسأل عن الهدف الذي أراده الحسين عليه السلام من وراء طرحه ذلك الدم في طريق الشهادة فنعرف أن الهدف كان أكبر من الأهداف الرخيصة. فإن كان البعض يقاتل من أجل حكم، فالحكم لا يلبث أن يتلاشى في أيام قلائل. ونحن نعرف في تاريخ الخلفاء أن منهم من حكم أربعة عشر يوماً، ومنهم من حكم أسبوعاً، ومنهم من حكم سنة أو سنتين، ثم بمجرد أن ماتوا مات ذكرهم، أما هذا القتيل فما زال يحكم القلوب منذ (١٤٠٠) سنة، وسيبقى يحكمها إلى أن تقوم الساعة.

ثم إن العروش التي تلاشت في أيام قليلة حكمت الظاهر فقط ولم تحكم القلوب، فالعرش الذي يقوم على القهر والجبر والقوّة ليس كالعرش الذي يتربّع

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٤.

على القلوب. فالشهداء يتربّعون على القلوب، لأنهم استشهدوا في سبيل إعلاء كلمة الله. وهم لا يموتون، لأن كلمة الله لا تموت، والتيار الذي حمل دماء الشهداء أراد الله له أن لا يموت، وسيبقى هكذا. ولذلك تبقى الشهادة اللواء الذي يرفرف على امتداد الدهر، أما الذي وقف في طريق إعلاء كلمة الله فقد تلاشى.

لقد قتل الحسين عليه السلام إذ لم يكن بإمكانه أن يربح المعركة ذلك الربح الذي نعرفه نحن بذلك العدد الذي كان معه، فهل يستطيع أن يقابل ويقاتل بسبعين رجلاً ذلك الجيش الجرّار الذي يبلغ (٧٠) ألفاً أو ضعف هذا العدد على بعض الروايات؟[١] يقول أحد أدباء الطف:

لو لم تكن جُمِعت كلُّ العُلى فينا	لكان ما كان يومَ الطف يكفينا
يومٌ نهضنا كأمثالِ الأسود به	وأصبحت كالدُّبا زحفاً أعادينا
جاؤوا بسبعين ألفاً سلْ بقيَّتهم	هل قابلونا وقد جئنا بسبعينا

فلا يمكن من الناحية المادية أن يربح الحسين عليه السلام المعركة بهؤلاء السبعين، لكنه ربح المعركة من جانب آخر، وذلك بالدم الذي أراقه على تراب كربلاء، وظل يتفاعل مع هذا التراب ويبعث بصوته.

نحن نقف الآن في هذه الليلة وما مثلها من الليالي والدوي هناك عند قبر الحسين عليه السلام، ذلك الدوي الذي أراد الظالمون أن يخمدوه ويسكتوه، لكنه بقي على الرغم منهم بتلك الدماء التي أُريقت عليه، وستبقى كربلاء المفاعل الذي يخشى منه الظالمون، وسيبقى هذا الدم الطاهر اللواء الذي يرفعه الأحرار.

---

(١) أنصار الحسين عليه السلام: ٢٠٢، ٢٣٢.

فالحسين عليه السلام أراد من هذا الدم أن يبقى الصوت الذي يلعلع على امتداد التاريخ: «والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ إقرار العبيد»[١]. ذلك الشعار الذي مازج الدم سيبقى وسيظلّ يصل إلى كلّ أذن تتسمّع إذا وقفت على قبر الإمام الحسين عليه السلام، فكل من يقف على قبره عليه السلام يسمع هذا الصوت الهادر الذي لا يمكن أن يتلاشى:

وإلى أن هويت يطعنك الحقـ ـد ويلهو بشلوك التنكيل

والهدير الشجاع عندك ما انفـ ـكّ وطبعٌ عند السيوف الصليل

فالحسين عليه السلام عندما أراق هذا الدم أراد منه أن يبقى شعلة حيّة تهدّد الظالمين. وقد كان ذلك، فقد بدأت الثورات، وبدأ هذا الصوت يمتدّ إلى أعماق الثائرين ليدفعهم إلى مقارعة الظلم والباطل، وراحت الثورات تتلاحق ابتداء بالتوّابين ومن بعدها ثورة المختار بن أبي عبيد، ومن بعد ثورة المختار ثورات الطالبين التي تلاحقت إلى أن انفلّ العرش الأموي وجاء العرش العباسي.

لكن هل استطاع العرش العباسي أن يغطّي هذا الدم الكريم وأن يضع عليه تراباً ليميته؟ أبداً لم يستطع، فقد بقي تراب الحسين عليه السلام يرعب العروش العباسية، وإلاّ فما هو الدافع لأن يرسل الرشيد غلاماً له لينبش قبور هؤلاء الشهداء (رضوان الله عليهم)[٢]؟ إن هذه القبور كانت توحي إليه الرعب، وهذا أحد الشعراء يخاطب أحدهم وكأنه يخاطب الإمام الحسين عليه السلام:

وعلى عدوّك يا بن عم محمدٍ رَصَدانِ ضوءُ الصبح والإظلامُ

---

(١) الإرشاد: ٢/ ٩٨.

(٢) الأمالي (الطوسي): ٣٢٥/ ٦٥١.

فـإذا تـنـبّـه رُعـبَـهُ وإذا غـفـا سـلّـت عـلـيـه سيـوفـكَ الأحـلامُ[(١)]

وهكذا كان دم الحسين عليه السلام يرعبهم وهم في اليقظة، ويرعبهم وهم في النوم.

ولم يكن العباسيون ليستهدفوا قبراً أو حجارة يقتلعونها، أو شجرة يقطعونها كما فعل المتوكل[(٢)] الذي سلط المحاريث على القبر، وأمر بالماء ففتح عليه ليمحو معالمه[(٣)]، لكن هل استطاع وهو يغطّي معالم القبر أن يغطي معالم الحسين عليه السلام؟ كلاّ إنما بقيت الآثار وستبقى.

ويخطىء تمام الخطأ من يظن أننا في هذه الليلة نجلس لنمجّد عظاماً، نحن في هذه الليلة نستمع إلى أصداء الموقف الذي وقفه أبو الشهداء عليه السلام. إن آذاننا الآن صاغية إلى ديباجة طرحها الحسين عليه السلام على صعيد الطفّ عندما وقف ورفع رأسه إلى السماء فقال: «ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركّز بين اثنتين، بين السلّة والذلة، وهيهات منّا مأخذ الذلّة يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت ونفوس أبية وأنوف حمية من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام». ثم رمق السماء بطرفه وقال: «اللهم إني زاحف بهذه الأسرة على قلّة العدد وخذلان الناصر»[(٤)].

فنحن عندما نقف على القبر فإنما نتلمّس فيه ذلك الموقف الهادر الذي ما استطاعت أحداث الطفّ بما فيها أن تأخذ منه. يقول عبد الله بن عمار: والله لقد رأيت الحسين عليه السلام فما رأيت مكثوراً قط أربط جأشاً منه، وقد كانت الخيل

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ١٧.
(٢) تهذيب الكمال: ٦/ ٤٤٤.
(٣) الأمالي (الطوسي): ٣٢٦/ ٦٥٣.
(٤) الاحتجاج: ٢/ ٢٥.

والرجال تشدّ عليه فيشدّ عليها فينهزمون بين يديه انهزام المعزى إذا شدّ فيها الذئب، ويرجع إلى مركزه فيتكيء على قائم سيفه ويكثر من قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

فهذا الدم الطاهر الذي نحتفل به هذه الليلة لا زال يفور، ولم ولن يجفّ، ونخاطبه في الزيارة: «السلام عليك يا ثار الله وابن ثاره»[2]، ومعنى ثار الله: أن الله يطلب بهذا الدم، وهو الذي أراد له البقاء، وأن يجعله علامة تهزّ عروش الظالمين، وأن يبقى شعاراً يعيش على فم الأحرار وفي مشاعرهم. فهذا الدم لن يتلاشى ولن يموت إذاً هذا هو الدم الذي أراد الحسين عليه السلام أن يخلّده على تراب كربلاء، وأن يرفع منه علماً للأجيال تبقى على امتدادها تأخذ من شعاره.

المبحث الثاني ـ آليات الأئمة عليهم السلام لإبقاء شيعتهم على تماسّ مع دمه عليه السلام:

والآن لنرَ ما هي وسائل أهل البيت عليهم السلام لإبقاء شيعتهم على تماسّ مع هذا الدم الطاهر؟ نحن نعرف أن أهل البيت عليهم السلام كانوا يدعون إلى إحياء أمرهم، يقول الإمام الحسين عليه السلام يوم الطف في كتابه إلى أهله الباقين في المدينة بعد أن وصل كربلاء: «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فمن لحق بنا منكم استشهد، ومن تخلّف لم يبلغ الفتح»[3]، فما هو الفتح الذي أراده الحسين عليه السلام؟ إنه لم يستولِ على أرض، ولم يفتح بلداً، ولم يستولِ على أمواله، الفتح الذي أراده عليه السلام هو أنه أراد أن يرفع مشعل الحق والعدالة والحرية، وبقي هذا المشعل متّقداً إلى الآن، وأقول له: سيدي يا أبا الشهداء، إن كان دمك قد سقط على تراب كربلاء قبل (١٤٠٠) سنة، فإنه لا

---

(١) مثير الأحزان: ٥٤.

(٢) كامل الزيارات: ٣٢٨.

(٣) بصائر الدرجات: ٥٠٢.

زال حتى الآن يعيش بمشاعرنا وقلوبنا، وسنبقى مشدودين إليه، نستمدّ من عطائه وجذوته.

ونسأل مرة أخرى: ما هو الطريق الذي سلكه أهل البيت عليهم السلام للبقاء على تماس بثورة الحسين عليه السلام ودمه؟ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «أحيوا أمرنا، رحم الله من أحيا أمرنا»[1]. فما هو الأمر الذي طلب منا الإمام الصادق عليه السلام أن نحييه؟ إنه التأمل في أهداف الطفّ وعدم أخذها من الجانب المأساوي فقط، فلو مرّ أحد بواقعة الطفّ فعليه أن يتأمل في سبب استشهاد الحسين عليه السلام يوم الطف، وبأي دافع قتل، وليتساءل: لماذا قدّم البراعم من آل محمد صلى الله عليه وآله حتى طرحوا على وجه الأرض؟ إن الهدف كان إعادة الروح إلى الدين الذي أراد الأمويون القضاء عليه، فقد اتبع الأمويون أساليب ووسائل كانت تستهدف القضاء على الدين الحنيف، وإلا فبم نفسّر أن يصعد خليفة من خلفاء المسلمين على المنبر ويرفع عقيرته بقوله:

أقول لصحبٍ ضمت الكأس شملهم ... وداعي صباباتِ الهوى يترنَّمُ

خذوا بنصيب من نعيمٍ ولذةٍ ... فكلّ وإن طال المدى يتصرّم[2]

وهذا ليس نَفسُ خليفة يؤمن بالله، وليس يؤمن بالله من ينشد:

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبرٌ جاء ولا وحي نزل[3].

فلم يكن المستهدف عند هؤلاء الدم واللحم، وإنما المستهدف المضمون مما يحملونه من الرسالة الإسلامية. فالحسين عليه السلام بموقفه يوم الطف كان يريد

---

(١) الكافي: ٨/ ٨٠/ ٢.

(٢) جواهر المطالب (ابن الدمشقي): ٢/ ٣٠١.

(٣) تاريخ الطبري: ٨/ ١٨٧.

أن يقف بوجه التيار الأموي الذي يلاحق الدين الإسلامي ليمحقه من الوجود، وإذا كان كذلك فلا بدّ لنا إذاً أن نكون على تماسّ مع هذا النبع، ليغذينا دائماً، ويجعلنا نحمل فكرة المحافظة على ديننا وإسلامنا . . ذلك الرافد الذي أرادت له السماء أن يصل إلينا عن طريق نبيّنا ﷺ.

أما الآليات التي اتبعها أئمّة أهل البيت عليهم السلام في المحافظة على هذه النهضة فتتمثل في جانبين: مادي ومعنوي. غير أن الجانب المعنوي غالباً ما يكون بعيداً عن تصورات بعض الأذهان، إذ ليس باستطاعة كلّ واحد منا أن يكون مشدود التفكير إلى الطُّفّ دائماً، فقد يغفل أو تشغله هموم الحياة، فكيف تمكّن الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام من شدّ أذهاننا إلى هذه الثورة؟ لقد استخدموا عليهم السلام مجموعة من الآليات لهذا الغرض منها:

الآلية الأولى ـ تغذيتنا بالتيّار الأدبي:

وهو تيار ترتاح إليه نفوسنا، وذلك من خلال الأبيات المكهربة، ففي الشعر كلمات مكهربة فيها نوع من الحرارة لا توجد في النثر، فأراد الأئمّة عليهم السلام تطويع الشعر وتوظيفه لإبقائنا على صلة بواقعة الطف، فوقف الإمام عليه السلام يقول: «من قال فينا بيت شعر بنى الله تعالى له بيتاً في الجنة»[1]. و«من رثى لنا وتفجع لمصيبتنا أعطاه الله كذا وكذا» والهدف من ذلك أن تبقى هذه الآليّة محفّزة لنا ومؤجّجة للجذور في نفوسنا. فعندما أسمع من يقف على قبر الحسين عليه السلام ويقول:

وخلتُ وقد طارت الذكريات ... بروحي إلى عالمٍ أرفعِ

كأنّ يداً من وراء الضريح ... حمراء مقطوعة الإصبعِ

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢/ ١٥/ ٢.

تُعَدُّ إلى عالمِ بالخضوع والضيم ذي شَرَقٍ مُترَعِ

لِتُبدل منه جديبَ الضميرِ بآخر معشوشبٍ ممرعِ

عندما أسمع هذا المقطع يأخذ أثره من نفسي وأضعه على مشارف الواقعة، وتتأجّج الجذور في داخلي، وأسمع من يقول:

تسامرني والكائنات هجوعُ بدنياك في قلبِ الظلام شُموعُ

سهرتُ عليها الليلَ أستلهمُ الرُؤى فألهمني ممّا وهبت نجيع

نجيعٌ مشى عبر القرون بخصبه فلا دهرَ إلاّ من حباهُ ربيعُ

وأرتقي قليلاً إلى بواكير أدبائنا لأسمع دعبل بن علي الخزاعي وهو يقول:

أفاطم لو خلت الحسينَ مجدّلاً وقد مات عطشاناً بشطِّ فراتِ

إذاً للطمت الخدّ فاطمُ عنده وأجريت دمعَ العين بالوجناتِ

أفاطم قومي يا بنة الخير واندبي نجومَ سماوات بأرض فلاةِ[1]

أو أسمع الكميت وهو يقول:

من لقلبٍ متيَّم مستهامِ غير ما صبوةٍ وما أحلامِ

إلى أن يقول:

وقتيل بالطفّ غودر منهم بينَ غوغاءِ أمّةٍ وطغامِ[2]

---

(١) شرح الأخبار: ٣/ ١٧٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٣/ ٣٣٧.

ويسمعه غيري، فإننا نبقى مشدودين للواقعة، وتبقى تلك الجذوة ملتهبة في نفسه، ويكون على تماسّ مع عطاء الطفّ.

فأهل البيت عليهم السلام جنّدوا الشعر، فكان ذا دور فاعل في الميدان. ولم يكن الهدف رغبة مؤقتة، وإنما كان لإشعال جذوة الحق بالنفوس، إذ هم عليهم السلام ما أرادوا دنياً أو كرسياً أو حكماً، وإنما أرادوا إعلاء كلمة الله في الأرض.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في نهجه: «اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ولا لالتماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك، فتقام المعَطَّلة من حدودك، ويأمن الضعيف من عبادك»[1] وهذا هو الهدف الذي طرحه أهل البيت عليهم السلام ومن أجله كانت واقعة الطفّ.

الآلية الثانية ـ التذكير بالتراب الذي أُريق عليه الدم الطاهر:

فيجب ألاّ ننسى التراب الذي أُريق عليه ذلك الدم وإن كان دم الحسين عليه السلام قد تمرد على التراب فلم يضمّه، لكن الوقوف ميدانياً على التربة له شأن خاص. وهذا له شواهد كثيرة، منها علة توجّه المسلمين إلى مكّة، إذ أليس بإمكانهم أن يؤدّوا المشاعر والمناسك وهم في بلادهم؟

نعم يمكنهم ذلك، لكن الله تعالى إنما يندبهم إلى قطع المسافات والذهاب إلى مكة ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[2]، لأنّه جلّ شأنه يريد أن يوقف المسلم على المهد الأول الذي انطلقت منه كلمة «لا إله إلا الله»، وأن يوقفهم على الكعبة ليقول لهم: هذه هي التي حملت لكم شعار التوحيد. فيجعل المسلم يعيش طيوف الأمس، ويتصور كيف كان بلال يصعد على سطح

---

(١) نهج البلاغة/ الكلام: ١٣١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

الكعبة ويعلن كلمة التوحيد، وكيف كان يقف النبي ﷺ وإلى جانبه صحبه الكرام، وهو يحمل رسالة السماء. وهذا الوقوف له أثره الكبير.

فلذا أراد الأئمة عليهم السلام منا أن نقف على كربلاء، وأن نسجد على التربة الحسينية. وهناك الكثير من الروايات في فضل السجود على تربة الحسين عليه السلام[1]، فلماذا هذه التربة بالذات، مع أن هناك تربة للنبي ﷺ وتربة لأمير المؤمنين عليه السلام وكلاهما ثائر مقاتل في سبيل الله؟ إن هذا صحيح، لكن الواقعة التي أعطت دماً أكثر، واستقطبت عواطف المسلمين هي واقعة الطف، ولما كان لها هذا الأثر بالنفوس أراد أهل البيت عليهم السلام منا ألاّ ننسى هذا التراب الذي سقط عليه الدم المقدّس الشريف الطاهر.

إن السجود على تربة الحسين عليه السلام ليس فيه خروج على النص، يقول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»[2].

وهذه التربة الحسينية قطعة من التراب، لا كما يحاول البعض أن يصوّر أن الشيعة يسجدون عليها لأن فيها دماء الحسين عليه السلام، إن الشيء الذي فيه الدم لا يسوغ لنا السجود عليه، وكل ما في الأمر أن هذه التربة هي التي احتضنت الدم الطاهر قبل أربعة عشر قرناً، فهي تشدّنا وتجدّد عندنا الجذوة في داخلنا. فنختصر الزمن لنطلّ على ذلك الدم الذي تمرّد على السيوف.

وعندما يشدّنا أهل البيت عليهم السلام إلى السجود على هذه التربة المقدّسة فذلك لنكون في ذكر دائم لها. وهذا هو الهدف من السجود على التربة، وإلاّ فإنه يسعنا أن نسجد على الأرض وما أنبتت إلاّ ما يؤكل أو يلبس كما دلّ عليه الدليل، فيمكننا السجود على ورق الشجر أو القرطاس وغير ذلك، لكن المرء

---

(١) وسائل الشيعة: ٥/ ٣٦٥ ـ ٣٦٧/ ب١٦.

(٢) الخلاف: ١/ ٤٩٦.

عندما يضع جبهته على تربة الحسين عليه السلام فإنه يشم عبير الحسين عليه السلام ويلمس في هذا التراب روح النخوة والبطولة والرجولة التي مثّلها (سلام الله عليه) في واقعة الطف، يقول أحد الأدباء:

دأبتُ أزورُك في كلّ عام ... وألثمُ تربَكَ يا بنَ النبي

ويا بن عليّ ويا بن البتول ... ويا بن ذرا المجد في يثرب

أترّب خدّي بعفر ثراك ... بحيث دماؤك لم تنضب

بحيث يلعلع ثغر أبي ... بأن يحتسى الذلّ في مشرب

وهامَ أبى للطغاة الرّكوع ... وإن فلقوا منه بالمضرب[1]

فالآلية الثانية التي شدّ فيها أهل البيت عليهم السلام شيعتهم ليكونوا على ذكر دائم لواقعة الطف هي السجود على التربة التي احتضنت هذا الدم الطاهر، والتي مثَّل عليها الحسين عليه السلام أروع ما يُمثَّل، فقد مثل الصبر، والمفاداة والتضحية والفناء في ذات الله. وقد شوهد وهو في آخر لحظاته يرمق السماء بطرفه ويقول: «لك العتبى يا رب، صبراً على قضائك، يا غياث المستغيثين، إن كان هذا يرضيك فخذ حتى ترضى»[2].

الآلية الثالثة ـ زيارة المشهد المقدّس لسيّد الشهداء عليه السلام:

فكتب الحديث حبلى بالروايات التي وردت في فضل زيارته عليه السلام، وكم ملأ أهل البيت عليهم السلام صفحات وصفحات عن جدّهم صلى الله عليه وآله في فضل هذه الزيارة! لقد كان أئمّة أهل البيت عليهم السلام يدفعون الناس دفعاً إلى زيارة الحسين عليه السلام، يقول

---

(١) ديوان المحاضر: ٢/ ٢٥.

(٢) شجرة طوبى: ٢/ ٤٠٩.

أحدهم: دخلت على الإمام الصادق عليه السلام، فسألني: «ممّن الرجل؟». قلت: سيدي من نواحي الكوفة. قال عليه السلام: «أتزور جدي الحسين عليه السلام في كل يوم؟» قلت: لا يا سيدي إني لا أستطيع ذلك. فقال عليه السلام: «تزوره، في كل أسبوع؟» قلت: لا. فقال عليه السلام: «تزوره في كل شهر؟» قلت: لا. فقال عليه السلام: «ما أجفاكم بالحسين عليه السلام!». ثم قال عليه السلام: «إن زيارة الحسين عليه السلام تدفع الحرق والغرق وتمحق الذنوب»[١].

ولهذا تجد الروايات تختلف باختلاف الزيارات فمنها: «من أحب أن ينظر إليه الله عز وجل، ويجعله في عداد الشهداء فليزر الحسين عليه السلام ليلة العاشر من المحرم»[٢].

ومنها زيارة النصف من شعبان[٣] والنصف من رجب[٤]، وزيارة الأربعين[٥] التي تعتبر من علائم الإيمان[٦].

ويكثر التساؤل عن أصل زيارة الأربعين، وسنة الزيارة بها، أي هل إنها كانت في السنة نفسها التي استشهد فيها الإمام الحسين عليه السلام، أو من بعد سنة من استشهاده؟ الأقرب بل الأصح أن هذه الزيارة تعود إلى ما بعد أربعين يوماً من السنة نفسها التي استشهد فيها الإمام الحسين عليه السلام، فقد ساروا بالسبايا الليل والنهار، ولم يعطوهم مجالاً للراحة إلا قليلاً، وهذا الطريق إلى الشام استغرق أربعين يوماً في الذهاب والإياب، ولم يمكثوا طويلاً في الشام لأن وجودهم

---

(١) كامل الزيارات: ٢٨٦ ـ ٢٩٠.
(٢) الإقبال بالأعمال الحسنة: ٣/ ٣٣٩.
(٣) الإقبال بالأعمال الحسنة: ٣/ ٢٣٧.
(٤) بحار الأنوار: ٩٨/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦/ ١.
(٥) مصباح المتهجد: ٧٨٧ ـ ٧٩٠/ ٨٥٧.
(٦) روضة الواعظين: ١٩٥.

هناك سبّب حرجاً كبيراً ليزيد وحركة ضده، ولذا اضطر إلى أن يخرجهم من المجلس إلى خربة، مما تسبب في موت الطفلة رقية بنت الحسين ﷺ، فقد كابدت وعثاء السفر ولم تستطع أن تحتملها، وكان أن تعرضت في الخربة إلى الشمس فماتت.

وقد أراد يزيد أن يرمم قليلاً مما حدث، فقال للنعمان بن بشير: أنت صاحب رسول الله ﷺ وأريد أن تأخذ معك ثلاثين رجلاً، وترجع بهؤلاء السبايا إلى مأمنهم. ثم جاء إلى الإمام السجاد ﷺ وطلب منه بعض الأشياء، فلم يستجب له الإمام ﷺ، ثم تهيئوا في هذه السنة نفسها إلى زيارة الإمام الحسين ﷺ، فخرج الإمام ﷺ من الشام في طريقه إلى العراق، وتحرك جماعة من بني هاشم والعلويين من المدينة في طريقهم إلى كربلاء.

يقول السيد ابن طاووس وأبو مخنف: إن الإمام زين العابدين ﷺ التقى بجماعة من العلويين الذين جاؤوا إلى الزيارة.

وقد روي عن الأعمش عن عطية أنه قال: صحبت جابر بن عبد الله الأنصاري في السنة التي قتل فيها الحسين ﷺ إلى كربلاء نريد زيارة الحسين ﷺ، فأقبلنا نسير بالليل ونكمن بالنهار ـ وهذه العبارة توحي أن السير بالليل كان إما تجنباً للحر أو خوفاً، لأن الأمويين وضعوا الرصد كيلا يصل أحد إلى قبر الحسين ﷺ ـ إلى أن وصلنا إلى كربلاء، فقال لي جابر: يا عطية، دلني على الفرات. فأخذت بيده إلى الفرات، فاغتسل، وأخرج صرة من السعد كانت معه، فنثره على بدنه ولبس ثياباً جدداً، ثم خلع نعليه، وجاء يمشي حافياً على التراب، وقال لي: ألمسني القبر.

يقول عطية: فأتيت به إلى القبر الشريف ووضعت يده عليه، فلما أحسّ ببرد تراب القبر صاح: «يا حسين يا حسين يا حسين»، ثم قال: «حبيب لا يجيب حبيبه، وأنى لك بالجواب وقد شخبت أوداجك على أثباجك. وفُرّق بين

رأسك وبدنك؟ أشهد أنك من دعائم الدين وأركان المسلمين، وابن سيد النبيين وابن سيد الوصيين، وابن سيد المؤمنين، وابن حليف التقوى وسليل الهدى، وخامس أصحاب الكساء، وابن سيد النقباء، وابن فاطمة سيدة النساء. وما لك لا تكون هكذا وقد غذتك كف سيد المرسلين وربيت في حجر المتقين، ورضعت من ثدي الإيمان، وفطمت بالإسلام؟

فطبت حياً وطبت ميتاً غير أن قلوب المؤمنين غير طيبة لفراقك ولا شاكة في الخير لك، فعليك سلام الله ورضوانه. وأشهد أنك مضيت على ما مضى عليه أخوك يحيى بن زكريا».

ثم جال ببصره حول القبر وقال: «السلام عليكم أيها الأرواح التي حلّت بفناء الحسين وأناخت برحله، أشهد أنكم أقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، وجاهدتم الملحدين، وعبدتم الله حتى أتاكم اليقين. والذي بعث محمداً بالحق لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه».

قال عطية: فقلت لجابر: وكيف، ولم نهبط وادياً، ولم نعلُ جبلاً، ولم نضرب بسيف، والقوم قد فُرّق بين رؤوسهم وأبدانهم، وأيتمت أولادهم، وأرملت الأزواج؟ فقال لي: يا عطية، سمعت حبيبي رسول الله ﷺ يقول: «من أحب قوماً حشر معهم، ومن أحب عمل قوم أشرك في عملهم». والذي بعث محمداً بالحق نبياً، إن نيتي ونية أصحابي على ما مضى عليه الحسين عليه السلام وأصحابه.

يقول عطية: وبينما أنا أحاور جابراً إذ نظرت إلى سوادة أقبلت من ناحية الشام، وكان ذلك الركب الذي جاء به الإمام السجاد عليه السلام والسبايا، فصار على مفترق طرق، إما أن يذهب في طريق المدينة أو يرجع إلى الطريق الذي يؤدي إلى كربلاء، فأدار الإمام عليه السلام وجهه إلى عمته زينب عليها السلام، فرأى أنها متوجهة إلى الدليل، ثم قالت للإمام عليه السلام: يا بن أخي، قل للدليل فليعرج بنا على كربلاء.

فقال له الإمام عليه السلام: «مِل بالركب إلى كربلاء». فأقبل إلى كربلاء. فلما نظر

إليه عطية كرّ مهرولاً، وأقبل إلى جابر وقال له: يا جابر، قم واستقبل حُرَمَ رسول الله، هذا الإمام زين العابدين عليه السلام قد رجع.

يقول أبو مخنف: فقام جابر وقام معه جماعة من العلويين فالتقوا الإمام السجاد عليه السلام، فجدّدوا الأحزان وسكبوا الدموع.

ولما وقع بصر الإمام عليه السلام على جابر قال: «جابر هذا؟». قال: نعم. قال: «يا جابر، ها هنا قتلت رجالنا، يا جابر ها هنا ذبحت أطفالنا، يا جابر ها هنا سبيت نساؤنا، يا جابر ها هنا أحرقت خيامنا»[1].

أما الحوراء زينب عليها السلام فقد هرولت إلى قبر الحسين عليه السلام، فألقت بنفسها عليه:

خويه من السير توني لفيتك   أربعين ليلة فارگتك

تحت الثرى مرمي لگيتك

احتضنت التراب وهي تنادي: والوعتاه، واحسيناه، واعزيز رسول الله. ثم طافت على القبور بأجمعها، وقامت تقلّب طرفها، فلم تُبقِ قبراً إلا جالت حوله، ولسان حال الإمام السجاد عليه السلام: أنا أعرف عن أي قبر تبحثين. قالت: بلى، دلّني على قبر ابن والدي، فأخذ بيدها إلى نهر العلقمي، عند قبر أبي الفضل العباس عليه السلام فأقبلت إليه:

لونه اللحد ينكشف بابه   لجيمن عليه وانگل اترابه

أصِل للولي واسمع جوابه   أعاتبه وأكثر اعتابه

* * *

الي مناشده وياك وعتاب   يمنوّخ الهودج على الباب

---

(١) بشارة المصطفى: ١٢٥ ـ ١٢٦/ ٧٢.

اليوم الحادي عشر

تأبين الإمام الحسين عليه السلام

كـذب الـمـوت فـالـحـسـيـن مـخـلّـد
كـلـمـا أخـلـق الـزمـان تـجـدد

المباحث العامة في الموضوع

المبحث الأول ـ العمر قسمان: زمني وعمر مجدٍ:

للعظماء عمران، عمر زمني وعمر مجدٍ، فرسول الله صلى الله عليه وآله عمّر في الحياة (٦٣) سنة، لكنه حمل رسالة هي أكبر من الحياة، فالمسألة ليست مسألة عمر زمني. وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام عمّر (٦٣) سنة، لكنه حمل ما هو أكبر من الحياة أيضاً.

إذاً لو قدّر أن الحسين عليه السلام لم يمت في صبيحة هذه الليلة، فما مقدار المدة التي يمكن أن يبقى فيها على قيد الحياة؟ لنفترض أنه عليه السلام سيبقى عشرة أعوام أو عشرين عاماً بعدها، لكنه سوف يموت موتاً صامتاً، فإذا كانت المسألة مسألة موت فإن الحسين عليه السلام سيموت حينئذٍ بصمت، ويمر في هذه الدنيا مروراً هادئاً وصامتاً، لكن مصرعه عليه السلام قدم دوياً لا يتوقف إلى يوم القيامة وقد أوجد

ﷺ هذا الدوي بسبب الشهادة، وبموته بشكل طبيعي لن يحدث مثل هذا الدوي. ولا شك أن هناك فارقاً كبيراً بين من يموت عن سبعين عاماً بهدوء، وبين من يموت مبكراً على درب الشهادة، يقول الشاعر:

قد تطول الأعمار لا خير فيها ... ويوْمَ الأمجاد يومٌ قصير

ويهذا يبقى يوم الطف يتوالد على امتداد السنين، وينتزع المجد انتزاعاً، وسيبقى يزوّد الأقلام بمداد حرّ كلما عاودته وجدت فيه عطاءً جديداً، لأن عطاء يوم الطف مستمر لا يتوقف، فهو عطاء قُصد منه وجه الله تعالى، وسيبقى بذلك خالداً على مر الدنيا.

فالحسين ﷺ كان ينظر إلى التاريخ وإلى الدنيا، وقد تجلّى له ما وراء الحجب، فأدرك أنه يستمد امتداد الدهر، وأدرك أن تضحيته لن تنتهي في ليلتها، خلاف الأمويين الذين كانوا يعتقدون أن صوته سوف يُقتل مع مقتله، لكنه ﷺ كان عكس ذلك، فسال دمه على التراب، فانبعث تارة خطبة على الألسن، وتارة فكرة في رؤوس الأحرار، وتارة سيفاً مجرّداً لمقارعة الظلم بأيدي المناضلين من أجل حريتهم، وسيبقى يتبرعم كلما امتدت الدنيا. وسنبقى نسمع الحسين ﷺ صوتاً في كل بعد من أبعاد هذه الحياة وفي كل خطوة من خطاها وهذا أحد أبعاد نهضته ﷺ، وفي ذلك يقول أحد الأدباء:

ورأيتك الفكر الحصيف يشق أسـ ... ـتار الغيوب ويستفيق بعيدا

فإذا أراق اليوم زاكية الدما ... فغداً سترفعها الشعوب هنودا

وفعلاً تمر الدنيا ولا تستطيع أن تجتاز هذا الدم.

وقد يتساءل أحد ما: لماذا هذا الاهتمام بهذا الرجل، وهناك غيره ممن قدّم ما يستطيع أيضاً؟

والجواب: إن الحسين عليه السلام قدّم عطاءه لوجه الله تعالى ولم يُشبه بشائبة أو بشيء، ولم نسمع من الحسين عليه السلام ولو إيماءة واحدة ارتبطت بهذا العطاء تشير إلى أنه عليه السلام أشرك به أحداً غير وجه الله تعالى. وهذا هو ما بشّرت به أخت الحسين عليه السلام وشريكته زينب (سلام الله عليها) يوم وقفت تقارع الظلم والطغيان، وهي تقول في مجلس الطاغية: «كِد كيدك، واسعَ سعيك، وناصب جهدك، والله لا تميت وحينا. وهل رأيك إلا فند، وجمعك إلا فدد، وأيامك إلا عدد، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين؟»[1].

وبشيء من الانتباه ندرك أن نهضة الحسين عليه السلام هي امتداد لنهضة الإسلام، لأن المبادىء التي حملها الإسلام، هي نفسها التي حملها الحسين عليه السلام. وبكلام آخر إن البذرة التي بذرها الإسلام وسقاها الرسول صلى الله عليه وآله وآل بيته عليهم السلام وصحابته (رضوان الله عليهم) من دمهم الطاهر هي البذرة عينها التي سقاها الحسين عليه السلام وأصحابه (رضوان الله عليهم) بعد ذلك من دمه الزاكي ودمائهم الطاهرة.

المبحث الثاني ـ الوقوف على ضريح الحسين عليه السلام استيحاء للحق:

وقف الحسين عليه السلام في هذه الليلة وهو يرمق السماء من بعيد، فهو يعرف أن الأمويين سوف يكمّون الأفواه الباكية، لكنه عليه السلام كان يدرك أن دمه حين يراق على التراب فسوف تنطق الأفواه وتنطلق الأصوات وتنهض الحمم. وفعلاً سمعنا أصوات الأدباء والمفكرين وهي تتناول واقعة الطف بالتحليل والإكبار والإجلال حتى وصلت درجة حاول الظالمون معها أن يطمسوا معالم واقعة الطف من التراث الإنساني، لكنهم انهزموا أمامها وخلدت. فمثلاً، في القرن الرابع الهجري. كانت القاهرة تتجلل بالسواد في اليوم العاشر من المحرم، من

---

(١) بحار الأنوار: ٤٥/ ١٣٥.

الصباح إلى المساء، وكذلك في ديار بكر وربيعة وقسم من الموصل وقسم من تركيا، وكان العراق في أيام البويهيين كذلك، وإيران، إضافة إلى باقي البلاد الإسلامية.

وقد وصل الأمر إلى أن قبر الحسين عليه السلام أخذ يرعب الظالمين، فمن المعروف أن الناس تخاف من الأحياء، لكن الأمويين والعباسيين كانوا يخافون من قبره، فكم حاولوا أن يحولوا بين الناس وبين وقوفهم على قبره لأن الوقوف على قبره بنظرهم استيحاء، غير أن الناس كانوا يقطعون آلاف الأميال من أجل الوقوف ولو للحظات على قبره الشريف، فما هو السبب؟

إن الوقوف على قبره الشريف، هو وقوف تعظيم للقيم وليس للتراب، قد أعطى الحسين عليه السلام أمثلة رائعة في النبل والشجاعة والصبر، وإلا قل لي بربك: أي فم يدعو لقاتله غير فم الحسين عليه السلام، ومن قبله أفواه الأنبياء عليهم السلام؟ فقد وقف الحسين عليه السلام ودموعه تتقاطر على خديه، مما حدا بأخته عليها السلام أن تسأله: «لم تبكي؟». قال: «أبكي لهذا الجيش الذي سيدخل النار من أجلي».

نعم، هذه النفس المقدسة التي تتعالى على الحقد، وهو نمط من أنماط المُثل التي جسدها الحسين عليه السلام على صعيد كربلاء.

وقد جسد الصبر أيضاً، ولم نسمع عن أحد يقف على مصرع عزيز له إلا وينهار، ومن ذلك ما روي من أن الشاعر أبا ذؤيب الهذلي، وهو من الشعراء المعروفين بالصلابة ـ وقف على ثلاثة من أولاده قد فقدهم في أحد المعارك، فقال قصيدته:

أمن المنون وريبه نتوجّع ... والدهر ليس بمعتبٍ من يجزعُ

أودى بني فأعقبوني حسرة ... عند الرقاد وعبرة لا تقطع

سبقوا هواي وأعنقوا لهواهم ... وتخرّموا ولكل جنب مصرع

فالعين بعدهم كأن جفونها كُحلت بشوكٍ فهي عورا تدمع

إلى أن قال:

وتجلدي للشامتين أريهُمُ أني لريب الدهر لا أتضعضع[١]

ولكنه في الأخير سقط متهالكاً على التراب لا يقوى على القيام، ثم عمد إلى النياق وذبح فصائلها أمام أعينها، وذبح كل حيوان عنده في الحظيرة، ليوجد مشهداً من الألم أو يتسنى له أن يوجد من يتألم معه في ذلك المشهد. لكن الحسين عليه السلام وقف صبوراً في محنته، ولله در السيد حيدر الحلي إذ يقول:

له الله مفطوراً من الصبر قلبه ولو كان من صُمّ الصفا لتفطّرا

ومنعطفاً أهوى لتقبيل طفله فقبّل منه قبله السهم منحرا[٢]

نعم، لقد راح يقدم الضحايا من أجل مبدئه، لكن هل بدرت منه بادرة تنمّ عن الألم؟ وإن كان فليس إلا بضع قطرات من الدمع قد غُلب بها في مصرع أو مصرعين، لكن أكثر من هذا لا شيء، وظلّ عليه السلام يقدم الضحية تلو الضحية، ويذهب إلى الخيمة، ثم يرمق السماء بنظره ويقول: «لك العتبى يا رب، صبراً على قضائك، يا غياث المستغيثين، إن كان هذا يرضيك فخذ حتى ترضى»[٣].

إذاً الحسين عليه السلام قدّم دروساً في الصبر في واقعة الطف، كما قدّم تلك الروح الحريصة على ألا يدخل أحد ما بسببها النار، فالدارسون لتاريخ هذه الواقعة يقولون: إنه عليه السلام استدعى عمر بن سعد في مثل هذه الليلة، ووقف إلى جانبه قائلاً: «أتزعم أنك تقتلني ويوليك الدعي ابن الدعي ملك الري؟ والله لا

---

(١) الكنى والألقاب: ١/ ٧٦.

(٢) ديوان السيد حيدر الحلي: ١/ ٧٨.

(٣) شجرة طوبى: ٢/ ٤٠٩.

تتمتع بعدي ببر العراق إلا قليلاً». فقال له عمر: أخشى أن يأخذ ابن زياد أموالي. فقال له الحسين عليه السلام: «أنا أعوضك عنها». قال ابن سعد: أخشى أن يهدم داري. فقال له عليه السلام: «أنا أبني لك خيراً منها»[1].

وعرف الحسين عليه السلام أن نفس هذا الرجل منحدرة إلى الهاوية، لأنها نفس تخرج من أجل أن تكسب سخط الله.

ودعونا الآن نسأل عمر بن سعد: لمن أصبح ملك الري أخيراً، لك أم للحسين عليه السلام؟ والجواب: إن ملك الري صار للحسين عليه السلام، فالري يحمل الليلة راية الحسين عليه السلام، وتنطلق منه أصوات تمجده (سلام الله عليه). أما القلوب القاسية عن ذكر الحسين عليه السلام فهي قلوب محرومة من هذا العطاء. وعلى ذلك لا يتصوّر أحد أن الحسين عليه السلام هو للشيعة فقط، بل هو للإنسانية جميعاً، فقد قاتل من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا، فهو مفخرة لكل مسلم. وهكذا يجب أن يحمل الحسين عليه السلام قلب كل مسلم، إجلالاً لهذا الدم الطاهر الذي سُفك في واقعة الطف، وإلا ما الذي يدفع الحسين عليه السلام لأن يقدّم تلك التضحية؟ هل كان يريد أموالاً؟ لا، فعنده من أموال أبيه ما يكفيه حيث ترك عليه السلام له عينين واردهما السنوي أكثر من نصف مليون دينار، وإذا كان يريد أموالاً فهي تأتيه من الشرق والغرب.

هل كان يطلب كرسياً؟ الحسين عليه السلام أكبر من أن يطلب كرسياً لا يلبث أن يتلاشى بعد أيام قليلة، وإلا فإلى أين انتهى كرسي يزيد، هل له من أثر؟ لكن الآن للحسين عليه السلام عرش في النفوس والقلوب والضمائر.

وهذا هل كان من أجل المنزلة؟ لا، فالرسول صلى الله عليه وآله أصّل منزلته في النفوس

---

(١) بحار الأنوار: ٤٥/ ١٠.

حينما اعتبره جزءاً منه: «حسين مني وأنا من حسين»[1]، وكل مسلم يسمع قولة رسول الله ﷺ ويتراءى له شبحه، وهو يحمل الحسين عليه السلام على صدره لا بدَّ أن يعي هذا. فالعرش الذي احتله الحسين عليه السلام هو صدر النبي ﷺ، ومشاعره ﷺ هي مكان الحسين عليه السلام. فحريّ بكل مسلم أن يحمل الحسين عليه السلام بين حناياه.

في مثل هذه الليلة طلب الحسين عليه السلام من المعسكر الأموي أن يؤجلوا المعركة لكي يؤكد خطه الذي خطّه له القرآن، إذ كان قد زحف إليه عصر اليوم التاسع، وأمامهم منادٍ ينادي: يا خيل الله اركبي، وبالجنة أبشري. وهرع الجيش يحيط بالحسين عليه السلام وهو محتدم، ورأته زينب يحيط بأخيها عليه السلام، وكان محتبياً بسيفه، وقد خفق برأسه على ركبتيه، فجاءته وربتت على كتفه، فأحس بهذه اليد الحانية، فقال: «أخيّة زينب!». فقالت له: «فداؤك زينب يا بن أمي، جاءك القوم وأنت تسبت نعاساً أما تسمع الأصوات قد اقتربت؟». فرفع الحسين عليه السلام رأسه فقال: «إني رأيت رسول الله ﷺ الساعة في المنام فقال لي: إنك تروح إلينا». ثم قال له العباس عليه السلام: يا أخي أتاك القوم. فنهض ثم قال: «يا عباس، اركب ـ بنفسي أنت يا أخي ـ حتى تلقاهم وتقول لهم: ما لكم؟ وما بدا لكم؟ وتسألهم عما جاء بهم».

فأتاهم العباس عليه السلام وقال لهم: ما بدا لكم وما تريدون؟ قالوا: جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه أو نناجزكم. قال: فلا تعجلوا حتى أرجع إلى أبي عبد الله عليه السلام فأعرض عليه ما ذكرتم. فوقفوا وقالوا: القه فأعلمه، ثم القَنا بما يقول لك. فانصرف العباس راجعاً يركض إلى الحسين عليه السلام يخبره الخبر، فقال عليه السلام: «ارجع إليهم فإن استطعت أن تؤخرهم إلى الغدوة

---

(١) المستدرك على الصحيحين: ٣/ ١٧٧.

وتدفعهم عنا العشية، لعلنا نصلي لربنا الليلة وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أني أحب الصلاة له وتلاوة كتابه والدعاء والاستغفار».

فمضى العباس إلى القوم ورجع من عندهم ومعه رسول من قبل عمر بن سعد يقول: إنا قد أجّلناكم إلى غد، فإن استسلمتم سرّحناكم إلى أميرنا عبيد الله ابن زياد، وإن أبيتم فلسنا تاركيكم.

فوضّح الحسين عليه السلام في تلك الليلة من قوله: «أحب الصلاة له وتلاوة كتابه والدعاء والاستغفار» أنه في خط الصلاة وخط القرآن، وأن الطرف المقابل جاء ليذبح الصلاة والقرآن يذبحه هو، وإلا فالعترة والقرآن لن يفترقا، والاعتداء على أحدهما اعتداء على الآخر، أليس قولة الرسول صلى الله عليه وآله: «إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[1] تتردد على كل الأفواه؟.

بات الحسين عليه السلام وأصحابه ولهم دوي كدوي النحل، بين قائم وقاعد وراكع وساجد، يقول السيد حيدر الحلي:

سمة العبيد من الخشوع عليهم ... لله إن ضمتهم الأسحار

فإذا ترجلت الضحى شهدت لهم ... بيض الصوارم أنهم أحرار[2]

وإلى جانب ذلك كانت هناك اهتمامات أعطى لها الحسين عليه السلام من وقت هذه الليلة، ولعل من أهمها هو ألا يخمد صوت الثورة بعد قتله، وتعيير الصوت الذي يقوم بهذه المهمة، وهي أخته زينب (سلام الله عليها)، يقول السجاد: «إني لجالس في تلك العشية التي قتل أبي في صبيحتها، وعندي عمتي زينب تمرّضني، إذ اعتزل أبي في خباء له، وعنده جوين مولى أبي ذر الغفاري وهو يعالج سيفه ويصلحه وأبي يقول:

---

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢.

(٢) ديوان السيد حيدر الحلي: ٨٢.

يـا دهـر أفّ لـك مـن خـلـيـل ... كـم لـك بـالإشـراق والأصـيـل

مـن صـاحـب أو طـالـب قـتـيـل ... والـدهـر لا يـقـنـع بـالـبـديـل

وإنـمـا الأمـر إلـى الـجـلـيـل ... وكـل حـي سـالـك سـبـيـلـي

فأعادها مرتين أو ثلاثاً حتى فهمتها وعرفت ما أراد، فخنقتني العبرة فردّدتها ولزمت السكوت، وعلمت أن البلاء قد نزل، وأما عمتي فإنها سمعت ما سمعت وهي امرأة، ومن شأن النساء الرقة والجزع، فلم تملك نفسها أن وثبت تجرّ ثوبها حتى انتهت إليه فقالت: واثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت أمي فاطمة وأبي علي وأخي الحسن، يا خليفة الماضي وثمال الباقي، فنظر إليها الحسين عليه السلام وقال لها: يا أخية، لا يذهبن بحلمك الشيطان وترقرقت عيناه بالدموع وقال: ولو ترك القطا لناما.

فقالت: يا ويلتاه، أفتغتصب نفسك اغتصاباً؟ فذاك أقرح لقلبي وأشدّ على نفسي. ثم خرّت مغشياً عليها، فقام إليها الحسين عليه السلام فصب على وجهها الماء وقال لها: يا أختاه، اتقي الله وتعزي بعزاء الله، واعلمي أن أهل الأرض يموتون، وأهل السماء لا يبقون، وأن كل شيء هالك إلا وجه الله الذي خلق الخلق بقدرته، ويبعث الخلق ويعودون، وهو فرد وحده. أبي خير مني، وأمي خير مني، وأخي خير مني، ولي ولكل مسلم برسول الله صلى الله عليه وآله أسوة. فعزّاها بهذا ونحوه وقال لها: يا أخية إني أقسمت فأبري قسمي، لا تشقي عليّ جيباً، ولا تخمشي عليّ وجهاً، ولا تدعي عليّ بالويل والثبور إذا أنا هلكت»[1].

أي لا تنسي رسالتك الأساسية.

---

(١) الإرشاد: ٢/ ٩١ ـ ٩٢.

وفعلاً قامت (سلام الله عليها) بذلك الدور الخطير، مرّت بالكوفة ورفعت صوتها، وفي السبي رفعت صوتها، ودخلت مجلس عبيد الله ورفعت صوتها، ودخلت مجلس يزيد ورفعت صوتها، وناهيك به من صوت: «أظننت يا يزيد، حين أخذت علينا أقطار الأرض، وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى، أن بنا على الله هواناً، وبك عليه كرامة، وأن ذلك لعظم خطرك عنده فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك جذلان مسروراً، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا؟ فمهلاً مهلاً، أنسيت قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾[1]»[2].

لقد خُلّد هذا الصوت ـ صوت زينب عليها السلام ـ وانطفأ صوت الأمويين، وقا لعبت عليها السلام الدور نفسه لدى خروجها إلى المدينة، ولذلك أبعدوها ثانية إلى الشام، وقد بقيت على مر التاريخ الصوت الذي يعرف بتلك النهضة، وهو م أراده الحسين عليه السلام منها تلك الليلة، كما نقله الإمام زين العابدين عليه السلام فيما مر ب قبل قليل من أنه عليه السلام اختلى بها وحدّثها، يقول أحد الشعراء:

وضعناك في الأعناق حرزاً وإنما ... خلقت لتمضي كالحسام فتشر

وصغناك من دمعٍ وتلك نفوسنا ... نصوّرها لا أنت إنك أرفـ

المبحث الثالث ـ صراحة الحسين عليه السلام مع أصحابه ومواقفهم المشرّفة:

كما أنه عليه السلام أكد في تلك الليلة أمراً آخر، هو الصراحة بالرأي وعـ الالتواء الفكري، لئلا يتصور أحد أنه خرج بجماعة مخدوعين توهّموا أنـ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف: ١٠٦.

سيحصلون على مكاسب وإنجازات، فوضعهم الحسين عليه السلام أمام الصورة الواقعية للأمر، يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «أما بعد، فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني خيراً، ألا وأني لأظن أنه آخر يوم لنا من هؤلاء، ألا وإني قد أذنت لكم، فانطلقوا جميعاً في حل ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً».

فقال له إخوته وأبناؤه وبنو أخيه وابنا عبد الله بن جعفر: لِمَ نفعل ذلك؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً، وأتبعتهم جماعة فتكلموا بمثل ما قالوا، فقال الحسين عليه السلام: «يا بني عقيل، حسبكم من القتل بمسلم، فاذهبوا أنتم فقد أذنت لكم». قالوا: سبحان الله، فما يقول الناس؟ يقولون: إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام، ولم نرمِ معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف، ولا ندري ما صنعوا، لا والله ما نفعل ذلك، ولكن تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبّح الله العيش بعدك.

وقام إليه مسلم بن عوسجة رحمه الله فقال: أنخلّي عنك ولمّا نعذر إلى الله سبحانه في أداء حقك؟ أما والله حتى أطعن في صدورهم برمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمة في يدي. ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة، والله لا نخليك حتى يعلم الله أن قد حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله. والله لو علمت أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق ثم أحيا ثم أذرى، يفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً؟

وقام زهير بن القين رحمه الله فقال: والله لوددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت

حتى أقتل هكذا ألف مرة، وأن الله تعالى يدفع بذلك القتل عن نفسك، وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك.

وقام إليه محمد بن بشير الحضرمي رحمه الله فقال له: أُسر ابني بثغر الري فما أحب أن أبقى بعده حياً. فقال له الحسين عليه السلام: «أنت في حلّ من بيعتي». ثم أخرج له من الخيمة خمسة ثياب، وقال له: «اعمل على فكاك ابنك». فقال له: أكلتني السباع حياً إن فارقتك يا بن رسول الله[1].

وتكلم جماعة أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد، فجزاهم الحسين عليه السلام خيراً وانصرف إلى مضربه.

يقول هلال بن نافع رحمه الله: كنت أتولى حراسة خباء الحسين عليه السلام، وكنت أمسك مقبض سيفي عندما رأيته (سلام الله عليه) قد تخلل من خباء أخته زينب، فتبعته وهو يدور حول المخيم، فلما سمع وقع أقدامي التفت وقال: «من؟» قلت: هلال. قال: «ما الذي أخرجك في جوف هذا الليل؟». قال: خفت أن يتبعك أحد من أفراد الطاغية، فحمدني، وقال: «خرجت أتفقد هذه التلال والتلاع مخافة أن تكون مكفّاً لهجوم الخيل يوم تحملون ويحملون».

ثم أخذ يطوف في المخيم، ولما صار بباب الخيمة أخذ بيدي وقال: يا هلال، هذا الليل سفير، والوقت غير أثير، والطريق غير خطير، وأنت في حل من بيعتي فانصرف، وخذ بيد من أحببت.

فقال هلال: سيدي، إن سيفي بألف، وفرسي بألف، والذي منّ عليك بهذا الموقف لا أتركك حتى يكلاّ عن جري وفري، فقال لي: «جزاك الله خيراً». وفارقني ودخل خيمة أخته زينب، فسمعتها تقول له: «أخي هل

(١) الإرشاد: ٢/ ٩٢.

استعلمت من أصحابك نياتهم؟ إني أخاف أن يسلموك عند الوثبة واصطكاك الأسنة». فقال: «أخية، والله، لقد بلوتهم فما وجدت فيهم إلا الأشوس الأقعس[١]، يستأنسون بالمية دوني استئناس الطفل إلى محالب أمه»[٢].

فلما سمعت ذلك حبست سيفي وقلت: أي والله. وذهبت إلى مخيم الهاشميين، فسمعت همهمة، وإذا بالعباس ابن أمير المؤمنينعليه السلام يكلم إخوته من بني هاشم وهو يقول: «إخوتي وأهل بيتي، لم يبقَ على لقاء القوم إلا سواد هذه الليلة، والحمل لا ينهض به إلا أهله، فإذا أصبح الصباح أتبدؤون أنتم بالقتال، أم تدعون أصحابكم يبتدئونه؟». فانتفضوا وحملوا سيوفهم بين أيديهم، وقالوا: «إنك تعلم أنا ما خرجنا مع سيدنا الحسينعليه السلام إلا لنقاتل دونه حتى نقتل، ونحن أهل الحمل الثقيل ولا ينهض بالحمل إلا أهله». فاطمأن قلبي لذلك.

(١) الأقعس: الثابت العزيز المنيع، وتقاعس العز أي ثبت وامتنع ولم يطأطأ رأسه وتقعست الدابة: ثبتت فلم تبرح مكانها لسان العرب: ٦/ ١٧٧ ـ قعس.
(٢) الدمعة الساكبة: ٤/ ٢٧٢.

الليلة الأربعون

اصطفاء أهل البيت عليهم السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول ـ في معنى الاصطفاء:

الاصطفاء: هو الانتقاء والتفضيل، أي أن الإنسان أو المصطفي عامة يختار من يريد لهدفه الذي يصنعه. وهو فعل يتعدى على نحوين: فتارة يتعدى بـ(من) وتارة يتعدى بـ(على)، فتعديه بـ(من) مثاله قولنا: اصطفاه من الناس ـ أي اختاره منهم ـ ومثال تعديه بـ(على) قولنا: اصطفاه عليهم، أي فضله عليهم. والآية مقام البحث من المعنى الثاني. فقالت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي فضّلهم على العالمين.

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٣٣ ـ ٣٤.

وهنا أمر ينبغي التأكيد عليه هو أن في الآية قراءة أخرى ينقلها أبو حيان التوحيدي في تفسيره (البحر المحيط) فيقول حينما يصل إلى هذه الآية: (إن في الآية قراءتين: إحداهما عن أهل البيت النبوي، والأخرى عن ابن عباس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ بإضافة (آل محمد).

والواقع أن هذه الزيادة حتى ولو لم تكن موجودة إلا أن آيات أخرى تتناول هذه المنزلة العظيمة لهم وتعطيهم إياها، وسنشير إلى بعضها إن شاء الله. غير أن الذي أود قوله هو أننا لا نصر على هذه الزيادة أو هذه القراءة، لأننا لا نريد أن يكون في القرآن شيء زيادة عما هو مرسوم في المصحف المتداول بين الناس، وهو المعبّر عنه بـ«ما بين الدفتين»، فليس هناك رأي عندنا يُعتمد عليه يقول بالزيادة أو النقيصة في القرآن (معاذ الله)، بل حتى الشيخ الكليني(قدس سره) الذي يُنقل عنه أن عنده روايات في (الكافي)[1] توهم التحريف، فإن ذلك النقل لا يعدو أن يكون حملات كبيرة ضده، وإلا فإن الشيخ ﷺ في (الكافي) يضع شرطاً في مقدمته يقول فيها: «فاعلم يا أخي أرشدك الله، أنه لا يسع أحداً تمييز شيء مما اختلف الرواية فيه عن العلماء برأيه إلا على ما أطلقه العالم ﷺ بقوله: «اعرضوها على كتاب الله. فما وافق كتاب الله عز وجل فخذوه، وما خالف كتاب الله فردوه». . .»[2] فروايته لهذه الأحاديث من باب التاريخ للرواية والأمانة ﷺ لا يذهب إلى التحريف أو حاشاه من ذلك وكذلك ليس عندنا من يذهب إلى التحريف.

---

(١) الكافي: ١/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩.
(٢) الكافي: ١/ ٨.

هل يقول أهل السنة بالتحريف؟:

وأحب أن أشير هنا إلى أمر هو أن أحدهم قبل فترة تحدّاني في إحدى المجلات حيث قال: «أتحدى أن يجد الوائلي قولاً لأهل السنة بالتحريف»، وأنا أقول: إني على استعداد لأن أعطيه مئة قول في ذلك وليس قولاً واحداً مع إرشاده إلى مصادر ذلك إن أحب. ولعل أبسط المصادر وأقربها هو كتاب (الإتقان) للسيوطي في باب عدد سور القرآن وآياته وحروفه حيث ينقل عن الخليفة الثاني رأياً مفاده أن عدد حروف القرآن يبلغ مليوناً وسبعة وعشرين ألف حرف[١]. ومعنى هذا أن القرآن الذي يذهب إليه الخليفة الثاني قد ضاع ثلثاه لأن ما هو موجود في القرآن الحالي يقرب من ثلث هذا العدد. وكذلك قرآن أبي فإن عدد السور فيه مئة وست عشرة سورة، في حين أن إجماع علماء المسلمين على أن عدد سور القرآن مئة وأربع عشرة سورة، وهاتان السورتان يرى أنهما لم تكتبا، وأنهما قد سقطتا ويسميهما سورة (الخلع) وسورة (الحفد)، وكان يقنت بهما أبي والخليفة الثاني نفسه[٢]، وهذا الأمر موجود ومنصوص عليه.

وكمثال آخر سورة (براءة) فقد روى الهيثمي في (مجمع الزوائد)[٣] والحاكم في (المستدرك)[٤] أن حذيفة قال: تسمون سورة التوبة هي سورة العذاب وما يقرؤون منها مما كنا نقرأ إلا ربعها.

وغيرها كثير، وأنا مستعد لأن أرشد هذا المتحدي إلى عشرات المصادر

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: ١/ ١٩/ ٩٧١.
(٢) الإتقان في علوم القرآن: ١/ ١٧٩/ ٨٣٢، ١٧٨/ ٨٤٣.
(٣) مجمع الزوائد: ٧/ ٢٨.
(٤) المستدرك على الصحيحين: ٢/ ١٣٣.

التي تنقل وقوع التحريف، مع أني حينما أرشد إلى هذه المصادر لا أقصد من هذا أني أؤكد أن المذاهب الإسلامية الأخرى تتبنى وقوع الزيادة في القرآن، حاشا فنحن لا نهرّج في هذا وأمثاله، إذ ليس ذلك من أسلوبنا، بل إني أحاول أن أشير إلى نقطة هي أن بعض أتباع هذه المذاهب حتى ولو أخبره الله على لسان أنبيائه بأن هؤلاء (الشيعة) ليس لهم غير هذا القرآن الذي هو عند عامة المسلمين يتداولونه قراءة وتفسيراً لاعترض عليه وعليهم ناسباً إياهم إلى الاشتباه. ومثل هؤلاء المغرضين قد جعلوا هذا التشنيع والتشهير وسيلة يعتاشون بها، لكن على رغم أنوف هؤلاء ستبقى وحدة الصف الإسلامي قائمة متماسكة، وهؤلاء الذين يريدون أن يعيشوا على أنقاض الوحدة الإسلامية فإن ربك لهم بالمرصاد.

أعود إلى موضوع البحث فأقول: إن مثل هذه الزيادة لا تثبت في القرآن ولم تثبت عندنا مع أنها موجودة في الرواية، فضلاً عن أننا لم نكن الراوين لها بل غيرنا هو الذي يرويها ويثبتها. ونحن نقول إن أهل البيت ﷺ ليسوا بحاجة إلى إثبات أن هذه القراءة لهم أو غيرها كي نثبت تفضيلهم على الناس واصطفاءهم من الله جل وعلا، بل نقول: إن آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1] تكفيهم في المقام. وأما الادعاءات الأخرى فإنها تطرح ولا حاجة بنا إليها، فإن أهل البيت ﷺ لهم مكانتهم المؤطّرة في قلوب محبيهم وهي مكانة مستمدة من القرآن والسنة والواقع.

المبحث الثاني ـ لماذا اصطفى الله من ورد ذكرهم في الآية؟:

ولنبيِّن لماذا اصطفى الله هؤلاء المذكورين على الناس وفضّلهم عليهم، فلا

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

بدَّ من سبب يوجب ذلك الاصطفاء ومن وجود مزية فيه غير موجودة في غيره، وإلا فإن الترجيح بلا مرجح باطل ضرورة. ولو نظرنا إلى بعض الجوانب التي تكتنف حالة وحياة هؤلاء المذكورين لعرفنا أن المرجح لذلك موجود:

أما آدم عليه السلام فإنما اصطفاه الله تعالى لأنه النبوة الأولى في الأرض، فهو يمثل الحلقة الأولى من حلقات الارتباط بين السماء والأرض وصلتها بها، وهي النبوة فضلاً عن كونه أبا البشر، وغير ذلك من الأسباب الكثيرة الموجبة لترجيح اصطفائه عليه السلام.

المبحث الثالث ـ هل إن الله هو من أوجد مرجّحات الاصطفاء؟:

وقد يعترض معترض فيقول: إن هذه المرجحات التي تدّعون وجودها عند الأنبياء، من الذي أوجدها فيهم؟ أليس هو الله؟ فإن كان كذلك فإن الترجيح حينئذٍ يبطل لأن الله قد أودع فيهم هذه المرجحات ثم اختارهم على ضوئها، فالاختيار هنا وقع بعد إيداع المرجّح في المصطفى، فالاختيار لم يأتِ في رتبة متأخرة عن وجود المزايا أي أنه لم تكن هذه المرجحات موجودة فيهم بإرادتهم.

فنقول: إن وضع هذه المزايا والمرجحات فيهم هو الاختيار، ولتقريب المعنى أكثر نضرب لذلك مثلاً هو المعادن الكثيرة الموجودة في الأرض هي تتراوح وتتفاضل بين الخسة والجودة حيث تنتهي عند الذهب الذي ميّزه الله تعالى عن غيره من المعادن. وبهذه المناسبة أود أن أذكر بيتاً من قصيدة الأزري رحمه الله يخاطب فيه الإمام عليه السلام حيث يقول:

معدن الناس كلها الأرض لكن   أنت من جوهر وهم حصباء[1]

---

(١) الأنوار العلوية (الشيخ جعفر النقدي): ٣٤٨، والبيت للشيخ صالح التميمي الحلي من قصيدة طويلة له.

فالمعدن الذي خلقه الله مميزاً هو هذا الاصطفاء.

وأما اصطفاء نوح عليه السلام، فلأنه الأب الثاني للبشر، فكأنه تأسيس ثانٍ للأرض في عهده بعد الطوفان.

وأما اصطفاء آل إبراهيم عليه السلام فلخصائص ومرجحات سوف نستعرضها أثناء البحث القادم. والبحث هنا طويل أحاول أن أوجزه، فنقول: هل إن اصطفاء آل إبراهيم هو اصطفاء لكل الآل أم لجماعة مخصوصة منهم؟ والجواب: إن الاصطفاء لبعضهم قطعاً وليس لهم كلهم، بدليل قوله تعالى ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾[1].

وتلاحظ دقة التعبير في قوله: ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ فـ ﴿مِن﴾ تبعيضية، أي بعض ذريتي وليسوا كلهم. فمن هؤلاء البعض من الذرية؟ طبيعي أن يكونوا هم الصفوة التي خصها الله بقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2] بعد أن خاطبه إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾[3].

فهؤلاء هم طبقة خاصة مؤهلة لتسنّم مركز الإمامة والزعامة في المجتمع، وهم المصطفون على الناس.

المبحث الرابع ـ قانون الوراثة ودوره في عملية الاصطفاء:

﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾[4] وهنا أحب أن أشير إلى نقطة هي أن الآية هنا تثبت إيماءة حول قانون الوراثة في عملية الاصطفاء هذه، وهي قوله: ﴿ذُرِّيَّةَۢ

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٣٤.

﴿بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ﴾ فـ﴿ذُرِّيَّةً﴾ هنا بدل «آل» المضافة في الآية في المرحلتين المارتين، فالاصطفاء مشى في الذرية بالتسلسل، لأن هذه الذرية بعضها من بعض، أي أن هذه الخصائص تنتقل من الأب إلى الابن، ومن الابن إلى ولده، وهكذا وفق هذا القانون المسمى بقانون الوراثة، ووفق هذه الإيماءة التي أشارت إليها الآية الكريمة.

ولنوضح بإيجاز معنى قانون الوراثة فنقول: إن علماء الاجتماع وعلماء النفس حينما يعرّجون على موضوع الشخصية يعرفونها بقولهم: «هي المجموع الصفاتي المميز للفرد عن غيره»، وهذا المجموع يأتي من قوانين الوراثة وقوانين المحيط أو البيئة الطبيعية، ويعنون بها معناها الأوسع، كالتربية والثقافة والمعرفة... إلى آخره، وبتفاعل هذين القانونين بتشكل موحّد نسميه الصفات الوراثية التي تميز الشخصية وتقوّمها.

إذا عرفنا هذا فلنشر إلى أن قانون الوراثة هل هو أمر مستحدث في العلم، أي أن العلم تنبّه إليه في عصوره المتأخرة، أم أن هناك إشارات إليه في العلوم السابقة؟ نعم هناك إشارات سابقة إليه في تاريخ العلم، ولنتناولها مرحلة مرحلة:

أولاً ـ قانون الوراثة في التراث العربي قبل الإسلام:

الإشارة إلى قانون الوراثة في التراث العربي قبل الإسلام، فالعرب تنبهوا إلى ذلك منذ القدم، فهذا شاعرهم يقول:

بابه اقتدى عدي في الكرم ... ومن يشابه أبه فما ظلم[1]

---

(١) كشف الخفاء (العجلوني): ٢/ ٣٣٨/ ٢٩١١.

وبالمناسبة أنقل لك واقعة هي أن سعيد بن صعصعة بن صوحان العبدي الليثي كان له ولد اسمه ميمون، فكان يخرجه معه ويرقّصه قائلاً:

أحب ميموناً أشد حب أعرف فيه شبهي ولبّي

ولبّه أعرف منه ربي

والعرب يقولون: فلان ينظر بعين أبيه، ويتكلم بلسان أبيه، أي أنه عنده خواصه الوراثية. وكذلك يقول شاعرهم:

من يزرع الشوك لا يحصد به عنباً[1]

وهو ما يعبّر عنه بـ(تماثل النسل مع الأصل) بخواصه، فهو يأخذ من تربيته ومن أخلاقه ومن خواصه الوراثية.

والمسعودي ـ وهو مؤرخ له تقديره عند المؤرخين الغربيين، حيث إنهم إذا مرّوا عليه قالوا: هذا هيرودوت العرب، أي أنه أبو المؤرخين العرب، لأنه مؤرخ شامل وتواريخه منظمة إلى حدٍّ ما ـ عقد فصلاً في كتابه (مروج الذهب) يصف فيه الولد الذي يجيء من أم عربية ومن أم رومية ومن أم فارسية، ويحدد صفاته الوراثية.

ومعرفة العرب بهذا القانون في ذلك الوقت ليست معرفة علمية، بل هي معرفة يمكن تقريبها بمثال هو أننا نعرف مثلاً أن في الجزيرة العربية نفطاً، أما طريقة استخراجه وكيفية فصل مكوناته الأساسية للاستفادة منها فهذا ما لا نعرفه، وهذا ما ينطبق على معرفة العرب بقانون الوراثة فهم لا يدركون منه أكثر من تماثل النسل مع الأصل، بل إن هذه الكيفية من المعرفة بهذا القانون كانت

---

(١) تاريخ مدينة دمشق: ٢٣/ ٣٥٥.

موجودة حتى عند الغربيين حتى جاء مندل وغيره ممن وضعوا أُسس وضوابط هذا القانون.

ثانياً ـ قانون الوراثة عند المسلمين:

الإشارة إلى قانون الوراثة عند المسلمين، ولنبدأ هنا بهذه الرواية التي تقول: إن الرسول ﷺ كان جالساً بين أصحابه وإذا بأعرابي يدخل عليه وهو يجرّ وراءه امرأة فقال: يا رسول الله، إن زوجتي هذه خانتني. فقال له: «كيف عرفت ذلك؟» فقال: جاءت لي بولد أبيض أشقر الشعر، وأنا داكن وهي كذلك، فقال له النبي ﷺ: «على رسلك، هل عندك إبل؟» قال: نعم، قال: «هل ضربت الفحول بالإناث؟». قال بلى. قال: «هل ولد عندك فصيل لا يشبه أمه ولا أباه؟» قال: بلى. قال ﷺ: «نزع به عرق». فقال: بلى يا رسول الله، السمع والطاعة فأخذ ابنه وذهب.

وهذا قانون وراثة صريح، وفي القرآن أصرح من ذلك، كقوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾[1] وعند الرجوع إليه في كتب التفسير[2] نجد إشارات واضحة إلى قانون الوراثة، وهو ما يوحي بالإعجاب، لأن الإسلام يشير إلى ما اكتشف مؤخراً إشارات قبل ألف سنة.

المبحث الخامس ـ قانون الوراثة ودوره في نشأة الحسين عليه السلام:

إذا عرفنا هذا فلنرجع إلى الصفات التي أخذها الحسين عليه السلام تبعاً لهذا القانون، وقبل هذا نود أن نؤكد على حقيقة أن الشخصية إنما تصنعها التربية والحضارة وما يتحدّر من الوراثة. والحسين عليه السلام قبل كل شيء هو ابن رسول

---

(١) سورة الانفطار، الآية: ٨.

(٢) التبيان: ١٠/ ٢٩٢.

الله ﷺ القائل: «كل بني أم ينتمون إلى عصبتهم إلا بني فاطمة فإنني أنا أبوهم»[1]، أي أن كل أبناء رجل لا ينتمون إلى أهل زوجته بل إلى أهله هو، لأن هذا هو نتيجة قانوني الوراثة والتربية. فلماذا هذا الإصرار إذاً من الرسول الأكرم ﷺ حول أبناء فاطمة عليها السلام؟ وما الذي يريد ﷺ قوله؟ الحقيقة أنه ﷺ كان يعلم بما سيجري بعده على الحسين وأبناء الحسين عليهم السلام، ولذا نجد أن العروش التي عاصرت أهل البيت عليهم السلام ـ وهي عروش الأمويين وعروش العباسيين ـ كان الجالسون عليها يحاولون بشتى الوسائل أن يبعدوا الحسنين عليهما السلام عن رسول الله ﷺ، ونفي نسبتهما له وإثبات نسبتهما لعلي عليه السلام. والغرض الوحيد الكامن وراء هذه المحاولة هو نفي الخلافة عنهما وعن أبناء الحسين عليهم السلام، لأنهم إذا أثبتوا أنهم أبناء الرسول ﷺ، فهذا يعني أنهم أصحاب الخلافة الشرعية ووارثوها الحقيقيون، وليس غير ذلك، ولم يهمهم من الأمر أكثر من هذا.

ولذا نجد أن النبي ﷺ يؤكد على هذا المعنى كثيراً لأنه كان ينظر من وراء الحجب، ومن عالم الغيب، فكان يكثر من قول: «ابناي»[2] ولولا ذلك لكان معنى قول الرسول ﷺ: «حسين مني وأنا من حسين»[3] تحصيل حاصل، لأن كل إنسان يعرف أن الولد ابن أبيه فلا داعي لذكره من قبل الرسول ﷺ، لأنه جزء منه، لكن الإصرار منه ﷺ، لأنه يريد أن يؤكد سنخيّة الحسين عليه السلام له: لأن «من» هنا سنخيّة لبيان النوع والجنس، وبتعبير آخر: هو ممن يحمل صفاتي وأخلاقي وآدابي وعلمي. وهذا الأمر قد تنبّه له عمر بن سعد يوم الطف حيث

---

(١) مجمع الزوائد: ٤/ ٩٩.

(٢) المعجم الصغير: ١/ ٢٠٠.

(٣) تهذيب الكمال: ٦/ ٤٠٢، ١٠/ ٤٢٧.

قال مخاطباً جيشه: إنه لو وقف فيكم هكذا يوماً كاملاً لما حصر، فإن بين جنبيه نفس أبيه[(١)].

الوراثة الانفعالية:

فالحسين عليه السلام أخذ من هذين القانونين كليهما: من قانون التربية، ومن قانون الوراثة أو ما نسميه الوراثة الانفعالية، أي وراثة الانفعالات التي تحصل للأم أثناء حملها بابنها، فمن المعلوم أن الحامل تنفعل بالأجواء التي تعيشها وينعكس هذا الانفعال على جنينها، فالتي يقع حملها في فترة حرب تنعكس انفعالات الحرب وآثارها ومؤثراتها على جنينها، وكذلك التي يقع حملها في فترة سلم أو ما شاكل ذلك. وهذا وقع للحسين عليه السلام حيث إن الزهراء عليها السلام كانت حاملاً به في موقعة أُحد حينما قتل حمزة وغيره من شهداء الإسلام وخيرة الصحابة، وكان يسود المدينة وأبياتها حزن وجو من الكآبة والهم. وكانت الزهراء عليها السلام جزءاً من هذا الجو فكانت تعيش الألم والحزن والمعاناة، وقد انعكس هذا واضحاً على الحسين عليه السلام، فقد أخذ الجد والحزم والشجاعة.

التربية وأثرها في الدفاع عن العقيدة:

وأما من ناحية التربية، فواضح أن الحسين عليه السلام قد أخذ من جده رسول الله صلى الله عليه وآله صفاته، ويكفي أن نذكر هذه القصة التي حدثت مع أبي طالب رضي الله عنه فقد اجتمع شيوخ قريش لما رأوا إجماعه على مفارقتهم وعداوتهم وعدم تسليم الرسول صلى الله عليه وآله إليهم، ومشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي ـ وكان أجمل فتى في قريش ـ فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أبهى فتى في قريش وأجملهم، فخذه إليك فاتخذه ولداً فهو لك، وأسلم لنا ابن أخيك

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام (القرشي): ١/ ٤٢٤.

هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، لنقتله، فإنما هو رجل برجل، فقال أبو طالب: والله ما أنصفتموني، تعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبداً. فقال له المطعم بن عدي بن نوفل ـ وكان له صديقاً مصافياً ـ: والله يا أبا طالب ما أراك تريد أن تقبل من قومك شيئاً، لعمري قد جهدوا في التخلص مما تكره وأراك لا تنصفهم فقال أبو طالب: والله ما أنصفوني ولا أنصفتني، ولكنك قد أجمعت على خذلاني ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك[1].

وفي مرة أخرى قالوا له: إذاً ما يريد منا؟ فإن أراد حكماً ملّكناه وإن أراد مالاً أعطيناه من صفوة أموالنا، وإن أراد الزواج زوجناه من يريد، فالتفت أبو طالب إلى الرسول ﷺ وقال له: أتسمع ما يقول قومك؟ قال ﷺ: «والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما فعلت».

فلما سمعوه نفضوا ثيابهم وقاموا وهم يقولون: لا سبيل إلى هذا[2].

وهذا ما ربّى رسول الله ﷺ عليه ولده الإمام الحسين عليه السلام، وإلا فإن الحسين عليه السلام لو أراد أن يسالم الأمويين فكم من الإغراءات التي كان يمكن أن يقدموها له؟ وأليس هو الذي يقول ابن أبي الحديد عنه إنه عليه السلام كأن هذه الأبيات قد قيلت فيه:

وقد كان فوت الموت سهلاً فردّه	إليه الحفاظ المر والخلق والوعر
ونفس تعاف الضيم حتى كأنه	هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٤/ ٥٥.

(٢) بحار الأنوار: ١٨/ ١٨٢.

فأثبت في مستنقع الموت رجله   وقال لها من تحت أخمصك الحشر
تردّى ثياب الموت حمراً فما أتى   لها الليل إلا وهي من سندس خضر[١]

الله حكم قانون الاختيار في كل ما يخص الحسين عليه السلام:

فهو عليه السلام وضع الإغراء والإرهاب الموجّه إليه جانباً وتمم الرسالة التي اختارها الله له، ومن ضمن هذه الرسالة اختيار مقتله، فمقتله عليه السلام لم يكن اعتباطياً وإنما كان ضمن دائرة الاختيار الإلهي، وكذا تربة مقتله، فالله جل وعلا حكّم قانون الاختيار في كل ما يخص الحسين عليه السلام، وهو اختيار قائم وفق قانون السماء كما نصّت عليه الآية مقام البحث، وذلك في جملة من الأمور التي أشرنا إليها، كزمان النهضة، فإن الأمر وصل حدّاً أنه لو تأخر زمان النهضة عن الموعد الذي حدّده تعالى لها، لكان من الممكن أن يتسع الخرق على الواقع[٢].

ويمكن تشبيه الأمر بشخص أصيب بداء، فتأخير إعطائه الدواء يعني استفحال الداء وتعاظمه الذي يمكن أن يؤدي إلى قتل المصاب به، وهكذا نظر الحسين عليه السلام إلى جسد الأمة الإسلامية المصاب بداء الأمويين والذي تمزّق شر ممزق فإنه قد انتشر كل ما هو فوضوي وجاهلي في تلك الفترة المتمثلة بحكم يزيد. وقد وصل الأمر إلى درجة الاستهتار بمقدرات المسلمين بحيث إن الحسين عليه السلام أصبح يرى الخطر في السكوت، ولذلك تحرك وقام بثورته المعطاءة.

فالحسين عليه السلام كما ورث الصلابة والشجاعة من جده صلى الله عليه وآله، ورثها أيضاً من

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٢٤٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٢٦٧.

أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، وهو ما يسمى بالوراثة القريبة، مع أنه قد ورث ذلك أيضاً بالوراثة البعيدة. فهذا الموقف الذي ورثه من جده صلى الله عليه وآله ورث من أبيه عليه السلام موقفاً لا يقل عنه شأناً، وذلك حينما عقد أهل الشورى مجلسهم بعد وفاة الخليفة الثاني حيث قدّم له عبد الرحمن بن عوف عرضاً كله إغراء، إذ جلس بجانبه وقال له: نحن لا نجد من هو أفضل منك، لكن نبايعك على شرط. قال عليه السلام: «ما هو؟». قال: نبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر. فقال عليه السلام: «أحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وأجتهد برأيي»[1] أي أنه عليه السلام يريد أن يقول لهم حول سيرة الشيخين: إن لي منهجي الخاص في فهم النص واستنباط الحكم، فلا تقيدني بشيء لا أستطيع العمل به، بل وربما كان حتى الظرف لا يساعد عليه كما هو الحال في التفرقة في العطاء، ففي زمن الخليفة الأول كان المسلمون يأخذون عطاءهم سواسية، وحينما جاء الخليفة الثاني قرر أن له في هذه المسألة نظراً تقتضيه المصلحة فكان أن ميّز في العطاء.

الخليفة الثاني يرى عدم إعطاء المؤلفة قلوبهم من الزكاة:

وهذا يجرنا إلى أن نذكر حقيقة هامة هي أن كل كتّاب السير ومؤرخي التشريع الإسلامي قد أثبتوا أن في زمن الخليفة الثاني كان هناك مدرستان: الأولى مدرسة السنّة ويمثلها الإمام علي عليه السلام، والثانية مدرسة الرأي وكان يمثلها ويقودها الخليفة الثاني نفسه، ولنأخذ لذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[2] ففرض الرسول صلى الله عليه وآله لهؤلاء المؤلفة قلوبهم بأمر الله سهماً، ولما جاء الخليفة الثاني قال: إنما فرض الإسلام سهماً لهؤلاء لأنه كان ضعيفاً، أما وقد قوي الآن فلا حاجة له بهم.

---

(١) بحار الأنوار: ٣١/ ٣٩٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

فمنع هذا السهم عنهم. فقيل له في ذلك: إنك إنما تخالف النص، فأجابهم بأنه يسترشد بروح النص.

وهذا أشبه شيء بما ينقله الدكتور أحمد أمين باستخدامنا المعاصر حينما نقول: إن فلاناً يتصرف بروح القانون لا بنص القانون. فكأنه يريد أن يقول لهم: إن هذه هي العلة التي يدور عليها التشريع وجوداً وعدماً، فلما انعدمت العلة لم يكن ضرورة لإعطاء هذا السهم[١]، والحال أنه ليس كذلك، وقد خالفه الصحابة فيه.

الخليفة الثاني يرى أن في الخيل زكاة:

ومن آرائه أيضاً أنه ليس في الخيل زكاة، ثم بعد ذلك فرض عليها الزكاة، ولما قيل له في ذلك قال: منعنا الزكاة عنها حينما كنا بحاجة إليها في حروبنا، أما وقد قوي الإسلام وأصبحت الخيل وسيلة للتباهي والجمال فلا بدَّ من أن نفرض عليها الزكاة[٢]. وهذا ما يسمى بتحكيم الرأي في النص أو استلهام المصلحة من وراء النص.

أما الإمام عليه السلام فكان على خلاف ذلك، جاء إليه جماعة من المسلمين وطلبوا إليه ألا يساوي في العطاء بين شريف القوم وغيره، فرفض محتجاً بأن المال للمسلمين كافة، واللام لام الملك، وهي تقتضي التسوية، مع ما في هذا من مخالفة للقرآن في سبيل إرضاء نزواتهم. وهو موقف صلب من أمير المؤمنين، وقد عبّر عنه بقوله: «لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله»[٣]، فالحق هو الذي ينبغي أن يتّبع.

(١) بحار الأنوار: ١٨/ ١٨٢.
(٢) تاريخ الخلفاء (السيوطي): ٩٣.
(٣) نهج البلاغة/ الكلام: ٢٠١.

وهذا الموقف الصلب ورثه الحسين عليه السلام أيضاً من أبيه عليه السلام، وكذلك ورث عليه السلام من آبائه بالوراثة البعيدة الأريحية، فقد كان عبد المطلب رضي الله عنه يحتفر الآبار وينبذ فيها الزبيب كي يخفف من ملوحتها، ثم يسقي قريشاً منها، وكان يطعم الطعام حتى للطير في رؤوس الجبال[1].

فكل هذه الصفات والخواص ميّزت الحسين عليه السلام وكوّنت شخصيته العظيمة، فكل ما يخص الحسين عليه السلام قد اختاره الله له كما أشرنا له سلفاً، فقد اختار له بيئة الولادة وهي المدينة، واختار له الحجر الذي سيربيه وهو حجر فاطمة، اختار له من يرضعه علمه وأدبه وخلقه وكرمه وهو جده رسول الله صلى الله عليه وآله ومن بعده أبوه أمير المؤمنين عليه السلام، وأخيراً اختار له التربة التي ستضمه إلى يوم القيامة، وهي كربلاء.

أسباب اتخاذنا التربة في الصلاة:

وكربلاء لا نتعامل معها على أنها تربة دفن فيها الحسين عليه السلام فقط، بل إننا نتعامل معها بغير ذلك وإن كان بعضهم يحاول أن يثبت ذلك علينا متهماً إيانا بعبادة الصنم بإصرارنا على الصلاة على تربته مع أننا إن لم توجد التربة فإننا نصلي على ورقة أو حصير أو أي نبات لا يؤكل، لكن حيث تتوفر التربة الحسينية فإننا نفضلها على غيرها وذلك لأسباب منها:

أولاً: أنها تمثل البيئة التي مثل فيها الحسين عليه السلام أروع الخصال الكريمة، وأعطانا دروساً كاملة وناضجة في الصلابة والإيمان والدفاع عن العقيدة. فكانت بحق تمثل مدرسة متكاملة ـ وليست جمراً وتراباً دفن فيه الحسين عليه السلام ـ حينما رسم عليه السلام لنفسه ولقومه ولصحبه مصيره والدور الذي سيقوم به.

---

(١) البداية والنهاية: ٢/ ٢١٤.

وهو تراب سيبقى كالكتاب يخزّن الذكريات، وهو ما نلاحظه عند كل الشعراء الذين وقفوا على تراب الحسين وخاطبوه، وهم في ذلك إنما يستلهمون منه المعاني المكتوبة في الوعي والأجواء النفسية التي يقرأ فيها ما مثّله لنا الحسين عليه السلام من الإباء والتضحية والشجاعة والصلابة وما جسّده على هذا التراب، فهو عليه السلام قد جعلها تربة مميزة تعيش في أذهاننا وليس بعيداً عنها. والدليل على ذلك أن أي شيعي في شرق الأرض أو غربها حينما تذكر عنده كربلاء فإنه يقفز إلى ذهنه أنها وعاء كل تلك الخصائص التي ذكرناها ووعاء التضحيات الفذة، ووعاء الموقف الحر، ووعاء الكرامة وكل ما اختار الله له أليس عليه السلام هو القائل في خطبته: «وخُيِّر لي مصرع أنا لاقيه، وهو كأني بأوصالي هذه تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا»[1].

وهنا التفاتة دقيقة في التعبير الحسيني وهو قوله: «بأوصالي» أي بتقطع جسمي، أما موقفي فلا، لأنه سيبقى على صلابته، وها هو أحد الشعراء يخاطبه قائلاً:

طلعت على الدنيا حساماً مهنداً ... فعاشتك حيناً ثم عاشت على الصدى
تمجّد قوم بالخلود وإنني ... رأيت بمعناك الخلود مخلّدا
أيا واحداً من خمسة إن ذكرتهم ... ذكرت بهم في كل وجه محمدا

فلهذا اختاره الله ليعيش بين جوانحنا وفي قلوبنا ووعينا ومشاعرنا، ولأنت كذلك يا سيدي يا أبا عبد الله. فنحن لهذا نختار التربة.

وثانياً: لأنها ترفع جباهنا في السجود عما يمكن أن يكون نجساً أو قذراً، وما هو كذلك لا يصح السجود عليه في واقع الحال.

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ٣٨.

وثالثاً: أن مجرد نظرنا إلى التربة ـ مع امتلاكنا لوعي يحدد لنا ماذا جرى في واقعة كربلاء ـ فإن أذهاننا تنصرف إلى المثل العليا والدماء التي سكبت عليها في واقعة الطف:

ومزجت الزمان عن خشعة الفجـ ـر على مهدك الزكي الضاحي

فرأيت النبي يفتضّ في سمـ ـعك آيات وحيه النفّاح

والبتول انتفاضة تبعث الزهـ ـو حيياً في هاجر الأفراح

وعليا يريك أن قطاف الـ ـفتح يُستار من لهيب الجراح

هكذا لُحت قمة من كراما ت وموجاً مزمجراً من طماح

ومدى ليست الكواكب إلا نصباً في طريقه اللماح

إذاً، هذا الاختيار من الله للحسين عليه السلام في الطف كان اختيار نهاية لحياته الجسدية وليس ختاماً لحياته المطلقة، فالحسين ما مات ولن يموت، لكن جسده اختار الله له أن يقطّع أشلاء تضمها هذه التربة التي قدّر لها أن تعيش في مشاعرنا وها نحن نردد مع أديب الطف:

لا تطلبوا قبر الحسيـ ـن بشرقها أو غرب

وعدوا الجميع وعرّجوا نحوي فمشهده بقلبي

ولذلك فإن العقيلة زينب عليها السلام أبت أن تذهب إلى المدينة إلا بعد أن تمتاح من هذه القيم والمثل، فأرادت للقافلة أن تعرّج نحو المصرع، وكانت تتلفّت يميناً وشمالاً، فسألها السجاد عليه السلام عن سر تلفتها، فقالت: عمه، قل للدليل فليعرّج بنا على كربلاء. فعرّج الدليل بهم، وما كادت تلوح لها قبور أهليها

وأنصارهم حتى نزلت من على ظهر الناقة وأقبلت من ورائها مسبيات الطف، يدفقن إلى قبر الحسين عليه السلام وما إن وصلته حتى احتضنته:

واعـيـونـك يـبـو الـسـجـاد	لـون يـمّـك يـخـلـونـي
احـط راسـي عـلـى گـبـرك	وارشـه بـدمـعـة عـيـونـي
واگـضـي الـعـمـر گـلـه اهـنـاك	واگـلـهـم لـلـيـلـومـونـي
شـلّـي بـالـعـمـر بـعـدك	شـنـهـو عـيـشـتـي بـلـيـاك

اليوم الأربعون

فلسفة زيارة الحسين عليه السلام

المباحث العامة في الموضوع

ما هي العوامل التي دعت إلى زيارة الحسين عليه السلام؟ سوف نبحث عن هذه العوامل التي دعت إلى تثبيت هذا الجانب عند الشيعة بالذات، وعند المسلمين بصورة عامة.

هناك عدة عوامل ساعدت على زيارة الحسين عليه السلام بهذا الشكل، كما ساعدت على أخذها بالتوسع بالشكل الذي نراه الآن. وسنتناول مبدئياً بعض هذه العوامل التي سبقت منها مقتل الحسين عليه السلام والتي استجدّت بعد مقتله عليه السلام.

المبحث الأول ـ عوامل تاكيد زيارة الحسين عليه السلام عند المسلمين:

فالعوامل صنفان: صنف عام بالنسبة إلى الأولياء بصورة عامة، والصنف الآخر: تبرعم زيارة الحسين عليه السلام بالذات.

فمن العوامل العامة حصول البركة من الأولياء، وهذا المعنى كان موجوداً عند زيارة قبورهم، حيث إننا نعتقد ببقاء النفس بعد الموت، كما هو عند غيرنا أيضاً، كالإغريق والرومان واليونانيين فهم يعتقدون أيضاً أن النفس لا يعتريها فناء.

وتختلف المدارس الروحية عن غيرها، فالمدارس المادية تعتقد أن الإنسان ينتهي بموته كل شيء، فلا يوجد هناك كيان منفصل يتميز عن الجسد. ويعتقد بعض فلاسفة المسلمين أن الروح وظيفة عليا للجسد، أي أن آخر ما يترقّى إليه الجسد يصل إلى المستوى الروحي.

وعموماً فإن الزيارة تتفرّع من هنا حيث إن المسلمين يعتقدون أنهم حين يأتون إلى زيارة الولي فإنهم إنما يستمدون البركة من روحه التي ترفرف فوق القبر. هذا من جانب والجانب الآخر أنهم يحصلون على الثواب لزيارتهم الأولياء، والله يحب أن يزار أولياؤه.

وفكرة زيارة القبور موجودة قبل الإسلام وإن كانت هناك أهداف غير هذه التي أشرنا إليها، فإن هناك هدفاً عند الأمم يسمى عبادة الأرواح، وهو الذي يستند إليه البعض عندما يدعو إلى محو القبور.

وكان الذي يقوم بذلك بالخصوص في العراق الآشوريون والبابليون وأمم أخرى حيث يصل الأمر إلى تقديم القرابين للمزور مع وجود روح عبادة تلك القبور. ولذلك لما أرسل أمير المؤمنين عليه السلام أبا الهياج إلى العراق قبل أن ينقل العاصمة من المدينة إلى الكوفة أول خلافته، أمره أن يمحو تلك القبور[١] للقضاء على روح العبادة تلك، فأخذ البعض فعل الإمام هذا دليلاً ومستنداً على أن كل زيارة للقبور تعتبر عبادة وشركاً، مع العلم أن الأمر كان بهدم القبور التي كانت تعبد لا غير.

وزيادة على ذلك أن النبي ﷺ قال: «زوروا القبور فإنها ترقق القلوب»[٢] و«نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها»[٣].

---

(١) علل الدارقطني: ٤/ ١٨٤.

(٢) المعجم الصغير: ٢/ ٤٣.

(٣) مغني المحتاج: ١/ ٣٦٥.

وهو هدف الموعظة، فإن الإنسان إذا وقف على القبر يأخذ عظة وعبرة، لأنه «كفى بالموت واعظاً»[1]، فيعرف أن هذا هو المصير الحتمي لكل إنسان، والمنظر يوحي له بشيء من تصوّر الآخرة والموت، وهو تصوّر ينعكس على سلوكه، ويترك أثراً في أخلاقه. ولذلك نشأ ما يسمى بـ(أدب القبور)، وكأنما أخذ الناس هذا من أمر الرسول ﷺ، ونشأ عندهم الوعظ عن طريق القبر بكتابة موعظة أو شعر يؤدي إلى الخوف من الله، مثلاً قول أحدهم:

يا واقفين ألم تكونوا تعلموا ... أن الحِمام بكم علينا قادمُ

لا تستعزوا بالحياة فإنكم ... تبنون والموت المفرق هادمُ

ساوى الردى ما بيننا في حفرة ... حيث المخدّم واحد والخادم

روي أنه مر رجل على رجل يبكي فوق قبر فقال له: أتبكي على عزيز أو صديق؟ قال: بل على أعز منهما، فقال: من؟ قال: نفسي. فقال: كيف؟ قال: هذا عدوي وأردت أن أشمت به، فرأيت هذا البيت على قبره:

وما نحن إلا مثلهم غير أننا ... أقمنا قليلاً بعدهم ثم نرحل[2]

المبحث الثاني ـ أهداف زيارة الحسين عليه السلام:

فهذه الأسباب نعتبرها أسباباً رئيسية لزيارة القبور. أما بعد مقتل الحسين عليه السلام فقد استجدّت أهداف أخرى مع حصول الأهداف الآنفة:

الهدف الأول ـ الندم على عدم نصرة الحسين عليه السلام:

وقد نشأ بعد مقتله عليه السلام، فأخذ الناس يبحثون عن الطريقة التي تزيل عنهم

---

(١) الكافي: ٢/ ٨٥/ ١.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٨/ ٤٣.

الإثم من عدم نصرته. وقد اتخذ هذا الأمر عدة مظاهر:

المظهر الأول ـ ثورة التوابين، وقد كانت بسبب الشعور بالندم على عدم النصرة:

المظهر الثاني ـ إيلام النفس وحملها على الألم تطهيراً لها من الإثم، فظهرت بعض الطقوس التي يراد لها أن تقنع الفاعل بشعور التطهير من الذنوب، كالتطبير الذي أخذناه بشكل تقليدي:

المظهر الثالث ـ الزيارة، فبدأ أهل الكوفة خاصة وأهل العراق عامة يتوافدون على زيارة الحسين عليه السلام التي يعتبرونها نوعاً من أنواع التطهير، وأول شخصية زارت الحسين عليه السلام كانت بهذا الدافع:

الهدف الثاني ـ استشعار أن هذا فيه محبوبية للرسول صلى الله عليه وآله:

فالروايات التي كانت ترد على ألسنة أهل البيت عليهم السلام وعلى ألسنة غيرهم من الأصحاب حول هذا الأمر بدأت تأخذ صدًى بين الناس وتذيع بأن زيارة الحسين عليه السلام من الأعمال التي تحقق للنبي صلى الله عليه وآله رضاً وسروراً، مثلاً ورد عن الصادق عليه السلام: «من أحب أن يكون في ظل الله يوم القيامة وفي شفاعة محمد صلى الله عليه وآله فليزر الحسين»[1].

الهدف الثالث ـ تحصيل الأجر والثواب بها:

فالروايات تؤكد على أن الله تعالى قد عوّض الإمام الحسين عليه السلام بثلاث خصال: استجابة الدعاء تحت قبته، وجعل الإمامة في ذريته، والشفاء في تربته[2].

---

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة: ٣/ ٣٣٩.
(٢) عدة الداعي: ٤٨، وأضاف: وألا يعد أيام زائريه من أعمارهم.

وقد أخذت هذه المسألة تتعمق أكثر فأكثر في زمن الأئمة عليهم السلام بالذات، لأنهم مارسوها أمام الناس[١].

الهدف الرابع ـ أن بتربة كربلاء يتضاعف الثواب:

فالمسلمون يرون أن تربة كربلاء عامل من عوامل مضاعفة الثواب مثل مكة والمدينة والنجف، ويمكن الاستدلال له بأن تراب المدينة أفضل من الكعبة، لأنه لامس جسد النبي صلى الله عليه وآله، وهذا له علة وهي أن النبي صلى الله عليه وآله أشرف الموجودات، والملامس للأشرف أشرف، فعليه هي أشرف من الكعبة. فالحسين عليه السلام جزء من النبي صلى الله عليه وآله روحاً وجسداً: «حسين مني وأنا من حسين»[٢]، فالتراب الذي يلامس جسد الحسين عليه السلام يأخذ حكم الملامس لجسد الرسول صلى الله عليه وآله.

الهدف الخامس ـ حرص الأئمة عليهم السلام على زيارته عليه السلام:

فكانوا عليهم السلام وخاصة أصحابهم، يداومون على هذه الزيارة لكي يتأثروا بروح الحسين عليه السلام، باعتبار أن الشيعة تعرضوا للضغط في مختلف العصور، فأراد الأئمة عليهم السلام صنع رجال على مستوى المسؤولية، بأن يعيش أهل البيت عليهم السلام في فكرهم بشكل حي، فكانوا يستهدفون صنع رجال من نمط يتفاعل مع الحسين عليه السلام وأهدافه وآدابه ليجدوا عند ملامستهم كربلاء سبب إراقة الدماء والتضحية. فماذا رسم الحسين عليه السلام؟ لقد رسم البطولة والصبر والكرامة والإباء والمثل العليا والفداء والمبدأ الصحيح.

المبحث الثالث ـ وسائل الأمويين للقضاء على زيارة الحسين عليه السلام:

وهذا هو الذي حمل الأمويين على منع زيارته باعتبار أن هذا عامل إيجابي

(١) بحار الأنوار: ٩٨/ ١١٣/ ٣٤.

(٢) المستدرك على الصحيحين: ٣/ ١٧٧.

وفعال، لذلك لما أرعبتهم زيارة الحسين عليه السلام عمدوا إلى القضاء عليها بالتدريج، ووضعوا لها وسائل مكافحة على مختلف الأسس والمستويات:

١ ـ فعلى المستوى العقائدي راحوا يركزون على أن زيارة القبور بدعة، يقول الأعمش: جلسنا ليلة نتذاكر فضل زيارة الحسين عليه السلام فقال أحد الجيران: هي بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. فرأيته في اليوم الثاني عند الحسين فسألته عن السبب فقال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام مع ركب جاؤوا لزيارة الحسين وأنا قد تبت.

٢ ـ ادعاؤهم أنهم عند زيارة الحسين يفعلون ما ينافي الدين، كشتم الصحابة، وهؤلاء عندهم حتى معاوية صحابي محترم، فالغزالي يقول: لعله تاب أو ندم، ولا يجوز شتم المسلم. فهو لذلك يستشكل في شتمه.

٣ ـ إزالة هذا الهدف بإمحاء معالم القبر، وكان أول من وضع أساسه الشريف كما يقول بعض المؤرخين جماعة من بني أسد، حيث وضعوا عليه بعض المعالم بعد مقتله عليه السلام بأيام. والبعض يقول: أُسس سنة (٦٥)هـ في عهد المختار إذ وضع بناء بسيط على القبر الشريف وقبور الشهداء، واستمر إلى أن علاّه الشيعة وجعلوا له سقفاً، ووسعوه وجعلوا له أبواباً. ولذلك فإن بعض الروايات تنقل أن الإمام الصادق عليه السلام يعلّم صفوان الجمّال كيفية الزيارة حيث أمره بأنه إذا وضع رجله على باب الحائر فليقل كذا وعلى باب القبة فليقل كذا كما في كتب الزيارات[1]، مما يدل على أن البناء كان موجوداً في أيامه عليه السلام.

فأخذ الأمويون يهدمون كل بناء يشيّد أو يجدّد، ووضعوا الحواجز على القبر لمنع السائل عنه، فكان الناس يأتون إلى الزيارة ليلاً بالتخفي، حيث يسيرون في النهار، ويزورون في الليل ثم يرجعون فوراً.

---

(١) مصباح المتهجد: ٤٩٩ ـ ٥٠٤.

ثم جاء دور العباسيين وأول ما جاء دور الرشيد فقطع السدرة التي إلى جانب القبر وهدم البناء والمسجد فوضع الشيعة عليه أحجاراً وكان أشبه بالبقيع حالياً.

ثم جاء المأمون فبنى على القبر بناء بسيطاً ثم تجدّد الوفود إلى القبر، فجاء دور المتوكل فلم يكتفِ بهدم القبر فقط بل أزال ملكية ميل مربع من حول القبر، وحرث المنطقة وأدخل عليها الماء، وأمر بأن يزرع في المنطقة، يقول الديزج: أرسلني مع جماعة وقال: انظر هذا القبر الذي افتتن به الناس وانبشه وانثر عظامه في الهواء، وكتب معي إلى جعفر بن محمد بن عمار القاضي: أعلمك أني قد بعثت إبراهيم الديزج إلى كربلاء لنبش قبر الحسين، فإذا قرأت كتابي فقف على الأمر حتى تعرف فعل أو لم يفعل.

قال الديزج: فعرفني جعفر بن محمد بن عمار ما كتب به إليه، ففعلت ما أمرني به جعفر بن محمد بن عمار ثم أتيته فقال لي: ما صنعت؟ فقلت: قد فعلت ما أمرت به، فلم أرَ شيئاً ولم أجد شيئاً. فقال لي: أفلا عمقته؟ قلت: قد فعلت وما رأيت. فكتب إلى السلطان: إن إبراهيم الديزج قد نبش فلم يجد شيئاً، وأمرته فمخره بالماء، وكربه بالبقر.

قال أبو علي العماري: فحدثني إبراهيم الديزج، وسألته عن صورة الأمر، فقال لي: أتيت في خاصة غلماني فقط، وإني نبشت فوجدت بارية جديدة وعليها بدن الحسين بن علي، ووجدت منه رائحة المسك، والدم ينبج منه، فتركت البارية على حالتها وبدن الحسين على البارية، وأمرت بطرح التراب عليه، وأطلقت عليه الماء، وأمرت بالبقر لتمخره وتحرثه، فلم تطأه البقر، وكانت إذا جاءت إلى الموضع رجعت عنه، فحلفت لغلماني بالله وبالأيمان المغلّظة لئن ذكر أحد هذا لأقتلنه[1] ولكن الشيعة لم يكترثوا، وكان عندهم

---

(١) الديزج كان يهودياً ثم أسلم. انظر الحادثة في الأمالي الطوسي: ٣٢٦/ ٦٥٣.

بعض العلامات وكانت زيارتهم ليلاً، وكانوا إذا جاء العسكر يرمونهم بالسهام، فكانوا يعتقدون أن هذا من فعل الملائكة أو الجن، حتى امتنعوا.

وبعد هذه الحادثة قتل الأتراك المتوكل، فجاء المنتصر وأمر ببناء القبر وإعادة العمارة في الأرض التي زرعت، وبقيت إلى زمن المعتضد في سنة (٢٨٥)هـ، فأرسل المهندسين وأقام البناء عند ضريحي أمير المؤمنين والحسين عليهما السلام.

ثم جاءت عمارة عضد الدولة البويهي، وكانت عمارة فخمة في الضريحين، ثم جاءت عمارة الوزير محمد الرهارموزي التي رآها الرحالة ابن بطوطة، ثم جاءت عمارة أويس الإيلخاني وهي الموجودة حالياً، وقد جرى عليها الكثير من الإصلاحات.

وكان أول زائر للحسين عليه السلام عبيد الله بن الحر الجعفي، وكانت بدافع الندم، لأن الحسين عليه السلام رآه في قصر بني مقاتل وقال له: «لو تلتحق بي كان ذلك خيراً لك في دينك ودنياك». ولكن غلبت عليه شقوته، فلما جاء القبر قال:

فيا لك حسرة ما دمت حياً ... تردّد بين صدري والتراقِ

حسين حين يطلب بذل نصري ... على أهل الضلالة والشقاقِ

غداة يقول لي بالقصر قولاً ... أتتركنا وتزمع بالفراقِ

فلو أني أواسيه بنفسي ... لنلت كرامةً يوم التلاقي

إلى أن قال:

لقد فاز الألى نصروا حسيناً ... وخاب الآخرون إلى الشقاقِ[1]

---

(١) بحار الأنوار: ٤٥/ ٢٥٤.

والثاني هو سليمان بن قتة:

مـررت عـلـى أبـيـات آل مـحـمـد ... فـلـم أرَهـا أمـثـالـهـا يـوم حـلـتِ

فـلا يـبـعـدِ الله الـديـار وأهـلـهـا ... وإن أصـبـحـت منهم برغمي تـخـلـتِ

وإن قـتـيـل الـطـف مـن آل هـاشـم ... أذل رقـاب الـمـسـلـمـيـن فـذلّـتِ(١)

والثالث هو جابر بن عبد الله الأنصاري الذي راح يقطع الطريق إلى أن وصل في أربعين الحسين عليه السلام.

(١) أسد الغابة: ٢/ ٢٢.

الفهرس





مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - شارع المطار - قرب كليّة الهندسة

مفرق سنتر زعرور - ص . ب :٧١٢٠ / ١١

هاتف : ٤٥٠٤٢٦ - فاكس :٤٥٠٤٢٧ /٠١

فرع ثاني : العراق - كربلاء - شارع السدرة

موبايل :٠٧٨٠١٥٦١٩٨٠ - هاتف : ٣٢٢٤٠٦

Published By Alaalami Library

Beirut - Lebanon PO.Box 7120

Tel - Fax : 450427

E-mail:alaalami@yahoo.com.

WWW.ALAALAMI.COM

